كتابي

١ قروش



حلمي مراد

لوحة فوتوغرافية من روائع الفنان "جارو"
من سيدات المجتمع: السيدة ليلى فخر الدين

كتابي

كتاب شهرى لتلخيص الكتب العالمية

يصدر أول كل شهر

صاحبه ورئيس تحريره : حلمى مراد

شعار الكتاب

مصباح الفكر عند الإغريق

مدير التحرير : محمد بدر الدين خليل

الكتاب الثامن والسبعون (السنة السابعة)

الاشتراكات ومجموعة الاعداد السابقة : اقرأ التفصيلات بالداخل

الادارة : عمارة الجندول ـ ١٤ شارع ٢٦ يوليو ـ بالقاهرة

تليفون ٥٩٥٥٦

محتويات الكتاب

«طاغية بغداد» .. و «العالم المفقود»

عزيزي القارىء

• في الوقت الذي تسير فيه ثورة العراق قدما في محو بقايا الفساد والطغيان ، يذكرنا الروائي الامريكي «جلين بيرس» ـ في أحدث قصصه ـ بفترة شبيهة بتلك التي تخلص منها العراق الشقيق أخيرا .. فترة حكم هارون الرشيد الذي كان يعتمد على العناصر الاجنبية ـ لا سيما الفارسية ـ في تسيير أمور الدولة ، والذي انصرف الى اللهو والترف ، مما أطمع الدولة البيزنطية فحاولت أن تغير على أطراف الدولة العربية ، ومما أحال بلاط الخليفة الى خلية حافلة بالدساسين والمتآمرين !

وقصة « جلين بيرس » ليست عرضا تاريخيا ، بقدر ما هي لون طريف من القصص ، يجمع بين حقائق الواقع وجموح الخيال ، وبين الجو العاطفي والمغامرات المثيرة !

والى جانب « طاغية بغداد » ـ وهي القصة التي حدثتك عنها ـ يضم « كتابي » ، في عدده هذا ، قصة أخرى كنت أعتزم من زمن أن أقدمها لك ملخصة ، ثم قدر لوزارة التربية والتعليم أن تقررها على طلبة الشهادة الثانوية العامة ، **فرأيت أن من الامتع لك ، والانفع للطلبة ، أن أقدم ترجمة حرفية لها ، تنشر على ثلاث حلقات ، أولاها في هذا العدد .. تلك هي « العالم المفقود »**

ولقد فرغ « كتابي » أخيرا من فحص ردود القراء عن مسابقتيه الاخيرتين ، وفيما يلي نتيجة كل منهما :

نتيجة استفتاء « مطبوعات كتابى »

• **اقترن** الاستفتاء الذى دعونا فيه القراء الى التكهن بالاسم الذى يطلق على أحدث مجموعة من قصص الكاتب الايطالى العبقرى « البرتو مورافيا » — وهى التى صدر بها العدد ٣٨ من « مطبوعات كتابى » — بظاهرتين .. أولاهما ازدياد الوعى الادبى لدى القارىء العربى ، حتى أنه أصبح يتتبع أدق أنباء الادب العالمى . فقد تكهن أكثر من ٧٠ فى المائة — ممن اشتركوا فى المسابقة — بأن الاسم المنشود هو « امرأتان » .. و « امرأتان » هى أحدث كتاب لمورافيا ، ولم يكن قد وصل الى مكتبات البلاد العربية عندما طرحنا الاستفتاء .

والذى فات مقترحى هذا الاسم ، هو أن قصة « امرأتان » قصة طويلة (رواية) ، فى حين أننا ذكرنا أن « مطبوعات كتابى » كانت تتأهب لنشر مجموعة من القصص القصيرة

أما الظاهرة الثانية ، فهى أن لمورافيا جمهورا كبيرا من القراء — فى البلاد العربية — اذ تضمنت الاجابات أسماء جميع مؤلفاته تقريبا ، حتى ما لم ينقل منها الى اللغة العربية !

وكان من المؤسف حقا ، أن أحدا لم يوفق الى الاسم الصحيح ، وهو « قصص من روما » . **على أن « كتابى » لم يشأ أن يحرم القراء من الجائزة ، فمنحها لصاحب أقرب عنوان الى العنوان الصحيح . وهو :**

السيد محمود توفيق همام ، بالقوات الجوية

٧ شارع ٣٢ — منشية التحرير بالمطرية .

فقد اقترح اسم « **شهر العسل المر** » . وقد كان كتاب « مورافيا » الذى يحمل هذا الاسم ، أحد الكتابين اللذين اخترنا أقوى قصصهما

نتيجة مسابقة قصة « أدوين درود »

• **ولقد** لقيت مسابقة تكملة قصــــة « ادوين درود » للقصصى الخالد الذكر « تشارلس ديكنز » – وهى التى نشرناها فى العدد ٧٦ من « كتابى » – اقبالا يعتبر رقما قياسيا ، وكانت أبرز ظاهرة فيها ، أنها كشفت عن نضــوج الموهبة القصصية لدى القراء ، كما دلت على أن القارىء العربى لم يعد يقرأ القصة لمجرد التسلية ودفع السأم ، وانما هو يقرأها للافادة الثقافية كذلك . فان تكملة قصة « ادوين درود » كانت تعتمد على بضع نقاط دقيقة ، أوردها المؤلف فى سياق الفصــول ، بحيث يظنها القارىء العابر وكأنها « حواشى » وردت عفوا ، ولكن كثيرا من القراء الذين اشتركوا فى المسابقة ، فطنوا اليها ،

ولقد روعى فى فحص الردود ، تقدير درجة للفكرة التى بنى عليها المشترك تكملته المقترحة ، وتقدير درجة أخرى للاسلوب الذى كتبت به التكملة ، ثم تقدير درجة ثالثة لمدى مراعاة المشترك للشروط التى ذكرناها عند الاعلان عن المسابقة .

وقبل أن تنشر نتيجة المســابقة ، نلخص فيما يلى أهم البحوث والدراسات التى قام بها الادباء ونقاد الادب ، لحل لغز « ادوين درود » ، واماطة اللثام عن الاتجــاه الذى كان « ديكنز » يعتزم انتهاجه لو لم يعاجله الموت قبل أن يفرغ من كتابة القصة ..

مفاتيح اللغز الغامض

• **وأهم** مصدر لتلك الدراسات ، هو « جون فوستر » ، الذى كان صديقا شخصيا لديكنز . فقد كتب اليه « ديكنز » فى سنة ١٨٦٩ – قبل أن يشرع فى تأليف القصة – عن الفكرة التى استهوته ، وعن طرافتهــا من حيث أن **الخال يقتل ابن**

أخته الاثير بحبه ، تحت نوازع تتسلط عليه فلا يحاول أن يقاومها ، لانه يشعر كما لو كانت متسلطة على شخص سواه ، فهو ليس أكثر من متفرج عليها !

وهنا نلمس ما عرف عن « ديكنز » فى السنوات الاخيرة من عمره ، من اتجاه الى الدراسات النفسية . وما فكرته هذه ـ التى مثلها فى شخصية « جاسبار » ـ سوى محاولة لعلاج أعمق أصول الخير والشر فى نفس الانسان .. انها فكرة « دكتور جيكل ومستر هايد » ، وفكرة « الجريمة والعقاب » .

فنحن نرى « جاسبار » رجلا ذا موهبة موسيقية سامية ، وذا صوت ساحر ، وذا علاقة بالكنيسة ، وذا احترام فى نفوس الجميع .. ثم نراه ـ فى ظروف أخرى ـ شريرا ، يحاول أن يفرض حبه على خطيبة ابن أخته ـ الذى كان يعامله كما لو كان ابنه هو ـ ويسف فى التردى فيغشى أقذر مباءات الحى الشرقى فى لندن ، ويدخن الافيون ، ويتحدث الى حارقة الافيون عن الاغتيال الذى عبر عنه برحلة طويلة شاقة .

وهكذا نرى أن « ديكنز » كان يعالج موضوع ازدواج الشخصية فى الفرد الواحد . وقد صورها « ديكنز » ـ باشارة عابرة ـ فى شخصية « مس توينكلتن » ، ليمهد ذهن القارىء كى يتوسع فى تصويرها فى شخصية « جاسبار »

ولقد كتب « ديكنز » الى صديقه « جون فوستر » ـ بعد أن قطع شوطا فى القصة ـ ذاكرا أن نيته كانت تتجه الى أن يضع كلا من شخصيتى « جاسبار » أمام الاخرى .. أن يجمعهما معا ، بحيث تصطدمان . واردف يقول : « وانها لمهمة شاقة عسيرة » . وكان ذهن « ديكنز » يتجه الى أن يكتشف « جاسبار » ان قتل ابن أخته لم يكن أمرا ضروريا ، فيكون اكتشاف هذه الحقيقة صدفة قاسية له ، تدفعه الى الاعتراف .

هذه هى الفكرة عامة ، ولكن .. ما هى التفصيلات التى تفضى الى تحقيقها ؟

من هذه التفصيلات ما ذكره الناقد الامريكي « هوارد دفيلد » في كشف لغز مقتل « درود » . فهو يقول أن « جاسبار » هو القاتل ، وقد أوضح ذلك في حديثه الى حارقة الافيون عن « الرحلة الطويلة » . أما الوسائل المباشرة ، فتمثلت في أنه أغرى « أدوين » بالخروج مع « نيفيل » بعد منتصف الليل ، ليلقى الشبهات على « نيفيل » ، بعد أن أثقل حواسهما بمخدر دسه في الطعام والخمر اللذين قدمهما لهما . والشيء ذاته فعله مع « ديردلز » ليستطيع أن يتسلل بالضحية الى سراديب المقبرة ، حيث أودعها قبرا ملأه بالجير الحي ، ليفرى اللحم والعظام والثياب ، فلا يتبقى دليل على جريمته . ولما كان يدرك أن الجير الحي لا يؤثر على الذهب ، فقد انتزع ساعة القتيل ومشبكه الذهبيين وألقى بهما في جانب من القنطرة . متعمدا أن لا يجرفهما التيار ، ليسوق - بعد ذلك - « كريسباركل » ، بقوة التأثير المغناطيسي ، كي يكتشفهما ، فيوجه الافكار الى أن « أدوين » قد غرق في النهر . . **ولكنه كان يجهل وجود خاتم أم « روزا » مع « أدوين » ، وكان العثور على هذا الخاتم كافيا للاهتداء الى مقر الشاب القتيل !**

وهذه القوة المغناطيسية ، موضوع آخر من تجارب « ديكنز » التي أوردها في القصة . فقد ذكر الناقد الادبي « أوبري بويد » ان ديكنز كان مهتما بالتنويم المغناطيسي ، وقد جربه على زوجته ، وعلى غير زوجته مرارا . ثم أودع القصة تجاربه . فقد بدا جليا في المأدبة التي أقامها القس أن « جاسبار » كان يؤثر على « روزا » بقوة مغناطيسية تشع من عينيه ، حتى أن الفتاة قالت لهيلينا : « انها تشعر بأنه يكاد ينفذ اليها خلال الجدران . . على أن « هيلينا » - التي قدمت من سيلان وتعلمت مع أخيها من الخدم هناك بعض أساليب السحر والقوى الخارقة - أبدت تحديا لتأثير « جاسبار » على « روزا » .

وهذا دفع بعض النقاد الى أن يروا أن « هيلينا » تعاونت

مع « تارتار » على كشف الجريمة لتبرئة « نيفيل » وتمكينه من الزواج من « روزا » . **وهم يذهبون الى أنها تنكرت فى شخصية « داتشرى » ، مبررين ذلك بما ذكره أخوها للقس من أنها اعتادت أن ترتدى ثياب الذكور ، وأن تبدى جرأة الرجال .** وقالوا أن « ديكنز » لم يصورها على هذه الصورة الا لانه كان يعدها لدور هام ، هو دور «داتشرى» .. ثم ذهبوا الى أنها استخدمت قوة شخصيتها فى تنويم « جاسبار » مغناطيسيا ، ليفضى بما يكتنزه فى عقله الباطن .

هذه هى المفاتيح التى تؤدى الى التكهن بنهاية القصة . وقد وفق اليها كثيرون ، ولكن الاسلوب واتباع شروط المسابقة رجحا كفة الفائزين . وكان « كتابى » قد وعد القراء بثلاث جوائز . **ولكن الفحص أسفر عن وجود ردين يتنازعان الجائزة الثالثة . وبدلا من أن تقسم الجائزة بينهما ، رؤى تخصيص جائزة رابعة تعادل الثالثة .**

وعلى ذلك ، يكون الفائزون هم :

الجائزة الاولى ، وقدرها خمسة جنيهات :

الاستاذ حنا فام — ١٧ شارع كنيسة الاقباط — اسكندرية

الجائزة الثانية ، وهى اشتراك لمدة عام فى كل من « كتابى » ومطبوعات كتابى :

الآنسة درية حسن احسان — ٢٠ شارع رشاد بالمطرية — القاهرة

الجائزة الثالثة ، وهى اشتراك لمدة عام فى « كتابى » :

السيد فؤاد اسحق — بالشهر العقارى — بالفشن

الجائزة الرابعة ، وهى اشتراك لمدة عام فى « كتابى » :

السيد رجاء أبو غزالة — ص . ب ٢٦٩٨ ببيروت — لبنان

والآن ، أشعر اننى شغلتك طويلا عن بقية مواد العدد ، فاسمح لى أن أخلى بينك وبينها .. والى اللقاء .

المحرر

نافذة كتابى تطل على العالم

رأيت وسمعت لك .. في آسيا

للمحرر



تعالى معى الى (كانتون)

عزيزى القارىء ..

فى العدد الماضى انتهينا من قصة حضارة الصين وتاريخها .. فلنعد الى حيث وقفت بك فى نهاية العدد (٧٠) من كتابى ، ونحن على أهبة الوصول الى منفذ الصين الجنوبى : (كانتون)

وقد حدثتك من قبل عن تقاليد الصينيين فى استقبال ضيوفهم وزائرى بلادهم بباقات الورود التى تحملها تلميذات ضاحكات الوجوه باسمات العيون ، يشددن على يدك بحرارة ساذجة مخلصة تنم عن طيبة قلب تهز المشاعر .. فلنترك اذن هذا الموكب يستقبلنا فى محطة سكة حديد (كانتون) ــ عند وصولنا اليها قادمين من (هونج كونج) ــ ولنستقل السيارات الى فندق « أيشون » كى نبدل ثيابنا ونخرج الى جولة فى المدينة .

وفندق « أيشون » شاهق الارتفاع ــ اذ يتألف من أربعة عشر طابقا ــ وهو جميل الطراز عريق الاثاث والهندسة ، يحمل طابع أوائل هذا القرن ، ويختلف عن فنادق (شنغهاى) مثلا ، ذات الطابع العصرى والهندسة المبسطة . واذا دخلت حجرتك فيه ألفيت فى انتظارك على المنضدة علبة من السجاير الصينية ومعها علبة من أعواد الثقاب ، ثم قدح الشاى ذا الغطاء وفى جوفه كفايته من الشاى الاخضر الجاف ، والى جواره « زمزمية » الماء المغلى التى تستبدل كل ١٢ ساعة على الدوام ، بحيث تستطيع أن تعد لنفسك تمدها فى أية لحظة من الليل أو النهار ، فى ثوان ..

والى جوار الفراش ، على الارض ، تجد « خفا » ــ « شبشب » ــ من الخوص الرفيع الجميل ، المنقوش بزخرفة رائعة ملونة ، وميزة صنعه من القش ــ لا الجلد ــ أنه يجف بسرعة اذا أصابه البلل فى الحمام ، فضلا عن خفة وزنه

وطراوته التى تشعر قدميك براحة تامة . وقد صادفنا هذه المظاهر الثلاثة التقليدية فى غرفة كل فندق نزلنا فيه فى جميع أنحاء الصين ، ويبدو أنها تقليد قديم عندهم فى جميع الفنادق.

وبعد نحو ساعة غادرنا الفندق لنقوم بجولة على الاقدام على شاطىء نهر (اللؤلؤ) المجـــاور له ــ نهر (بيرل) ــ وكانت الساعة نحو الساعة التاسعة مساء ، **فراعنى الهدوء الشامل الذى يرين على الشاطىء ، بحيث تبدو المدينة شبه نائمة ، فالشارع خال الا من نفر قليل من المارة ، فى ستراتهم الزرقاء البسيطة النظيفة** ، وان كان النهر يعج بمئات الزوارق الكبيرة التى يعيش فيها أصـــحابها وعائلاتهم ــ « مدى الحياة » ! ــ وقد حدثتك عنها فى العدد (٧٠) ، فى معرض وصف قرية (أبردين) بهونج كونج . وظاهرة الهدوء والنوم المبكر ظاهرة عامة فى جميع مدن الصين ، فقد لاحظتها أيضا فى كل من (بكين) ــ العاصمة ــ و (شنغهاى) ، أكبر مدن الصين ، حيث تهدأ الحركة فى الشوارع قبل الساعة العاشرة مساء ، ويبدو أنها راجعة الى أن المرأة والرجل يعملان من الصباح الباكر ، فيأويان الى منزلهما فى المساء مبكرين . سواء للعناية بأطفالهما وبيتهما الذى غابا عنه طيلة النهار ، أو بتأثير التعب من مجهود النهار والاستعداد لبذل نشاط مماثل فى النهار التالى ..

وحتى اذا أراد الزوجان الخروج فى المساء ، فهما لا يخرجان الا الى السينما أو الاوبرا ــ وكلاهما تنتهى برامجه فى الساعة العاشرة والنصف على الاكثر ــ **أما التسكع فى الشوارع فهو أمر نادر للغاية هناك ، ولا سيما فى المساء .** (وقد سبق أن حدثتك من قبل عن اختفاء « المقاهى » من جميع أنحاء الصين ، والاقتصار على النوادى الخاصة للهيئات والنقابات ، ثم على ما يســـمونه بـ « قصر الثقافة » ، وهو مبنى فيه قاعات لشتى أنواع النشاط الثقافى والفنى ، كالمطالعة والتدرب على

عزف الموسيقى ، أو التمثيل أو الرسم ، أو الالعاب الرياضية ، أو ممارسة الهوايات المختلفة .. وهناك قاعات لعرض الروايات التمثيلية أو الغناء أو الالعاب البهلوانية .. الخ)

وفى كل مدينة من مدن الصين تجد ((عدة)) دور للأوبرا — لا دارا واحدة — وأسعار تذاكرها زهيدة للغاية ، بحيث تجد أكثرية روادها من العمال ، تصحبهم زوجاتهم وأطفالهم .. وهكذا يعممون الثقافة هناك ويغرسون حب الفنون فى الاطفال منذ نعومة أظفارهم .

أما البرامج التى تعرض فى تلك الدور فمنوعة : فمنها التمثيليات الغنائية الصينية — الاوبرات — ومنها المسرحيات غير الغنائية ، ومنها برامج الرقص الايقاعى الرفيع (الباليه) ، سواء الصينى أو السوفييتى — اذ لا يخلو الحال من فرقة أو فرق روسية تعرض فنونها فى مختلف مدن الصين كل حين . وقد شاهدنا فى (كانتون) بالذات فرقة باليه (سيبريا) تعرض فنونها الكلاسيكية الخلابة فى قاعة من أكبر القاعات التى تخطر بالبال — اذ يوجد بها خمسة آلاف وخمسمائة مقعد ! — وهى «القاعة التذكارية» للدكتور «سن يات سن» ، البطل الصينى المعروف الذى حدثتك عنه فى عدد سابق ، وهى مشيدة على طراز سداسى الاضلاع ، فريد فى نوعه !

وعلى ذكر هذه القاعة ، راعنى فى الصين بوجه عام ((تفنن)) القوم هناك فى تخليد ذكرى عظمائهم ، بصورة لم أر لها مثيلا فى أية دولة أخرى . وقد حدثتك فى أعداد سابقة عن المقبرة العجيبة التى أقاموها للدكتور « سن يات سن » فى مدينة (نانكنج) ، وعن بيته فى (شنغهاى) الذى حولوه الى متحف ، والى جانب ذلك ففى كل مدينة من مدن الصين تجد متنزهات تحمل اسمه ، ومدارس ، وجامعات ، وشوارع ، ومسارح .. الخ

والعظيم الثانى الذى يلى « سن يات سن » فى حظوته بتخليد الصينيين لذكراه ، هو أديبهم الاشهر « لوشون » — الذى قدمت لك نماذج من قصصه فى عدد (٣٣) من

(مطبوعات كتابى) ـ فقد أقاموا له دارين تذكاريتين كبيرتين فى (بكين) و (شنغهاى) ـ وقد حدثتك عن أولاهما فى عدد (٧٠) ـ الى جانب عدد كبير من التماثيل والنصب التذكارية والشوارع والمدارس التى سميت باسمه ، سواء فى المدن الكبرى أو فى القرية التى نشأ فيها .. الخ

وما دمنا بصدد « لوشون » ، فلم لا أروى لك قصة حياته ، وكفاحه الذى استحق من أجله كل هذا التكريم والتخليد ؟

اذن فتعال معى نستعرض أطوار هذه الحياة الحافلة بصور الكفاح والبطولة ، سواء فى ميدان الادب أو فى ميدان الوطنية :

هذا هو « لوشون » ..

• **ولد** « لو شون » ـ الذى يدعى فى الأصل « تشو شو ـ جن » ـ فى ٢٥ سبتمبر سنة ١٨٨١ ، فى (شاوشينج) بمقاطعة (تشكيانج) .. وكانت أسرته أسرة علم ، ذات حظ فى مناصب الحكومة . فكان جده ـ عند مولده ـ يشغل منصبا فى (بكين) . ولكن هذا الجد لم يلبث أن ألقى فى السجن ، عندما بلغ الصبى الثالثة عشرة من عمره . فلم يقدر للأسرة ان تسترد مكانتها بعد هذه الصدمة ، لا سيما وان والد « لو شون » ، لم يكن ذا منصب ـ رغم علمه ـ ولم يكن ذا عمل يدر عليه دخلا يذكر .. فضلا عن انه أصيب ـ حوالى تلك الفترة ـ بمرض لم يبرحه حتى مات .

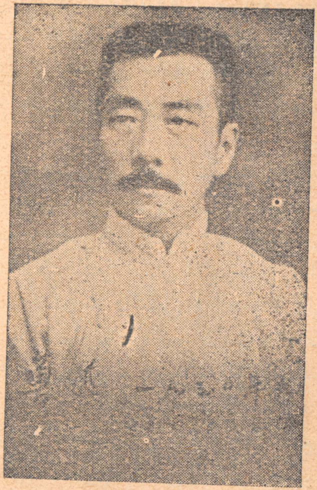
لهذا تردت أسرة « لو شون » فى أحضان الفقر . على ان أمه كانت امراة قديرة .. ومع انها نشأت فى الريف ، الا ان أباها كان عالما ، مما أتاح لها الفرصة كى تعلم نفسها القراءة . وقد ظل كرم نفسها ، وقوة جلدها ، مبعثى الهام ـ لا ينضب معينه ـ لابنها . وقد بلغ من اعتزازه بها ، ان اتخذ من اسمها قبل زواجها ـ وهو « لو » ـ اسما له فى حياته الادبية !

* * *

• ولقد بهر « لو شون » أهله بذكائه فى صغره . فلما بلغ السادسة ، الحق بالمدرسة ، فشرع لفوره فى دراسة الآداب القديمة . وظل فى (شاوشينج) حتى بلغ السابعة عشرة . وقد قرأ فى هذه السنوات عددا كبيرا من الآثار الادبية الصينية. ولم تقتصر مواهبه على انه أوتى ذاكرة كأنها آلة تصوير تلتقط كل ما يعرض لها ، بل انه كثيرا ما تبين معانى جديدة لما كان يقرأ من الآداب القديمة . وكان من الجرأة بحيث انه كان يعلن تفسيراته هذه ، متحديا بها التفسيرات القديمة الراسخة فى المجتمع الاقطاعى . وقد اتجه بنوع خاص الى الاساطير القديمة، من مقالات وأقاصيص كانت تعتبر موردا غير رسمي للتاريخ . . كما انه كان كثير الاستمتاع بالفنون الشعبية : صور رأس السنة ، الحكايات والأساطير ، المواكب الدينية ، و « اوبرا » القرية . وكان يجمع الصور والكتب المصورة ، ويرسم بعض النقوش التى تحفر على الخشب ، وبعض المناظر التى يقتبسها عن القصص القديمة . . وكذلك كان يمارس الرسم الكاريكاتورى.

ومن المعالم التى تركت اثرا كبيرا فى حياة « لو شون » وكتاباته ، انه تعرف فى صباه على الريف تعرفا وثيقا ، وكان معظم رفاق صباه من ابناء الفلاحين السذج ، البسطاء ..وكان كلما كبر فى السن ، ازداد اقبالا على ذكرى تلك العلاقات والصداقات ، واعترافا بأن تلك الفترة كانت من خير فترات حياته . والواقع ان تلك الصلات كانت اسس الروابط الروحية التى وصلت بينه وبين الطبقة العاملة فى بلاده

على أن أعظم عامل اثر فى اتجاهات « لو شون » ، هو استفحال النفوذ الأجنبي فى الصين ، وافلاس الاقطاع الصيني.



« لو شون » فى شبابه

فقد اقترن صباه بفترة من العدوان الاستعمارى ، ومن تفشى الفساد والانحلال فى أسرة « تشينج » الحاكمة ، الى درجة دفعت أفرادها الى أن يسترضوا الدول الاجنبية — ليطيلوا من أمد حكمهم — فراحوا ينزلون لها عن الكثير من سيادتهم ، وعن أجزاء من بلادهم ، ويمعنون فى قمع الحركات الوطنية ، حتى غدت الصين شبه مستعمرة ، وتهددها خطر ان تتقاسمها الدول الاستعمارية .

وبالرغم من أن (شاو شينج) كانت فى شبه عزلة عن العالم الخارجى ، فان هذا لم يعفها من ان تهتز للضائقة الاجتماعية العامة ، وللخطر الذى كان يواجه الأمة بأسرها .. واجتمع تهاوى أسرة « لو شون » فى احضان الفقر ، مع الخطر الاجنبى المتضاعف الذى كان يهدد البلاد ، ومع الحكم الاقطاعى المتداعى .. **اجتمعت كل هذه على ذهن الفتى المرهف المشاعر ، فاذا به لا يفكر فى نفسه فحسب ، ولا فى اسرته وحدها ، بل راح يفكر فى أمته بأسرها . فقد عرف — مذ بلغ الثالثة عشرة من عمره — طريق المرابين لمقاومة الفقر ، وطريق الصيدليات لمقاومة مرض ابيه ، فتركت المعاملة الجافة التى كان يصادفها فى الطريقين ، آثارا بليغة فى نفسه !** .. ومن ثم فانه بدأ يشعر

بمظـالم المجتمع الذى كان يسيطر عليـه الاقطاعيون ورجال الدين ، ويفطن الى مواطن الضعف والتناقض فيه ، فدرج على ان يكرهـه ويزدريه . ولم يشأ ان يحذو حذو جده وابيـه فيغدو موظفا أو تاجرا ، بل أصر على ان يشق لنفسه طريقـا خاصا الى ميدان آخر !

وما ان بلغ « لو شون » الثامنة عشرة ، حتى دبرت له امه مبلغا يعادل ثمانية دولارات ، ليرحل الى « نانكين » ، فيتقدم لامتحان الالتحاق بالكلية البحرية ، التى لم تـكن تتقاضى من طلبتها أية رسوم عن الدراسة . ومع انه اجتاز الامتحان ، الا انه لم يرض عن هذا اللون من الدراسة ، فانتقل فى العام التالى الى مدرسـة السكك الحديدية والمنـاجم ، التى كانت ملحقة بكلية (كيانجنان) الحربية . ومرة أخرى ، لم تطب له الدراسة ، ولكنه تعرف فى هذه المدرسة على الآراء الحديثة فى الاصلاح ، وعلى الآراء الداعية الى الحكم الملكى الدستورى ، كما قرأ كثيرا من الكتب الحديثة فى الادب والعلم ، مترجمة عن لغات أجنبية .. **وقدر له ان يعاصر ــ خلال السنوات الأربع التى قضاها فى نانكين ــ « حركة سنة ١٨٩٩ الاصلاحية » ، التى كانت تهدف الى اقامة حـكومة ملـكية دسـتورية ، وحركة « البوكسر » المناهضة للاستعمار ، وما أعقبهـا من غزو الجيـوش المتحالفة التابعة لثمانى دول استعمارية لمدينة « بكين » فى سنة ١٩٠٠ ، ثم « بروتوكول البوكسر » المهين ، الذى فرض به الغزاة شروطهم الجشعة على الصين .**

عاصر « لو شون » فى (نانكين) ــ فى تلك السنوات الاربع ــ فترة كان فيها مصير الصين فى كف القدر متأرجحا ، فآمن الشاب بأن أمته فى حاجة الى ان تثور ضد الاستعمار وضد اسرة « تشـينج » . وتأثر فى تلك الفترة بـكتاب « الارتقـاء والاخلاق » لهكسلى ، فاختار دراسة العلم والابحاث العلمية كطريق لثورته . وما لبث ان تخرج فى مدرسة السكك الحديدية

والمناجم فى سنة ١٩٠١ . فلما كان العام التالى ، اوفدته الحكومة الى اليابان فى بعثة دراسية

* * *

• وما ان وصل « لو شون » الى اليابان ، حتى اشتد تأجج وطنيته ، وكانت الحركة المناهضة لأسرة « مانشو » الحاكمة ـ التى خلفت اسرة « تشينج » ـ قد بلغت أوجها بين الطلبة الصينيين ، كما ان اليابان كانت تتأهب للتحرش والعدوان ، طمعا فى أن تصبح دولة استعمارية . فآلى « لو شون » على نفسه أن يكرس حياته لوطنه ، وأكب فى أوقات فراغه على دراسة العلوم والفلسفة والآداب الأوربية . ومن المصادفات انه وقع ـ أثناء اقامته فى اليابان ـ على مؤلفات الشعراء الثائرين ، من امثال بايرون ، وشيلى ، وهاينى ، وبوشكين ، فأقبل على قراءتها مترجمة الى اليابانية أو الألمانية .

والتحق « لو شون » بالكلية الطبية فى (سنداى) ، اعتقادا منه بأن الطب كفيل بأن يعين الحركة الثورية فى الصين . على انه لم يلبث ان صادف ـ بعد أقل من عامين ـ ماجعله يعدل عن دراسته هذه . **اذ شهد شريطا سينمائيا اخباريا عن الحرب بين روسيا واليابان ، فاهتزت عواطفه وتفتح ذهنه على مدى تقاعس بنى وطنه عن مقاومة ما كانوا يلقون من جور ، ورأى ان الطب لم يكن ماسا لانهاض قومه « بل كان أهم الامور ، هو تبديل روحهم . واذ شعرت ـ حينذاك ـ بأن الأدب هو خير أداة لبلوغ هذه الغاية ، فقد صممت على أن أقوم بحركة أدبية » وكان ذلك فى سنة ١٩٠٦ ..**

ومع ان المجلة الأدبية التى كان يعتزم اصدارها فى (طوكيو) ، فى سنتى ١٩٠٦ و١٩٠٧ ، لم تر النور ، الا ان المقالات التى أعدها لهذه المجلة ، والقطع التى ترجمها ـ فى سنة ١٩٠٨ ـ عن الروسية وغيرها من اللغات الشرقية ، ولغات أوربا الشمالية ،

كانت بداية هامة لحياته الادبية . وما لبث فى هذا العام ان انضم الى حزب « كوانج فو هوى » الذى كان يدعو للثورة ضد أسرة « مانشو » .

وهكذا قدر للو شون أن يغدو ـ خلال السنوات الثمانى التى قضاها فى اليابان ـ ثوريا ديموقراطيا متحمسا ، وأن يزداد ايمانا بأن الأدب هو خير سلاح لاستنهاض همم مواطنيه

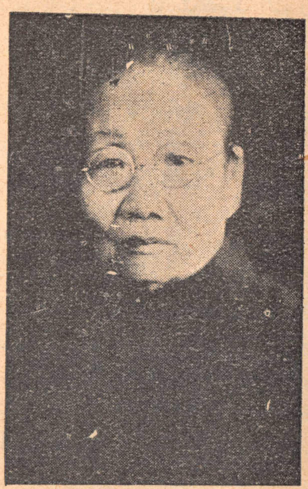
وعاد « لو شون » الى الصين ـ فى سنة ١٩٠٩ ـ ليدرس علم وظائف الأعضاء ، والكيمياء لطلبة مدرسة المعلمين بشيكيانج ، ومدرسة شاو شينج المتوسطة . ثم قامت ثورة سنة ١٩١١ فرحب بها من أعماق فؤاده ، وراح يحث طلبته على أن يساهموا فيها . وفى ذلك العام ، غدا ناظرا لمدرسة المعلمين بشيكيانج ، حتى اذا استقر الأمر للحكومة الانتقالية للجمهورية الصينية ـ فى سنة ١٩١٢ ـ عين « لو شون » عضوا فى وزارة التعليم .

على انه سرعان ما شعر بخيبة أمل فى الثورة ، وراح يتخبط فى ظلمات التفكير والألم !

★ ★ ★

• **ولقد** كانت ثورة سنة ١٩١١ عظيمة القيمة ، بيد انها لم تتم رسالتها ، وانما اقتصرت على خلع اسرة « تشينج » ، بينما بقى الاقطاع والاستعمار قائمين .. وانتقلت سلطات الدولة الى رجال الحرب والسياسة من أوساط جديدة ، أخذ الاستعماريون يستغلونها فى مضاعفة عدوانهم على الصين .. وبينما اجتاحت ارجاء البلاد حروب أهلية لا تنقطع ، كانت الدولة الاستعمارية لا تنفك عن توسيع آفاق نفوذها ، مما ضاعف من سطوة الاقطاع والاستعمار .

وظلت الحيرة الأليمة تعصف بلو شون الى سنة ١٩١٨ ، حين بدأت « حركة الرابع من شهر مايو » . وكان يقيم طيلة هذه المدة فى (بكين) ، فلم يبرحها الا مرتين ، زار خلالهما أمه


والدة « لو شون »

فى (شاو شينج) ، فحز فى قلبه ما شهده فى الريف من مظاهر الفقر . وكان خلال عمله فى وزارة التعليم – فى تلك الاثناء – عاكفا على جمع وتمحيص بعض الآثار المكتوبة القديمة ، وبعض المخطوطات التى تخلفت من العصرين البرونزى والحجرى . وأدت به دراساته هذه الى اعادة نشر مؤلفات « تشى كانج » .. وهو شاعر عظيم ، ووطنى جرؤ – فى القرن الثالث الميلادى – على معارضة الطغاة الاقطاعيين ، والتعاليم الكونفوشيوسية المتزمتة . فكان بذلك يعكس ما كان يخالج الشعب من أحاسيس .. كذلك قام « لو شون » – فى تلك الفترة – بدراسة المؤلفات البوذية الهندية القديمة ، التى ترجمت الى الصينية منذ القرن الثالث

وكانت ثمة تطورات عظيمة تنتاب البلاد فى تلك الآونة . فقد انهمكت الدول الاوربية وامريكا فى الحرب العالمية الأولى ، فخففت من قبضتها على الصين ، مما مكن الحركة القومية من الازدهار ، على أيدى الطبقة المثقفة والأغنياء وذوى الجاه ، ومن التطور الى كفاح متزايد ضد الاستعمار والاقطاع ، لم يلبث أن تبلور فى « حركة ٤ مايو سنة ١٩١٩ »

وكان « لو شون » قد نشر فى ابريل سنة ١٩١٨ – تحت هذا الاسم الأدبى المستعار – اولى قصصه القصيرة ، وكان

عنوانها « يوميات مجنون » . وقد ظهرت هذه القصة باللغة الدارجة فى مجلة « الشباب الجديد » ، التى كانت تقود الثورة الثقافية والديموقراطية .

وشرع « لو شون » ـ فى تلك الأثناء ـ فى كتابة سلسلة من المقالات القوية الجريئة ، فى علاج المشكلات الاجتماعية . حتى اذا كانت سنة ١٩٢٣ ، اصدر اولى مجموعاته القصصية ، فوطد بها مكانته فى عالم الأدب الحديث ، الذى اعتبر أبا له !

* * *

• **وكان** « لو شون » ـ طيلة هذه الفترة ـ على اتصال وثيق بالشباب ، اذ كان ـ منذ سنة ١٩٢٠ ـ محاضرا فى جامعة بكين وفى كلية المعلمين الأهلية . كما تولى تحرير ملحق أدبى لاحدى الصحف اليومية ، وساعد الكتاب الشبان على ان يؤلفوا عدة هيئات أدبية . وكان يقضى كثيرا من وقته فى مراجعة مؤلفات الشبان وتنقيحها فى عناية ، كما كان يستقبل الكثيرين من الناشئين ، ويراسل عددا كبيرا منهم . فضلا عن انه أولى طالبات كلية المعلمات ببكين ـ وكان محاضرا فيها ـ مؤازرة قوية عندما رحن يعارضن وزير التعليم فى سنة ١٩٢٥ ، لاقدامه على الغاء الكلية دون مبرر مشروع .. كما انه راح يعضد طلبة الشمال تعضيدا عمليا وادبيا ، عندما اصطدموا بالحاكم السفاح « توان تشى ـ جوى » ـ فى ١٨ مارس سنة ١٩٢٦ ـ ففتكت بهم قواته . وكتب « لو شون » فى قضيتهم **سلسلة من المقالات القوية ، فاستعرت نيران الصراع فى الجبهة الأدبية بمعونته وارشاده ، حتى انه كان أحب الشخصيات لدى الشباب البكينى فيما بين سنتى ١٩٢٤ و١٩٢٦**

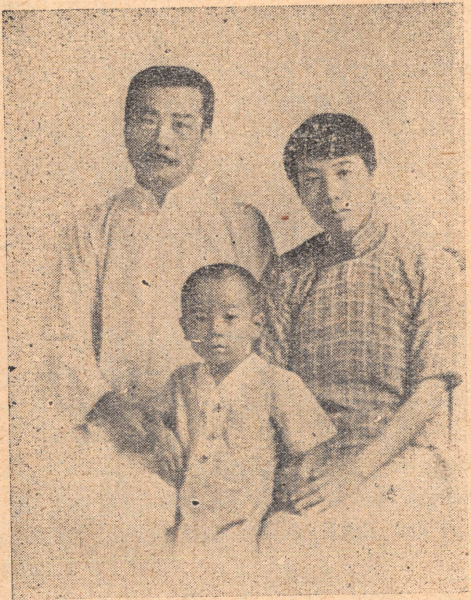
واجتاحت جنوب الصين موجة ثورية فى أغسطس سنة ١٩٢٦ ، كان من آثارها على « لو شون » ان اضطرته الحكومة الى مبارحة (بكين) . وفى العام ذاته ، ظهرت مجموعته

القصصية الثانية .

وهكذا كانت الفترة بين سنتى ١٩١٨ و١٩٢٦ ، هى المرحلة الأولى من مراحل تألقه كمؤلف وأديب . وكان قبل مغادرته بكين ، قد اصدر - الى جانب قصصه القصيرة - اربعة مجلدات ضمت مقالاته ، وديوانا من الشعر المنثور اسماه « الحشائش البرية » ، وكتابا اسماه : « التاريخ الموجز للقصص الصينى » . وكان انتاجه فى الترجمة يفوق انتاجه فى التأليف

وفى شهر اغسطس سنة ١٩٢٦ - وهو الشهر الذى اشتدت فيه الحركة الثورية فى الجنوب - قبل « لو شون » كرسى الاستاذية للأدب فى جامعة « آموى » . بيد انه لم يلبث ان استقال قبل ان ينتهى العام ، ونزح الى (كانتون) ، حيث اصبح عميدا ورئيسا لأساتذة قسم اللغة والأدب الصينى ، بجامعة « سون يات - صن » ، فى يناير سنة ١٩٢٧ . وحدث فى ذلك العام ان تنكر « شيانج كاى شيك » للثورة ، فقبض على بعض العناصر التى ساهمت فيها ، واعدم بعض الشيوعيين . **وكان بين الفريقين عدد من الطلبة ، فما كان من « لو شون » الا ان استقال من منصبه ، ليعلن احتجاجه الشديد على هذه الاجراءات .**

وكان من جراء موقفه هذا ، أن أصبحت حياته مهددة بالخطر فى (كانتون) ، فما كان منه الا ان رحل فى شهر اكتوبر الى (شنغهاى) ، حيث أقام الى أن أدركته منيته .. ولم يمارس التدريس هناك ، بل كرس كل جهوده للعمل الأدبى والحركات الأدبية . ففى سنة ١٩٢٨ ، أسس مجلة « السيل » .. واستهوته الشيوعية فى تلك الفترة ، فتوفر على دراسة الماركسية واللينينية ، وازداد اقترابا من الحزب الشيوعى . على انه كان يهدف دائما الى الثورة التى تصلح أحوال بلاده . فانضم الى جمعية تبادل المعونة الثورية ، كما كان من مؤسسى رابطة الحرية الصينية فى سنة ١٩٣٠ ، ومن مؤسسى رابطة



« لو شون » مع زوجته وابنه (وهو الان طالب فى الجامعة)

الصين للكتاب اليساريين فى نفس العام ، وقد ظل زعيما لها حتى سنة ١٩٣٦ . كذلك انضم فى يناير سنة ١٩٣٣ الى الرابطة الصينية للحقوق المدنية . كما ذهب فى مايو من ذلك العام الى القنصل الألمانى فى شنغهاى ، فقدم اليه احتجاجا على الفظائع التى كان النازيون يرتكبونها ، وساهم فى عقد مؤتمر دولى فى شنغهاى ، ضد الاستعمار والفاشية ، وقد مثلت ارملة « سون يات ــ صن » الصين فى هذا المؤتمر الذى لم يقدر للوشون ان يشهده ، وان انتخب رئيسا فخريا له .

وكانت هذه اهم الأعمال السياسية التي قام بها الى جانب

اعماله الأدبية

ولقد أصدر « لو شون » — خلال السنوات العشر الأخيرة من حياته — تسعة مجلدات تضم مقالاته، وأتم مجلدا ضم قصصا قصيرة فى موضوعات تاريخية ، كما أصدر من الكتب المترجمة ما فاق كل ما أصدره من قبل ، وكان أهمها فى النظريات الفنية والأدبية وفى النقد . وكذلك كان بينها بعض المؤلفات القصصية ذات الشهرة العالمية ، للكتاب الروس ، مثل : « قصص خرافية روسية » لجوركى ، و « النفوس الميتة » لجوجول ، و « القطار المصفح » لايفانوف .

وكان ثلث وقت لو شون — فى هذه السنوات العشر — موقوفا على الاشراف على تحرير عدد من المجلات الأدبية المتباينة ، ومراجعة وتنقيح مؤلفات الناشئين . ولم يكن يجد وقتا للراحة .. بل انه ظل يعنى بمؤلفات الشباب ، وبكتابة مقدمات لكتبهم ، حتى أثناء مرضه الأخير فى سنة ١٩٣٦ .

ولقد امتازت هذه السنوات العشر باشتداد وطأة تعنت « الكومنتانج » حتى انقلب الى ارهاب دموى انصب على كل من كانت تحوم حوله شبهة من ميل الى الشيوعية ، فاضطر « لوشون » الى ان يقيم فى شبه عزلة ، اذ باتت حياته مهددة. ولكنه ظل مع ذلك يتزعم المجاهدين فى سبيل التقدم — من الكتاب والفنانين — ويواصل الكتابة حتى النهاية .. فنشر آخر مقال له ابان استفحال داء السل فى صدره ، فى أغسطس سنة ١٩٣٦ ، بينما لفظ آخر انفاسه فى ١٩ اكتوبر من العام ذاته

* * *

• **أما** وقد استعرضنا حياة « لو شون » ، فلنلق نظرة على أعماله الأدبية :

كان اتجاه « لو شون » الى الكتابة وثيق الاتصال باتجاهه الى الكفاح فى سبيل تحرير بلاده من الجور الداخلى والجشع

الاستعماري معا .. فكانت قصصه الأولى انتقادا للأوضاع التى كانت سائدة فى بلاده اذ ذاك ، ومن ثم فقد استجاب لها القراء سريعا ، فكانت بداية تحول جديد فى الأدب الصينى .. وكانت تلك القصص اول انتاجه الواقعي . وقد قال عنها ، فيما بعد : « اما السبب الذى دعانى الى كتابة هذه القصص ، فهو اننى لا ازال أشعر اليوم ، كما كنت أشعر منذ عشرة أعوام ، بأن من واجبى ان اكتب أملا فى تنوير أذهان قومى .. ان أكتب عن الحياة الانسانية والحاجة الى تحسينها .. ولقد اقتبست شخصيات قصصى هذه من اولئك التعساء فى مجتمعنا الشاذ ، لأننى أردت أن أعرض رذائل معينة ، وأن أثير الاهتمام نحوها ، من اجل علاجها »

ومن ثم فقد كانت قصصه الأولى عرضا لشقاء مواطنيه ، واحتجاجا صارخا على ما كانوا يلقونه من اهمال السلطات – التى كانت قائمة على الحكم اذ ذاك – ومن مظالم ذوى النفوذ والسلطان .. كانت صيحات معبرة عما كان يجول فى نفوس مواطنيه الصامتين ، من شكايات مكتومة ، وآلام دفينة ..
وكانت ايضاحا لأسباب هذا الصمت والكتمان . فان علماء النفس المحدثين يقولون ان صاحب العقدة النفسية يسير حثيثا الى الخلاص منها ، اذا هو عرف سببها ومنشأها . وقد آمن « لو شون » بأن قومه لن يلبثوا أن يستيقظوا الى حقوقهم ، اذا هم عرفوا سر الروح التخاذلية المتقاعسة التى كانت مستولية عليهم ، والتى رانت عليهم خلال آلاف السنين . لقد كان معظم الصينيين فى تلك الأيام مستضعفين ، معذبين .. بلغ بهم استفحال عذابهم أن فقدوا الاحساس بالألم ، **بيد أن «لو شون» استطاع ان يسمع الصرخات المتوجعة الدفينة فى القلوب التى كتم الظلم أصواتها ، فكان تصويره للشر ضوءا قويا سلط على البصائر الناعسة فأيقظها !**

على أن « لو شون » لم يكتف بتصوير الظلم والألم المترتب

عليه ، وانما راح يصور كذلك القوى التى كان يحس وجودها فى نفوس مواطنيه .. وانا لنلمس هذا فى كثير من قصصه

كذلك استغل « لو شون » الأساطير والخرافات المتوارثة — فى الادب الشعبى الصينى — فى أداء رسالته..ووجه عناية خاصة الى الشباب المثقف ، فكان يزن مبادئه ومثله بمدى ارتباط هذا الشباب بالشعب كوحدة !

* * *

• **ولقد** حملته دواعى العهد الذى عاش فيه ، وروحه الدائبة الكفاح ، على أن ينشد أسلحة أخرى — الى جانب القصة القصيرة — ليوسع نطاق جهاده فى جبهة الأدب.. ومن ثم فانه لجأ الى المقال ، والى الشعر المنثور . وقد شرح « لو شون » سبب انتهاجه المقال ، من وجهة نظره كمجاهد وفنان، فقال : « لقد حاول بعض الناس اقناعى بعدم كتابة المقالات الانتقادية القصيرة . وانى لشاكر لهم اهتمامهم كل الشكر ، وأدرك أن كتابة القصص أمر مهم . ولكن ثمة أوقات أرى لزاما على فيها أن أكتب بطريقة معينة . **ولكم يلوح لى انه من الخير أن لا ألج قصر الفن ، اذا كانت فيه مثل هذه القيود والموانع المضنية ، وأن أوثر الوقوف فى الصحراء لأشهد العواصف الرملية ، وأضحك اذا ما كنت سعيدا ، وأصرخ اذا ما كنت حزينا ، واسب جهارا اذا ما كنت مغضبا .. ان الرمال والاحجار قد تثخن جسدى حتى تمزقه وتدميه ،ولكن بوسعى أن أتحسس الدم المتخثر ، واتبين شكل جراحى .. وليس هذا أقل طرافة من انتهاج نهج الأدباء الصينيين الذين يأكلون الخبز الفرنجى والزبد باسم الائتناس بشكسبير ومزاملته »** .

ولقد كتب أول مقالاته ، بعد نشر أولى قصصه القصيرة بشهور قلائل ، فى سنة ١٩١٨ . ومنذ ذلك الحين — الى أن



« لو شون »
على فراش الموت

مات ـ كتب ما بين ستمائة وسبعمائة مقال، أفسحت له مجالا واسعا كى يركض متحررا ويبرز كرائد من رواد الفكر والادب والجهاد .. وكان فى حاجة الى المجال الواسع ، كى يتأمل ويحلل كل ناحية من نواحى التاريخ والمجتمع ، وكى يسبر غور كل ركن من أركان نفوس البشر ، وان يميط كل لثام ويهتك كل تنكر ، وأن يهاجم كل من كان يكشفهم من اعداء للاصلاح ولنهضة مواطنيه ورفع النير عن كواهلهم .. اعداء كانوا يجلون عن الحصر : الاستعماريون، والطغاة، والعناصر التى كانت تستغل « الكومنتانج » ، ودعاة العودة الى الماضى . وكان « لو شون » يحارب ضد كل هؤلاء ، ليشق طريقا الى حياة جديدة للشعب الصينى .. الحياة التى أدت اليها الثورة الديموقراطية ، ثم الثورة الاشتراكية . وأوضح « لو شون » أن التاريخ الصينى كان حافلا ـ منذ عهود لا تترامى اليها الذاكرة ـ « بمآدب من اللحم البشرى » للحكام وللمعتدين الاجانب ، لأنه لم يكن أمام الشعب سوى أحد مصيرين ، ولم يكن يتناوبه سوى لونان من العهود : « عهد لا يلقى فيه .. ولا المعاملة اللائقة بالعبيد » ، و « عهد كان يعامل فيه معاملة العبيد .. لفترة محدودة » ! .. ومن ثم فقد كان من الضرورى « طرد آكلى اللحوم ، وقلب الموائد ، وهدم المطابخ » فى سبيل « خلق لون ثالث من العهود ، لم يعرف من قبل فى التاريخ

الصينى »
واستطرد لو شون قائلا : ((**ومن ثم، فان أهم أهدافنا هى .. أولا : أن يكون لنا وجود .. وثانيا : أن نجد القوت والكساء .. وثالثا : أن نتحرك الى الأمام . وأية عقبة تعوقنا يجب أن تهدم ، سواء كانت قديمة أو حديثة ، انسانية او فوق طاقة البشر ، قانونا قديما ، او نصا نادرا ، أو نبوءة قدسية، او وثنا غاليا ، أو دواء تقليديا ، أو اكسيرا خفيا))** . وهكذا كان دوره التاريخى الخطير ، ومساهمته العظيمة فى الفكر السياسى ، أكثر تمثلا وجلاء فى مقالاته منها فى قصصه . فقد أولى الماضى ظهره ، وتطلع الى المستقبل .. مستقبل الشعب الصينى ، فلم يكن ليلتفت الى الوراء ، الا ليوجه ضربة الى عدو متسلل خلفه .. كان موقنا تمام اليقين من أن المجتمع القديم وأسلوب الحياة العتيق فى الصين ، يجب أن يهلكا وأن يزولا ، فلم يكن لقوة على الأرض أن تزحزحه عن هذه العقيدة . وكان ايمانه بأن الشعب ـ ككل ووحدة ـ هو الذى يستطيع أن يحدث هذه المعجزة ، وهو المورد الذى راح يستمد منه القوة على الكفاح لايقاظ الأرواح والهمم النائمة تحت استخذاء آلاف السنين . وبفضل أسلوبه الفذ الممتاز ، غدا عملاقا فى الثقافة الصينية الحديثة .

وهكذا سار جهاده فى خطوات منتظمة .. اختار أولا أن يصبح كاتبا ، ثم أصبح محبا عاديا للانسانية يتوق الى علاج أدوائها وعللها ، ثم أصبح مجاهدا انسانيا عظيما ، يكافح فى استبسال لخدمة جميع المستضعفين والمظلومين . وأثبت ولاء لغايته وثباتا على مبدأه وتقدما فى سعيه ورسالته . وما أن سلك هذه الطريق حتى غمرته أضواء التحرر الصينى ، وراحت عبقريته تتلقى حياة متجددة مستمرة من قوى الشعب . **وأصبحت مؤلفاته على تباينها ـ من قصص ومقالات وأشعار منثورة ـ موسوعة تسجل المجتمع الصينى ، وحياة الشعب**

وكفاحه ، والدروس المستخلصة من أحداث هذا النضال منذ بداية القرن العشرين الى حوالى نهاية العقد الرابع منه .. فهى سجل دقيق منذ ثورة سنة ١٩١١، الى الحرب العالمية الثانية تقريبا

وطيلة هـــذه الفترة من تاريخ الصين ، كان « لو شون » الشخصية الرئيسية فى الأدب الصينى الحديث . وقد كانت الطريقة الواقعية التى انتهجها فى علاج فنه ، سلاحا حديثا قدمه للكتاب من مواطنيه كى يقضوا على القديم ويوطدوا دعائم الجديد .. وكانت جهوده فى الأدب الواقعى بداية مرحلة جديدة فى تطور الأدب الصينى



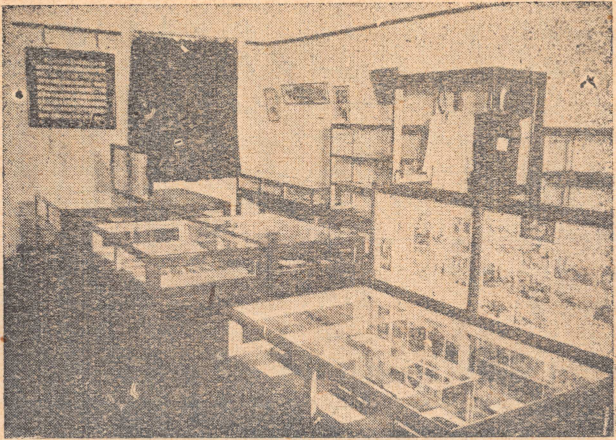
« لو شون » مع الأديب الانجليزى « برنارد شو » ، عند زيارة الأخير له فى منزله بشنغهاى ، عام ١٩٣٣

* * *

• **ومع** أن أسلوب « لو شون » مبتكر ، فذ ، ابتدعه دون أن يحاول تقليد سواه ، الا أنه أسلوب صينى قح . وقد حرص « لو شون » على أن ينشىء « عهد نهضة » فى الأدب الصينى . واستطاع — اذ عنى بأن يبنى مستحدثاته على أسس من ارضاء مطالب الشعب وأمانيه — أن يغدو أقوى نصير وأعظم وريث لخير التقاليد العريقة فى هذا الأدب . ففى خلال اسلوب « لو شون » واتجاهاته وحكمته ، نستطيع أن نلمس اتجاهات الشعب الصينى الحديث بأدنى عناصره وأفقرها ، وأن نبصر حكمة الصين القديمة العريقة .. فكأنما كان يستمد من القدم حكمته ليعالج آلام الحاضر فى عهده !

واذا كان «لو شون» قد تعمق فى الثقافة الصينية ، وأرسل جذوره تتغلغل فى تربتها ، الا انه — كداعية من دعاة الاصلاح — لم يغفل عن الاقبال على الآداب الأجنبية ، فقرأ الكثير منها . وان انتاجه ليعكس مدى تأثره بالكتاب الذين قرأ لهم ، لا سيما الروس منهم .. و « جوجول » بوجه خاص . وقد كان من مظاهر عبقريته حقا ، ان استطاع ان يهضم الآثار التى خرج بها من قراءاته الأجنبية ، ثم يدمجها فى الثقافة الصينية القومية . وقد كتب — بهذا الصدد — عن قصة « يوميات مجنون »، وهى اولى قصصه : «**لقد اعتمدت على الكتب الأجنبية التى قرأتها وعلى ما ألممت به من معرفة بالطب .. لقد كتب جوجول الروسى — فى سنة ١٨٣٤ — « يوميات مجنون » .. ولكن « يوميات مجنون » هذه ، التى كتبتها أنا أخيرا ، تهدف الى كشف مساوىء نظام سيطرة الطبقة العليا ، ومساوىء القوانين الخلقية الكونفوشيوسية .. فهى بما تعلنه من سخط ، أعمق بكثير من « يوميات مجنون » جوجول ! »**

ولقد بين مدى تأثر أسلوبه بالرغبة التى كانت تتولاه لتنوير



جانب من القاعة التذكارية لتخليد « لو شون » ، وقد ظهرت فيه ثيابه الخاصة ، وصور تمثله فى جميع مراحل حياته

الناس فقال : « اننى ابذل قصارى جهدى لتفادى التلاعب بالكلمات ، فأنا أحاول أن أعبر عن المعنى الذى أقصده دون تنميق » . ومن هنا كان أسلوبه عميقا متغلغلا فى الاغوار

كذلك ضرب «لو شون» بسهم وافر فى النقد الساخر ، ولكنه كان يحرص دائما على أن يكون أمينا وعفا وصريحا .. على غرار فلاحى الصين والعامة . وقد كانت عبقريته — فى هذا الميدان — من المعالم البارزة فى تاريخ الأدب الصينى الحديث .

وهكذا قدر للوشون أن يحطم بقلمه الاغلال التى كانت تكبل العقل الصينى ، وان يكون رائدا فى الادب الصينى الحديث ، وفى تحرر الصينى السياسى !



أرواح في الأنواء!

قصة مصرية بقلم: محمد بدر الدين خليل



• **أكاد** أجن اذ لا أجد من يشاطرنى هذه القصة التى تنغص عيشى ليل نهار ، والتى تبعتنى أشباحها ورؤى وقائعها الى هذا المنفى الذى اخترته لنفسى فرارا من مأساتى .. **لقد هجرت الدنيا بأسرها ، الى هذه البقعة النائهة فى البحر ، هربا من كل ما يذكرنى بالمأساة ، ولكن الذكريات المريرة تأبى الا أن تتبعنى !**

لولا أخى ما تعرضت لهذا العذاب كله ! ..

كان واياى كل من بقى لامنا فى الحياة من أهل .. ولما كان يكبرنى ، فقد جعلت منه أمى عميدا للاسرة بعد وفاة والدنا .. وسارت بنا الحياة فى رفق ودعة .. كان « المعاش » الذى خلفه أبى لامى – جزاء خدمته الطويلة فى مصلحة خفر السواحل – يكفى لكى نعيش عيشة .. ان لم تكن مترفة ، فهى أبعد ما تكون عن الشظف !

* * *

ثم جاءت الحرب العالمية الثانية ، وقدر لاخى أن يعمل فى ادارة « النافى » بالاسكندرية ، فسرعان ما نال ثقة رؤسائه ، وراح مرتبه يقفز قفزات محسوسة .. واذا المال وافر بين يديه ، وهو بعد فى باكورة الشباب ، لم يستكمل نضوجه العقلى ، ولم تتح له تجارب الحياة رزانة ولا حكمة ..

وكان ما لم يكن منه بد ، اذ وقع فى هوى فتاه لم يلبث أن تزوج منها دون أن يستشير أمنا أو يظفر برضاها . وكان من الطبيعى أن يحنقها تصرفه ، وأن يكون حنقها من الشدة بقدر ما كان حبها له ، وثقتها فيه ، وركونها اليه بعد أن جعلته رجل الاسرة !

ودفعها غضبها الى أن حرمت عليه دخول دارنا ، فأدى هذا الى قطيعة بيننا وبينه ، دامت طيلة سني الحرب ..

ثم انتهت الحرب ، وقدر للاسكندرية أن تتخلص من عار وجود القوات الانجليزية فيها ، بعد الاتفاقية التى انسحبت بمقتضاها هذه القوات من العاصمتين الى منطقة القنال .. كان ساسة مصر اذ ذاك من الغباء بحيث يرون فى هذا حلا للتخلص من وصمة الاحتلال ، وكأن منطقة القنال لم تكن جزءا من أرض الوطن تدنسه أقدام الانجاس !

نهايته ! .. كان من جراء هذا الانسحاب ، أن تقرر انتقال أخى مع ادارة « النافى » الى (فايد) .. واذ ذاك أقبل يزورنا لاول مرة منذ القطيعة ، وراح يستغفر لذنبه ، ويترضى الام التى أغضبها ، لتقبل أن تعيش زوجته فى رعايتها أثناء غيابه ، اذ لم يكن بوسعه أن يصطحبها الى مقر عمله الجديد .

وكان فى وسع أمى أن ترفض رجاءه ، وأن تصده سادرة فى غضبها عليه ، لولا أنها كانت تطوى جوانحها على حبه . فاذا توبته تذكى عاطفة الامومة وحنانها . وأوحى اليها هذا بمبررات للين والتسامح .. **لقد غدت الفتاة زوجته أمام الله وأمام الناس ، وأصبح عرضها عرضه وعرض أسرته .. ثم أنها عاشت معه فى وئام طيلة المدة التى انقضت على زاوجهما ، فهى اذن وفية له ، مخلصة لعلاقتها به ..** واذا كانت الظروف تقضى بأن تعيش بعيدة عنه ، فمن أجدر من أمه برعايتها وكفالتها فى غيابه ، ومن أجدر من أخيه بالسهر على عرضها ، وأى بيت أجدر من بيت اسرته بايوائها ؟ !

وهكذا رحل « منصور » وهو مرتاح البال ، مطمئن القلب ، بعد أن ترك زوجته بيننا ..

* * *

وخيل الى – فى بداية الامر – ان السعادة خليقة بأن ترفرف

على بيتنا . فقد كانت « روحية » ـ وهذا اسم زوجة أخى ـ وادعة ، هادئة ، طيبة .. لا تكاد تسمع صوتها لفرط خجلها ، ولا تكاد تحس بحركتها لوافر حيائها .. فكأنما كانت طيفا رقيقا يعيش بيننا !

ولكن أملى فى السعادة خاب ، عندما تبينت ـ مع الايام ـ أن زواج أخى على غير رضى أمى قد خلف لدى أمى عقدة نفسية مستحكمة ، فاذا بها تشعر بنفور من الزوجة المسكينة .. نفور كان يجعلها ترى فى كل تصرف من تصرفاتها خطأ يستوجب النقد واللوم .. وأشهد أن أمى كانت تحاول أن تتفادى ذلك ما استطاعت ، ولكن النفور كان قاهرا ، يسوقها ـ بالرغم منها ـ الى أن تسوم الشابة الخسف ، وترهقها بالاضطهاد !

وكانت « روحية » ذكية ، مرهفة الحس ، أدركت حقيقة شعور أمى ، فجاهدت ـ فى البداية ـ لارضائها واستمالتها ، حتى اذا أخفقت ، آثرت أن تنطوى على نفسها ، ولازمت حجرتها لا تكاد تبرحها الا فى أوقات المائدة .. **وكان موقفى حرجا بين الاثنين ، فقد كان يمضنى أن أرى « روحية » مظلومة ، وكان يؤلمنى أن ألمس مدى الضيق الذى كان يجثم على صدرها ، من جراء ما كانت تعانى . ولقد حاولت أن أرفه عنها ، لولا أن لاحظت من أمى تجهما واستنكارا ، فقد أوحت اليها عقدتها النفسية أن مجرد التسرية عن «روحية» اعتراف بأنها مضطهدة ، مغبونة ! ..**



ولقد استجمعت جرأتى ـ فى أكثر من مرة ـ لاقنع أمى بالعدول عن مسلكها ، ولكن

تدخلى كان يثير عزة نفسها ، فتثور فى وجهى ، حتى اذا بلغت ثورتها الذروة ، انهارت أعصابها فجأة ، وانخرطت فى بكاء مرير، كانت تصيبها بعده وعكة قاسية .. ومن ثم وجدتنى مضطرا الى أن أتجنب هذه المواقف !

على اننى رحت – فى الوقت ذاته – أرقب الشابة المهجورة ، المضطهدة ، فى اشفاق ورثاء .. كان أخى لا يكاد يكتب اليها ، وكأنه اطمأن الى وجودها فى حمانا ، وظن أن هذا هو كل ما كان لها أن ترجوه .. فاذا بها وحيدة ، منبوذة ، مهيضة الجناح ، لا تجد مواساة ولا تسرية .. **ولو أن زواجها من أخى كان قد أثمر طفلا ، لكان من المحتمل أن تستغنى بطفلها عن العالم كله ، وأن تتخذ منه أنيسا وعزاء !**

كل هذه العوامل كانت أقسى من أن تتحملها الشابة البائسة ، فبدأت تذبل ، ورانت عليها كآبة وحزن كانا كفيلين بأن يذيبا جمود أصلب القلوب .. الا قلب أمى !

* * *

وجاء يوم لم أعد أقوى فيه على احتمـــال مظاهر الاسى والشجن التى خيمت على وجه « روحيـــة » ، ولا مظاهر الذبول والتداعى التى أهزلت عودها . فسعيت الى التـودد اليها فى غفلة من أمى ، ورحت أواسيها وأؤنسها فى كل فرصة كان يتاح لى فيها أن أتصـــل بها ، دون أن تفطن أمى ! .. واعترف ان هذه الرابطة المستترة ، بعثت فى نفسى مشـــاعر كانت أبعد الامور عن ذهنى حين أقدمت على هذا العمل .. **مشاعر تمثلت فى أن لقاءاتنا هذه أخذت تتبدى لى كتلك اللقاءات التى تجرى فى السر بين العشاق من أبطال القصص . وأشهد أن التواطؤ على الكتمان ، أوجد بين قلبينا ألفة كانت تنمو مـع الايام .. ولكننى رحت أراقبها بحذر ، وأقاومها عند اللزوم ، حتى لا تتجه اتجاها لا يليق !**

الى أن كان بعد ظهر يوم من أيام الصيف ، وقد تسللت الى حجرة « روحية » لاطمئن عليها ، اذ بدت متوعكة عند الغداء .. وخفق قلبى أسى ولوعة ، اذ فاجأتها — فى الحجرة — تبكى ! .. وهتفت هامسا : « روحية ! .. مالك ؟ .. جرى ايه ؟ »

وعصف بها الشجن فاشتد بكاؤها ، وعلا نشيجها .. وارتبكت ، اذ وجدتنى حائرا لا أدرى كيف أتصرف .. وأخيرا ، اقتربت منى فى تردد ، ورحت أربت كتفها برفق علنى أهدىء من سورتها . بيد أنها لم تزدد الا انخراطا فى البكاء ، حتى خيل الى أنها كانت تذيب أعصابها دموعا ، وتحرق قلبها فى شهقات حارة ! .. وألفيت يدى التى كانت تربت كتفها ، تمتد فى مواساة حتى تبلغ كتفها الاخرى ، فأصبحت ذراعى تطوق منكبيها .. ورحت أجتذبها نحوى ، محاولا أن أرفع وجهها عن الوسادة .. واذا محاولتى تجعلها فى وضع كان من الطبيعى فيه أن تسند رأسها الى صدرى .. وكأنما استراحت الى هذا الوضع ، اذ كان البكاء قد انهك قواها

وهمست : « ليه كده يا روحية ؟ .. ليه تعملى فى نفسك كده ؟ » . فهمست فى وهن واعياء : « مش عارفه يا توفيق .. خلاص يئست .. زهقت من الدنيا .. كرهتها .. ايه ذنبى يا رب ؟ ! .. عملت ايه علشان « نينه » تعاملنى بالقسوة دى ؟ .. افرض أن ابنها أغضبها بزواجه منى ، يبقى ايه ذنبى أنا ؟ .. هو سبب غضبها مش أنا ، ومع ذلك صفحت عنه .. وأنا بس اللى بقيت موضع الكراهية والازدراء .. »

وذاب قلبى اشفاقا ، وأنا أرقب الوجه الذى أكسبه الحزن ، وحمرة الثورة ، جمالا فوق جماله .. وعادت تهمس فى أسى : « ليه يا رب تعمل فى كده ؟ .. مفيش حد بيحبنى ؟ » . وشعرت بفيض دافىء ينبثق فى صدرى ، ووجدتنى أهمس : « ازاى يا روحية ؟ .. مش أنا باحبك ؟ » . فغمغمت : « أنت يا توفيق ؟ ! .. يا ترى حياتى تبقى ازاى لولا عطفك ؟ .. »



وشعرت بعضلات ذراعي تتوتر وتشتد في ضمها .. وفي اللحظة عينها ، فتح الباب ، واندفع أخي خلاله يلهث متهللا ، وكأنما صعد السلم قفزا ملهوفا الى رؤية زوجته .. وما ان رآنا في هذا الوضع ، حتى سمر في مكانه !

وكانت هذه المفاجأة أبعد الامور عن البال ، فذهلت أنا وروحية لحظة ، ثم بعث جمود أخي فينا شعورا جعلنا نرتبك الى درجة لا قبل لي بوصفها .. وجاهدت بكل قواي حتى تمالكت نفسي ، ورفعت رأسي أتطلع اليه ، وأنا أهم بأن أتكلم .. ولست أدري ما الذي كنت أريد أن أقوله .. أكنت أريد ان ارحب به ، أو كنت أبغي أن أفسر له الموقف ؟ .. كل الذي أدريه هو أنني اردت ان اتكلم . **ولكن عيني لم تكادا تصافحان وجهه ، حتى غاص قلبي الى أعمق الاغوار ، وشعرت بالارض تميد بي . فقد رأيت فيضا من الاحتقار ينساب من عينيه .. احتقار قاس ، أسود ، مقيت ! .. احتقار بارد ، صامت ، أعتى من كل ثورة !**

وللمرة الاولى تفتقت في ذهني حقيقة ما خامره .. لقد أنساني اشفاقي على روحية ، وأساي من أجلها ، أن تقاليد المجتمع كانت تحتم أن أكون اكثر تحفظا وحرصا في علاقتي بها .. وان الوضع الذي فاجأنا عليه « منصور » كان أبعد الاوضاع عن البراءة ! .. وخيل الي – حين انتبهت الى ذلك – أن خنجرا حادا ، في سخونة اللهب اللاذع ، قد غاص في فؤادي ! .. **ولو أن منصورا تكلم .. لو أنه ثار .. لو أنه تقدم**

فسبنى أو صفعنى ، لافقت من ذهولى ، ولاستطعت أن أهاجم الشك الذى داخله ، ولقلت له أن العاطفة التى أخذت تربطنى بزوجته - منذ اقامتها فى دارنا - لم تكن حبا بين رجل وامرأة ، وانما كانت عطفا قويا من أخ نحو أخت له ! .. ولو لم يأت هو ، ولو لم يفاجئنا ، لما تجاوز الامر القبلة التى كنت سأطبعها على خدها ، لا اشتهاء ، وانما انسياقا لشعور غريزى أوحى الى بأن القبلة مظهر من مظاهر الود والعزاء !

ولكن أخى لم يتكلم .. ولم يتحرك .. وانما ظل مسمرا فى مكانه ! .. ووجدتنى أتعثر منسحبا الى الباب وانا مطأطىء الرأس ، فغادرت الحجرة ككلب مهين !

* * *

ولم يخرج أخى - بعد ذلك - عن صمته وجموده وازدرائه الساكت البارد .. لم يبد ثورة ، أو سخطا ، أو غيظا .. لم يقص على أمنا شيئا مما جرى .. حتى عندما علمت أنه أرسل استقالته من عمله بالبريد ، زعم لها أنه مل العمل وسئم التغرب ، ولم يقل أنه بقى ليعاقبنى وزوجته بصمته وجموده ..

وأقسم أننى فكرت فى الانتحار - فى تلك الفترة - لولا أننى خشيت أن يدعم ذلك من ريبه واتهامه .. وتولتنى رغبة محمومة ، ملحاحة ، فى أن أغيب عن نظراته الباردة ، القاسية ، مهما يكن الثمن . لذلك لم أكد أقرأ عرضا - ذات يوم - فى احدى الصحف ، أن « مصلحة المنائر » كانت فى حاجة الى ملاحظين للمناورات التى تمتلكها فى البحر الاحمر ، حتى سارعت الى ترشيح نفسى ، ورحت أبذل كل حيلة كى أفور باحدى هذه الوظائف الشاغرة .. فقد خيل الى أننى سأجد الراحة اذ أعتزل العالم بعيدا عن العمران ، بين الماء والسماء ، حيث تتمثل كل علاقة بالعالم المأهول ، فى مرور سفينة بين حين وآخر ، أو فى حضور سفينة التموين كل فترة من

الزمن ! .. وما خطر لى اننى سأعيش فى عـذاب مقيم ، وان العالم الذى أفر منه سيتبعنى فى عقلى وفى أعمـاقى .. فى الذكريات !

★ ★ ★

وفى اليوم السابق لرحيلى ، ولج أخى غرفتى ، ثم أغلق بابها خلفه .. وخفق قلبى ، وقد توقعت أن يتقدم ليصفى حسابه معى ، وينزل بى عقابه .. ولكن وجهه لم يعكس أى غضب أو نقمة .. ولم يبدر منه أى عنف ، وانما قال والازدراء الجليدى فى نظراته : « عملت خيريا توفيق .. ده أحسن حل للموقف !»

وارتجفت وكأن ريحا صرصرا عاتية قد هبت على . وحاولت أن أتكلم ولكنه قال : « أنا عارف انت عاوز تقـول ايه .. ما تتعبش نفسك .. ما أقدرش أكذب عينى ! »

وهنا حدثت المعجزة ، فان الاتهـام ألهب دمائى ، وأيقظ حميتى وجرأتى ، فاندفعت فى حماسة ــ أو لعلهـا استماتة اليائس ــ أقص عليه كل شىء ، دون أن أخفى عنه أمرا .. لم اكتم عنه حتى ذلك الارتياب الذى ساورنى فى البداية ، ازاء حقيقة شعورى نحو « روحيـــة » .. ولم أجامله فأهمـل مصارحته بذنبه اذ ترك زوجته فى مهب لفحات الكراهية التى كانت تنفجر من صدر أمه !

واستمع فى صمت ، وفى غير اكتراث .. ولكنـــه قال فى النهاية : « قصة بديعة يا توفيق .. أنا مش باحاسبك ، لانك شاب ساذج ، وهى امرأة ناضجة .. وكيد النساء يغلب أعقل الرجال .. انما أنا ألومك علشان خنت أمانة تركها أخوك فى حمايتك ! »

وجزعت اذ تبينت تطور موقفه .. كان يعفينى من كل ذنب أوحت به شكوكه ، ليلقى المسئولية والادانة على زوجتـــه المسكينة وحدها ! .. ولم أفرح بأنه برأ ساحتى ، بل طفقت

أدافع عن روحية بكل حرارة وتحمس . بيد أن دفاعي لم يزحزحه قيد شعرة عن يقينه من اثم المظلومة البائسة .. وهتفت اذ أعيتنى الحيل فى اقناعه : « طيب .. طلقها ما دام فقدت ثقتك فيها ! » . واذ ذاك توهجت عيناه بذلك المقت البارد ، وقال بلهجة مريرة : « وليه أسيبها تتمتع بشبابها ، وأتعذب أنا بالذكرى ؟ ! »

* * *

وهكذا .. أردت أن أسرى عن روحية عناء الظلم والاضطهاد، فأسلمها عطفى الى ظلم أقسى واضطهاد أمر . فقد استبقاها أخى فى عصمته ليذلها ويرهقها ازدراء واهانة . . ليقتلها ببطء ، وبقسوة ! .. لقد جنيت عليها من حيث أردت أن أخفف عنها وأن أنصفها ! .. ولكن .. لا يخفف من أساى اننى كنت نبيلا فى مقصدى ، وان أخى هو الجانى الحقيقى اذ ترك زوجته الشابة محرومة من حبه وايناسه ، فى رعاية أم خلق بزواجه فى نفسها عقدة جعلتها قاسيةعاتية فى عسفها بالبريئةالمظلومة !

ان الذكريات تأبى الا أن تتبعنى الى منارى فى عرض البحر الاحمر .. اننى أضىء الطريق للسفن وهى تشق البحر فى كنف الظلام ، ولكنى لا أجد من يساعدنى على ان ابدد الظلمات المتراكمة على نفسى وقلبى .. اذ أشعر بأننى جنيت على زوجة أخى فأسلمتها لجبروت زوج ظالم ، وطغيان حماة ظالمة .. أواه ، لست أجد من يضىء لى الطريق خلال الظلمات التى تكتنف حياتى كلها !

———



تلخيص : فرج جبران

مع « الدوتشى » الى آخر لحظات حياته

• كانت « راشيل موسولينى » ـ زوجة ديكتاتور ايطاليا الفاشى ـ طرازا نادرا بين زوجات الديكتاتوريين .. كانت فلاحة فقيرة عندما تزوجها « موسولينى » ، وقد عاشت « فلاحة » فى كل مراحل مجد زوجها ، فكانت تشرف بنفسها على دارها ، وعلى تربية الأولاد ، وطهو الطعام ، وشراء اللوازم المنزلية .. وكانت ترى ان هذه هى مهمتها الأولى ، فلم تتدخل فى حياة زوجها السياسية ، ولكنها عاشت فى كل لحظة من لحظاتها ـ حتى آخر لحظات حياة موسولينى ـ بعواطفها، وأعصابها ، وكل نفسها وكيانها .. وهى فى هذه الذكريات ـ التى أملتها على كاتبة فرنسية ـ تلقى أضواء جديدة على نواح لم تعرف ، من حياة « الدوتشى »

مجهولة الام !

• **لعل** أسعد فترة فى حياتى كلها ، هى تلك التى قضيتها فى حجرتين موبوءتين بالبق والحشرات ، فى أعلى بيت عتيق ، يفضى اليهما سلم ضيق ، كنت أعانى أشد المتاعب فى صعوده ، عندما كنت أحمل فى أحشائى « ايدا » .. أولى أولادنا . وكان « بنيتو موسولينى » ـ فى تلك الآونة ـ يتولى تحرير صحيفة اشتراكية اسمها « لالوتا دى كلاس » ، أى نضال الطبقات .

وولدت « ايدا » فى جو يسوده التعاطف الزوجى المتبادل ، حتى لقد أشفق على « بنيتو » من آلام المخاض، فأخذ يعزف على « الكمنجة » ليسرى عنى . ولكنه لم يكد يرانى أتلوى وقد استبدت بى الاوجاع ، حتى أغمى عليه ! .. وقد ظل ست سنوات ـ بعد ذلك ـ وهو لا يطيق سماع الحديث عن انجاب أطفال آخرين .

ولم نكن قد عقدنا زواجا دينيا، احتراما منا لمبادئنا الاشتراكية.

ومن ثم اعتبرت ((ايدا)) ابنة من زوج مدنى ، ونسبت الى أبيها .. أما اسم الام ، فقد كتب أمامه فى شهادة الميلاد عبارة : ((مجهولة الام)) ! ..

وعندما اشتدت المعركة بين الحزبين الاشتراكى والجمهورى ، أخذ موسولينى يقضى سهراته فى قهوة ((ماروكان)) . وحدث ذات ليلة أن تأخر الى ما بعد الثالثة صباحا — وأنا ساهرة فى انتظاره — فلم يساورنى شك فى أنه اعتقل لنشاطه السياسى . وفيما كنت مستغرقة فى البكاء ، اذا به يعود معتمدا على اثنين من زملائه ، ذكرا لى أنه أسرف فى احتساء الخمر ، واحتد فى النقاش السياسى . وما هما أن انصرفا ، حتى هب زوجى يحطم كل ما تصل اليه يداه . ولم نكن نملك كثيرا اذ ذاك ، لحسن الحظ ! .. على اننى ذعرت وأسرعت الى ايقاظ جارة لى ، كى تستدعى طبيبا ، ولكنها نصحتنى بأن أربطه فى فراشه .. ففعلت !

وعندما استيقظ فى الساعة الثانية — من بعد ظهر اليوم التالى — نظر حوله مشدوها ، وأبى أن يصدق ما حدث .. فلما اشتد به الحنق ، صحت فيه : ((اننى لا أحب أن يكون رجلى سكيرا .. وانى لقادرة على أن أقتلك اذا عدت الى ثملا ، مرة أخرى !)) . وقد ظل ينصت الى ثورتى صامتا ، ثم أقسم أن لن يتذوق الخمر بعد ذلك !

وقد اعتدت فيما بعد — وطيلة السنوات الست والثلاثين التى قضيتها مع ((بنيتو)) — أن لا أنتظر عودته فى كل مساء ، كما تنتظر أية زوجة رجلها . بل انه اعتاد أن يقول لى قبل مبارحة المنزل ، فى كل يوم : ((اذا لم أعد اليوم ، فاما أن أكون قد قتلت ، واما أن أكون فى السجن !)) .. وفى ذات مساء ، كنت أعد طعام العشاء ، واذا برجل غريب يقتحم المسكن ، ويعلن الى — فى غير اكتراث — أن زوجى قد اعتقل . وأدركت أنه من رجال البوليس ، وقد أسلمه زوجى عشر ليرات ليحملها

الى ، وليوصينى بأن لا أنزعج .

وأدرت للرجل ظهرى – دون أن أنبس بكلمة – ثم ضممت طفلتى ((ايدا)) الى صدرى . فقال الرجل فى دهشة : ((عجبا ! .. انك لا تبكين !)) . فقلت بازدراء : ((ولماذا تريد أن أبكى ؟ .. ليس زوجى لصا ولا قاتلا .. كما ان السياسة التى يحترفها لا تلطخ شرفه !)) . على اننى لم أكد أطمئن الى انصراف الرجل ، حتى طفقت أبكى .. اذ لم أكن أملك من حطام الدنيا سوى .. اثنتى عشرة ليرة !

((ديكتاتور)) فى البيت !

• **وولد** ابننا « برونو » فى شهر ابريل من عام ١٩١٨ . وكان « بنيتو » يرتقب وصوله كل يوم ، ويطمئن – قبل خروجه فى كل صباح – الى اننى لن ألد فى غيابه . وفى يوم ٢٢ أبريل ، اضطر للسفر الى (جنوا) ، فقال لى فى لهجة الامر : **((لست أريد أن تلدى اليوم !))**

ولكن « برونو » وصل فى ذلك اليوم بالذات ، فأوفدت صديقا ليحمل النبأ لزوجى عند وصوله فى المساء . وما أن هبط من القطار وسمع بالنبأ ، حتى استقل أول سيارة أجرة صادفته ، وأسرع الى المنزل .. واندفع يطوى درجات السلم . **وما أن وصل الى مخدعى ، حتى صاح بى ، دون أن يلقى نظرة على المولود : ((ألم يكن بوسعك أن تنتظرى قليلا ؟ .. ألم أطلب منك ذلك ؟))**



وأصر على أن يحل محـل والدتى فى المطبخ ، لتتفرغ هى الى العناية بى . ولكنه سرعان ما أتلف أوانى الطهو ، وبدد المال المخصص لنفقات الشهر كله ، فاضطررت الى أن أبرح فراشي واستأنف واجباتى المنزلية ، ولما تنقض ست وعشرون ساعة على الوضع !

خليلتان غادرتان .. السياسة وصحفية يهودية !

• **وكان** عام ١٩١٩ من أهم الاعوام فى تاريخ حياة زوجى ، اذ أسس - فى شهر مارس منه - حزب « طلائع المعركة » . وكان منزلنا هو مقر الاجتماعات ، بيد اننى لم أشترك يوما فى المناقشات التى كانت تدور بين الاعضاء . بل اننى لم أكن أظهر أمامهم الا حين أقدم لهم القهوة فحسب . **وكثيرا ما كنت أقول لبنيتو ، اذا ما أصبحنا على انفراد : « حذار من السياسة .. فهى خليلة غادرة ! »**

على اننى عرفت لبنيتو - فى ذلك العام - خليلة أخرى .. تلك هى « مارجريتا صرفاتى » ، الصـحفية اليهودية التى اشتركت معه فى تحرير صحيفة « بوبولو ديتاليا » . ولم تكن العلاقات بينهما سرا من الاسرار ، فقد كان الكل يعرفونها .. وكنت أعرفها أنا الاخرى ، وان آثرت التجـاهل ! .. ولكم قاسيت من هذه المرأة ، لا لاننى كنت أخشى أن تسلبنى زوجى - فقد كان بنيتو يكرر لى القول بأنه ما كان ليصل الى ما وصل اليه ، لو أنه تزوج من امرأة مثقفة - **وانما لاننى كنت أدرك ان هذه المرأة لم تكن تبدى لزوجي عواطفها المتقدة ، الا ابتغاء مصالح شخصية ! .. ولهذا لم أدهش حين سـارعت هذه المرأة - عقب الحرب العالمية الثانية - فساومت الامريكيين على الرسائل الخاصة التى كان بنيتو قد كتبها اليها !**

ولقد كنت أول من تلقى الاشـارة التليفونية التى قررت مصير زوجي ، وجعلته - فيما بعد - ملك ايطاليا غير المتوج .

ففى صباح ٢٩ أكتوبر من عام ١٩٢٢ ، حدثنى مجهول ـ خلال التليفون ـ قائلا ان الملك دعا زوجى لتأليف الوزارة !

وسافر زوجى فى مساء اليوم نفسه الى (روما) ، وعلى رأسه قلنسوة ذات زر أسود .. وأخذ اولادى يحدثون ضجة وصخبا . اما « سيريلو » ـ سائق سيارتنا ـ فكان يقول لكل من يصادفه : « لقد زحفنا على روما ! » .. **وكان الجميع سعداء ، الا .. أنا . فقد كنت أشعر بالعبء الثقيل الذى تقدم زوجى لحمله ، اذ كانت ايطاليا أشبه بسفينة توشك على الغرق . وكنت ـ فوق ذلك ـ أتصور قيود الحكم ، وكيف انها ستقضى على حرية زوجى .**

وكنت أقول لاولادى ، فيما بعد : « أتعرفون أعظم ما كان يتمناه أبوكم طوال عشرين عاما ؟ .. كانت أعظم أمانيه أن يركب الترام مع أفراد الشعب ، ويتجول فى (روما) مختلطا بالناس ! » . فقد أصبح من المستحيل أن يفعل ذلك ، وهو محوط دائما بجيش من الحرس ورجال البوليس السرى . وكان بنيتو ذاته يضيق بهم ، وكثيرا ما قال لى : « الحق اننى لا أدرى يا راشيل ما اذا كان هؤلاء الرجال يتقاضون مرتبات للمحافظة على حياتى ، أو للتجسس على ! » . فكنت أقول له عن اقتناع : « بل ليتجسسوا عليك ! »

أخيرا حانت رحلة شهر العسل :

• **واتخذنا** مسكنا بشارع (ماريوباتيو) بميلانو . فكان بنيتو يذهب الى (روما) ليمارس مهام الحكم ، ويتردد علينا كلما استطاع .. وفى ٢٩ ديسمبر سنة ١٩٢٤ ، كنت فى المطبخ أطهو صنفا من المكرونة ، واذا الخادم تقبل مهرعة ، وهى تقول : « لقد وصل فخامة الرئيس وبصحبته قس ، وطلب الى أن أدعوك الى قاعة الجلوس » . وتريثت ريثما أفرغ من الطهو ، واذا موسولينى يقتحم المطبخ ، فينتزع

« المرولة » التى كنت أرتديها ، ويدفعنى نحو حوض الغسيل قائلا : « هيا يا راشيل ـ أفحتم علينا أن نلح فى الرجاء ؟ ! »

ودفعنى بعد ذلك الى حجرة الجلوس ، وأنا لا أدرى ما الذى كان يبتغيه . وما أن دخلت الحجرة ، حتى رأيتها قد تحولت الى كنيسة صغيرة ، وقد وقف القس فى انتظارنا . وأدركت اذ ذاك أن موسولينى أراد أن يدعم زواجنا ـ الذى عقدناه مدنيا فى سنة ١٩١٥ ـ بعقد دينى !

وكان هذا الزواج « الثانى ! » خير مناسبة لكى نحظى بشهر عسل . فكثيرا ما وعدنى بنيتو بذلك فى الماضى ..

وفى اليوم الذى حدد لسفرنا ، أعد لنا قطار كهربائى خاص . وساعدنى « بنيتو » ـ فى رشاقة ومجاملة ـ على الصعود الى القطار ، وشكر المودعين ثم أمرهم بالانصراف .. وعندما غابوا عن أبصارنا ، التفت الى سائق القطار وقال له : « الآن ، اختر لنفسك ركنا وامكث فيه ســاكنا ! » . ثم احتل هو مقعد السائق . وجلست الى جواره ، ملتصقة به فى حب وشغف ، وكأننا عروسان جديدان فى طريقهما لقضاء شهر العسل ..

هكذا أراد القدر !

• **وكان** شهر مايو من عام ١٩٣٦ ، من أســعد فترات حياتنا .. أنا وبنيتو . كانت حملة افريقيا قد انتهت ، وكان لموسولينى الحق فى أن يطمئن الى أنه بلغ أوج مجده . وشعرت ـ أنا التى عشت الى جانبه نيفا وعشرين سنة ـ بأن الوقت قد حان لــكى يرتاح بعــد أن رد لايطاليا مجدها . **ولعل موسولينى كان خليقا بأن يستسلم لالحاحى ، لولا أن أشار يوما لسكرتيره الخاص « ستراشى » الى رغبته فى اعتزال الحياة السياسية ، فأبلغ السكرتير النبأ لاقوى أعوان زوجى نفوذا لديه . واذا الجزع يتملكهم ، واذا بهم يسرعون اليه ، ويؤكدون له أن ايطاليا لم تكن بحاجة الى زعيم قدر ما كانت اذ ذاك !**

وفشلت فكرة الاعتزال .. ولعلها كانت كفيلة بأن تجنبه المصير الذى لاقاه ، لو انها نجحت !

تعرف أسرار الناس وتجهل أسرار زوجها !

• **وكثيرا** ما كان موســـولينى يعتمد على فى تعرف آراء الناس فيه وفى حكمه ، فكنت أهبط الى أوســـاط العامة ، واختلط بهم ، وأعود اليه بما أسمعه منهم ، فكان يقول : « لكم يدهشنى أن تصلى الى معرفة أسرار وأخبار لا يقدر الى أن أعرفها رسميا الا بعد ثلاثة أشهر على الاقل ! »

وهكذا ســـارت الامور الى أن تحرج موقف ايطاليا ـ فى الحرب العالمية الثانية ـ وعقد مجلس الفاشست الأعلى جلسته التاريخية المشهورة . وفى ذلك المساء .. ذهب موسولينى ليعرض الموقف على الملك ، وألقى القبض عليه .. **وكانت خادمى قد اعترفت لى ـ فى نهار ذلك اليوم بالذات ـ بأن موسولينى كان يخوننى منذ فترة طويلة ، مع امرأة أخـرى .. وكانت مفاجأة سيئة الوقع ، وما زلت بالخادم حتى باحت آخر الامر باسم غريمتى .. « كلارا بيتاتشى » !**

وكان لا بد لى من أن أقابل هذه المرأة .. ولم أتردد لحظة ، فلقد ذهبت اليها كما تذهب أية امرأة عادية تحاول استرداد رجلها من امرأة تحاول أن تحرمها اياه !

الزوجة فى دار العشيقة

• **وســـادنا** ـ فى بدء المقابلة ـ صمت رهيب . ثم غالبت حيرتى واضطرابى، وسألتها : « هل أنت سيدة أم آنسة ؟ » . فردت بصوت أجش لايناسب مظهرها الانيق ولكنى لم أستمع الى الرد ، بل استطردت قائلة ، وأنا أحاول التظاهر بالهدوء :

ـ اذن فاســـمعى يا ســـيدتى ! اننى لم أحضر الى هنا لاشـــتمك أو أوجه اليك أية اهانة ... كما انه لم يدفعنى

للحضور الى هنا أى شعور بالغيرة . ولكنى أحب أن أقول لك ان وطننا ـ ايطاليا ـ يجتاز ساعات حاســـمة فى التاريخ ، فليس لعواطفنا الخاصة ـ فى هذه الآونة ـ قيمة تذكر . انما حضرت لاطلب منك تضــحية ! .. ان زوجى فى حاجة الى الهدوء والراحة ، ولذلك يجب أن نكتم خبر الفضيحة الخاص بوجودك هنا ... على بعد كيلو مترات قليلة من منزلنا .. **ان من واجب الانسان أن يكون على استعداد لان يضحى من أجل من يحب . وأنا شخصيا ـ زوجة بنيتو موسولينى ـ على استعداد لان أخرج من حياته الى الابد ، وأعيش فى دير ـ أو على قمة جبل ـ اذا كان انقاذه يقتضى ذلك .. وأنت يا سيدتى ، اذا كنت تحبينـــه حقا فيجب أن تكونى على استعداد لان تقبلى فكرة عدم رؤيته بعد اليوم !**

وكانت « كلارا » تستمع الى كلامى فى هدوء وصمت . ولما لم تعقب بشىء ، استطردت أقول : « لقد كان بنيتو دائما أبا كريما . وكان ـ دائما ـ يعبد أولاده . وأنت تعرفين أن له خمســة أولاد ، أو أربعة ـ على الاصــح ـ بعد أن مات « برونو » . وانى لاتقدم اليك باسمهم جميعا لاطالبك بعدم تعكير صفو حياتنا العائلية الهادئة ، وبأن تغادرى الى الابد منطقة بحيرة جارديا ! »

وكنت أتمنى أن تثور أو تحاول الدفاع عن نفسها بطريقة أو بأخرى .. ولكنها راحت تبكى .. وكانت تبكى فى هدوء ، وقد أسندت رأسها الى ذراع المقعد الذى كانت تجلس عليه .. وغاظنى بكاؤها وصمتها المستمران طيلة الوقت ، حتى لقد خيل الى أننى أتحدث الى شبح لا يمت الى الانســان الحى بصلة ، أو أننى أتحدث الى نفسى . ولكى أبعد هذا الشعور أمسكت بذراعها وأخذت أهزه فى عنف . وهنا فقط تحركت شفتاها ، وتمتمت بصوت ضعيف : **« ان الدوتشى يحبك كثيرا ... انه لم يسمح لى قط بأن أقول كلمة واحدة تمسك ! »**

وكانت مظاهـــر الاغماء والانهيار تنتابها بين وقت لآخر فيسارع اليها وهو يحمل زجاجة من الكونياك حتى يساعدها على استعادة قوتها .. وطالت المقابلة بينى وبين عشـــيقة زوجى ، دون أن تؤدى الى نتيجة . وقلت لها ــ أخيرا ــ ان حياتها فى خطر ، اذ علمت أن جماعة من الفدائيين الايطاليين قد أقسموا فيما بينهم على قتلها لانقاذ الدوتشى من الفضيحة .

وظلت تستمع الى كل ذلك دون أن تجيب بحرف واحد .. كانت تستمع وهى تنشج بالبكاء وقد سمرت فى مكانها ، حتى أننى لم أتمكن من مقاومة ثورتى العصبية فى النهاية ، فصحت بها مهددة ، وغادرت المنزل .. وكانت المقابلة قد استغرقت ثلاث ساعات ، دون جدوى !

الدوتشى لا يجرؤ على العودة لبيته !

• **وكان** موسـولينى لا يزال يعمل فى مكتبه عندما عدت الى المنزل ، فدخلت الى حجرتى وأغلقت بابها .. ولا يمكن أن أنسى ساعات اليأس القاتل التى مرت بى خلال هذه الفترة .. ولا أزال أذكر حتى اليوم الاصوات الغريبة التى كانت تطن حولى ، وأنا أحاول النوم !

وكان الدوتشى يعرف كل ما جرى ، فاتصل بالمنزل تليفونيا عدة مرات ، ليستفسر عن أخبارى ولكنه لم يجرؤ على العودة الى المنزل .. **وأخيرا أرسل الى بطاقة سألنى فيها ــ بكل تواضع ــ عما اذا كنت أرغب فى رؤيته ، فدعوته الى المنزل . وبقى الى جانبى طيلة ما بعد ظهر ذلك اليوم . وأخذ يحدثنى فى رقة وعذوبة ، وهو ممسك بيدى يضغط عليها برفق ، وهو يردد فى توسل : ((سامحينى يا راشيل !)) . وأدركت اذ ذاك اننى لم أفقد بنيتو .. رجلى !**

وخرج ((موسولينى)) فى ذلك المساء ــ مساء ٢٦ يوليو ــ ولم يعد .. فقد توالت التطورات بسرعة مذهلة ، وألقى القبض

على زوجى .. وبقيت وحدى فى « فيللا طورلونيا » ، مهمومة ، قلقة ، لا أعلم شيئا عن مصيره . وعندما شعرت ـ فى اليوم التالى ـ بأن القلق يوشك أن يدفعنى الى الجنون ، رأيت أن أساعد فى الاعمال المنزلية ، لالهو بها عن هواجسى . وفيما أنا كذلك ، **أقبلت رسولة من الاميرة « مافادا » ـ ابنة الملك ـ تحمل رسالة من الاميرة أنبأتنى فيها أن زوجى كان على قيد الحياة ، وليس من خطر يتهدده .**

وفى اليوم التالى حضر ٣٠٠ جندى من جنود الجيش واحتلوا « فيللا طورلونيا » التى كنا نقطنها .. وكنت عائدة من السوق ـ بعد أن اشتريت حاجيات المنزل ـ عندما استوقفنى أحد الضباط وقال لى : « أليس هذا منزل موسولينى ؟ »

وأدركت أن الرجل يظننى حارسة الباب ، أو احدى الخادمات ، فتركته فى جهله ، واذا به يقول : « لقد بلغنى أن (الفيللا) خلت من أهلها ، اذ قبض على مدام موسولينى فى (ميلانو) وهى تحاول الهرب ، ومعها حقيبة ملأى بالمجوهرات والاوراق المالية ! » .. ودهشت لسماعى هذا الخبر ، حتى لقد ألقى على الرجل نظرة ملؤها الحذر . ترى هل ساوره الشك فى أمرى ؟ .. ولكن المرولة التى كنت ألبسها فوق ملابسى ، والخضر التى كنت أحملها ، ومنديل الرأس المعقود على جبهتى بالطريقة المعهودة عند الفلاحات ... كل ذلك يبدو أنه أعاد الثقة والطمأنينة الى نفسه فقال لى فى لهجة الآمر : « تعالى فاطلعينى على المنزل ! » .

وعندما وصلنا الى « الصالون » توقف الرجل أمام صورة كبيرة لابنى المتوفى ـ « برونو » ـ فقال وقد خالج صوته بعض الاضطراب : « اننى أعرفه ، فقد كان زميلى فى المدرسة الابتدائية بميلانو . كم أسفت عندما سمعت نبأ وفاته ، فقد كان صبيا شجاعا بسيطا مرحا فى غير غطرسة ولا كبرياء ! » .

ورددت جملته الاخيرة دون وعى . ولعل صوتى خاننى ، فقد استدار الضابط بسرعة وسألنى : ((أكنت تعرفينه ؟))

ورأى الضابط الدموع وهى تجول فى عينى ، ثم ما لبثت أن قلت له : ((نعم .. فأنا أم برونو !)) . وما أن سمع ذلك ، حتى تقدم وقبلنى ، وأخذ فى الاعتذار ، ثم قال والدهشة بادية على وجهه : ((ولكن كيف تبقين وحدك فى هـذا المكان تحت رحمة الاحداث ؟ .. هـذا مسـتحيل !)) . ثم أمر رجاله بمعاملتى بمنتهى الاحترام .

وفى ذات يوم قدم الى (الفيلا) بوليتو ــ الذى ظل اثنى عشر عاما فى حاشية الدوتشى ــ فسألته فى لهفة عن زوجى وأولادى ، اذ أننى لم أكن أعرف مكان أحد منهم بالفعل . وسارع ((بوليتو)) فقدم لى خطابا عرفت فى الحال أنه كتب بخط موسولينى ، فاشتد اضطرابى . وكان الخطاب فى الواقع لا يضم الا بطاقة صغيرة ، خطت عليها بضعة أسطر :

((عزيزتى راشيل : حامل هذا سيخبرك بما أحتاج اليه . انك تعرفين جيدا ما تسمح حالتى الصحية بتناوله من طعام ــ ولكن لا ترسلى سوى القليل ــ كما أرجو أن ترسلى الى بعض الملابس والكتب ، لاننى محروم منها . وليس بوسعى أن أخبرك بمكانى ، ولكنى أؤكد لك أننى بصحة جيدة . اطمئنى وقبلى الاولاد بالنيابة عنى ــ بنيتو))

وأظلمت الدنيا فى عينى ، وصحت فى انفعال : ((لقـد ظل زوجى طوال ٢٠ عاما يرفض ألقاب الشرف ، وقد تنازل لايطاليا عن كل ما كان يمنح له من هدايا .. والآن يجرؤ بادوليو على أن يحرمه من لقمة الخبز !))

بادوليو ينقض أوامر الملك

• وفى مساء اليوم الثانى من أغسطس ، قادنى ((بوليتو)) الى (روكا ديلا كاميناتى) ، حيث صدرت الاوامر بنقل زوجى .

وأعتقد أن الملك كان يقصد تحديد اقامة زوجي . ولو تم ذلك لما تعرضت ايطاليا لكثير من الاحداث التي وقعت بعد ذلك . ولكن « بادوليو » انتصر مرة أخرى ، فاذا السيارة التي كانت تقل موسوليني ، تتجه الى (جايتي) بدلا من (روكا ديلا كاميناتي) . وبقيت أنا في هذه الاخيرة مع ابنتي « أنا ماريا » وابني « رومانو » .. ولم أكن أعرف شيئا عن مصير ابنتي « ايدا تشيانو » أو ابني « فيتوديو » .. أو زوجي !

كنت أعتقد أنهم حددوا اقامته في احدى الجزر النائية — كما فعلوا بنابليون بونابرت عندما نفوه الى جزيرة سانت هيلانة — ولكني كنت شديدة القلق والخوف على حالته الصحية . وكنا نقتل الوقت بقراءة الصحف والاستماع الى اذاعات الراديو ولكن كل خبر كنا نقرأه أو نسمعه كان يزيد من قلقنا ، فما أكثر ما كان ينشر — اذ ذاك — أو يذاع من شائعات عن أعضاء أسرة موسوليني !

مفاجأة .. ورحلة بالطائرة

• **وازداد** موقف أسرتنا حرجا ، عندما نزلت قوات الحلفاء في جنوب ايطاليا ، في أوائل سبتمبر سنة ١٩٤٣

وفي ذات صباح — وكان ذلك في ١٢ سبتمبر — انتشر خبر عقد الهدنة ، فزادني هذا اضطرابا .. وفيما كنت جالسة بداخل المنزل ، اندفع حارسنا « أرماندو » قادما من الخارج ، وقال لي بصوت متهدج : « انهم هنا ! لقد احتلوا جزءا من مدينة روكا ديلا كاميناتي ! »

وأسرعت أحتمي في حجرة رومانو ، وأنا شديدة الخوف مما عسى أن يصيبنا على أيدي الانجليز !

ولكنها كانت مفاجأة تدعو للذهول ! .. فان الذين أقبلوا كانوا من ضباط الالمان وجنودهم .. والذي حدث هو أن أربعة من الضباط الالمان يعلو وجوههم التراب ، ويسيل على

وجوههم العرق ، كانوا قد قاموا بمغامرة كبرى حتى تمكنوا من الوصول الى (روكاديلاكاميناتى) بقصد انقاذنا من الاسر..
وأسرعت الى المطبخ لاعد لهم طعام الافطار . بينما قال احدهم : « أمامكم ٤٥ دقيقة فقط لاعداد حقائبكم ، ولن نسمح لكم بدقيقة واحدة أكثر من ذلك ! »

وارتبكت ارتباكا شديدا ، واستعنت بابنتى « آنا ماريا »، وأخذنا نملأ بعض الحقائب بالحاجيات الضرورية . وفجأة ، رأيت ابنى « رومانو » يجلس الى البيانو ، وينهمك فى العزف !

لقاء فى ميونيخ

◆ **ومن** مطار (فورلى) ، حملتنا طائرة حربية ألمانية . وكانت الرحلة شاقة متعبة ، وقد استبد بى القلق ، اذ كان الجو عاصفا . وكان « رومانو » و « آنا ماريا » أشد قلقا منى ، اذ كانا على المام باللغة الالمانية ، وقد فهما من حديث الالمان أن هناك طائرات مطاردة بريطانية تحاول أن تصيب طائراتنا . **وكان أنكى ما فى الامر ، هو أن رصاصة واحدة كانت كفيلة بأن تنسف طائرتنا ، لانها كانت محملة بالقنابل**



على أن طائرتنا استطاعت أن تنجو منها ، وقد غيرت وجهتها مرارا أثناء المغامرة . وعندما هبطنا الى الارض أخيرا ، لم يكن قد تبقى من محركاتها الاربعة سوى واحد . وكنا فى (ميونيخ) . ونزلنا فى أفخم فنادق المدينة . وبعد أن تناولنا العشاء ، تقدم منا ضابط ألمانى كبير الرتبة ، وقال لى : « **لقد حرر طيارونا**

الدوتشي اليوم يا سيدتي ، وأخرجوه من معتقله . ويسرني أن أخبرك أنه في طريقه الى المانيا .. وسيكون هنا غداً ! »

وليس بوسعي أن أصف ما خالجني من مشاعر اذ ذاك !

ولم أكن قد رأيت زوجي « بنيتو » منذ ٢٥ يوليو — أي منذ شهرين تقريباً — فصممت على انتظاره في مطار ميونيخ .. وعندما هبط من طائرته رأيت على رأسه تلك (القلنسوة) التي لم يكن يستغني عنها ، كما رأيته يلبس رداء الانزلاق على الجليد الذي بعثت به اليه . وكدت لا أعرفه ، فقد بدا نحيلاً شاحب الوجه !

عواطف بحارة سفينة الاسير !

• **وقيل** لي أن زوجي لن يبقى معي طويلاً ، اذ كان عليه أن يستأنف السفر فوراً ليقابل هتلر في مقر القيادة العامة . ولم أقو على احتمال هذا . ولكن الجو حالفنا ، اذ هطلت الامطار بشدة كما بدأت العواصف تشتد . فتقرر أن نقضي الليلة في « كارل بالاتز » ، وهو قصر فاخر وضعه هتلر تحت تصرف ضيفه موسوليني !

ولما بدأ « بنيتو » يخلع ملابسه استعداداً للدخول الى الحمام ، شعرت بحزن شديد ، اذ رأيت جوربيه وقد تناثرت فيهما الثقوب ، وكان قميصه الداخلي قذراً ممزقاً .. كما كان يرتدي سروالاً كبيراً ، لم أكد أراه ، حتى صحت به في اشمئزاز : « من أين لك هذا يا بنيتو ؟ »

ولم يتمالك موسوليني نفسه من الابتسام ، وقص على أنه بعد القبض عليه بيومين — أي في ٢٨ يوليو — أرسل على سطح السفينة « بيرسيفون » الى جزيرة (بونزا) . وفي أثناء الرحلة ، اقترب منه بعض البحارة سراً ، وسأله أحدهم في خجل : « هل أنت في حاجة الى شيء أيها الدوتشي ؟ ! » . ودس أحدهم في يده أربعمائة ليرة . ولما لم يكن موسوليني

يملك فى جيبه ليرة واحدة فقد سارع الى قبول هذا المبلغ . كما قدم بحار آخر للدوتشى هذا السروال الكبير الذى أثار اشمئزازى !

سر تشبث الدوتشى بمحالفة الفوهرر

• **وفى** تلك الليلة التى قضيتها الى جانب زوجى بمدينة ميونيخ فى كارل بلاتز تحدثنا طويلا بصوت منخفض . وقد شرحت لموسولينى الموقف السياسى فى ايطاليا على حقيقته ، لانه كان محروما من الاطلاع على الاخبار .. ولما ذكرت له كل شيء قلت له فى النهاية راجية ملحة : « أرجو ألا تعود مرة أخرى الى ايطاليا يا بنيتو ! » . ولكنه قال لى . « بل لا بد من الجهاد من جديد يا راشيل ... ويجب أن نحترم (الميثاق) الذى عقدناه مع ألمانيا مهما كلفنا ذلك .. **قد يكلفنى موقفى هذا حياتى ، ولكن هذه هى الوسيلة الوحيدة التى يمكن أن نتفادى بها خراب ايطاليا التام من جراء انتقام ألمانيا ! »**

وفى صبيحة اليوم التالى استقل بنيتو الطائرة لكى يقابل « الفوهرر » . ثم عاد بعد ثلاثة أيام وعليه مظاهر التعب والاعياء . ولم يمكننى أن أعرف شيئا عما حدث فى المقابلة التى تمت بينه وبين هتلر . ولكنه قال لى على أثر عودته من هذه المقابلة : « لقد اشتغلت كثيرا يا راشيل . وفى هذا المساء يجب أن أوجه رسالة الى الشعب الايطالى ! »

وانسحب فورا الى الحجرة التى كانت مخصصة له فى « كارل بلاتز » حيث تحدث الى الشعب الايطالى خلال « الميكروفون » ، وقد تحولت الحجرة الى صالة للاذاعة .

وبعد قليل من الوقت نقلنا الى قصر (هيرشبرج) ، الذى كان يقع على بعد ٨٠ كيلو متر من ميونيخ . وفى تلك البقعة المتوارية فى جبال الالب البافارية ، وضعت أسس « الجمهورية الايطالية الاشتراكية » ! .

يقترض نفقات السفر الى ايطاليا

• **ولما** كنت اشتراكية جمهورية المبدأ بطبعى ، فقد شعرت بسعادة عظيمة لسماع هذا النبأ السار .. واستقر رأى موسولينى ، عند نهاية شهر سبتمبر تقريبا على ضرورة عودته الى ايطاليا ، على أن ألحق به فيما بعد .

وكان – بطبيعة الحال – مفلسا ، فاستطعت أن اقترض بعض المال من أسرة كنت أعرفها ، فسافر وهو يحمل خمسة عشر ألفا من الليرات . وكان يرتدى قميصا أسود ، ليذكر الايطاليين بمجدهم الذى بناه لهم الفاشيست أصحاب القمصان السوداء !

وفى (جارجنانو) ، استقر وأقام حكومته الجديدة . وكم كانت سعادتى حين كتب الى موسولينى – بعد أيام قليلة – يطلب الى اللحاق به . فغادرت ألمانيا فى يوم ٢ نوفمبر . ولما قابلت زوجى وجدته متغيرا جدا ، سواء من الوجهة الجثمانية أم من الوجهة المعنوية .

وكان قد تمكن بحيويته المعتادة من اعادة تنظيم أهم المصالح الحكومية التى تؤدى الخدمات العامة وهى : التموين ، والبوليس ، والادارة . وأعد وحدات من الجيش الايطالى انضمت لكى تحارب الى جانب الالمان ، كما كانت هناك وحدات أخرى لا تزال قيد التنظيم والتدريب تحت قيادة الجنرال جرازيانى .. وانغمس فى العمل دون أن يشكو التعب

مأساة تشيانو

• **واذا** كانت صحة موسولينى قد تحسنت – منذ عودتنا الى ايطاليا – فانه من جهة أخرى كان منزعجا بسبب الحوادث القاسية التى كانت تمر بالاسرة . ففى يوم ١٩ أكتوبر – عين اليوم الذى عاد فيه موسولينى الى ايطاليا – قبض على

تشيانو ، زوج ابنتنا « ايدا » ، وأودع سجن (فيرونا) انتظارا لمحاكمته .. ولم يدهشني ذلك البتة ، فقد أدركت **أن موقف زوج ابنتي كان حرجا جدا ، وان أحدا لن يتمكن من مساعدته اطلاقا .. حتى ولا زوجي نفسه . فقد كان معظم الفاشيست يطالبون – بل ويصرون – على محاكمة المسئولين عن مؤامرة ٢٥ يوليو ، وكانوا يتهمون « تشيانو » بأنه ممن عملوا على تحول ايطاليا الى الحلفاء . ولعل أشد ما آلم موسوليني – وآلمني – هو أن « ايدا » كانت مضطرة الى أن تواجه مصيرها المحتوم بمفردها ، دون أن يتمكن والدها نفسه من مساعدتها !**

وطلب موسوليني أن يسمح له بدراسة القضية بنفسه ، وكان مضطرا طبعا أن يضحي بعواطف الانسانية على مذبح السياسة التي لا ترحم . ولكنني أوقن من أنه كان لا يتوقع مطلقا أن تنتهي القضية بمأساة ! .. وما شهدت موسوليني قط في مثل ما كان عليه من أسى – في تلك الفترة – اللهم الا بعد موت ابننا « برونو » . وقد قال لي ذات ليلة : **« ياراشيل ... منذ ذلك اليوم بدأت ... أموت ! »**

وكم كان أسى « موسوليني » وحزنه ، يوم أعدم « تشيانو » !

وفي مساء ذلك اليوم المقيت – ١١ يناير – اختفت « ايدا » ، بعد أن أرسلت الى أبيها خطابا شديد اللهجة ، زاد من أساه وكمده . وقد خشيت ألا تحتمل « ايدا » الصدمة التي أصابت الاسرة ويدفعها اليأس ، هي الاخرى ، الى مأساة جديدة !

ستمائة يوم قضيناها في عذاب ما مثله من عذاب ، فليس هناك أفظع من خوف قيام حرب أهلية تمزق البلاد . وكان هذا الخوف يقتل موسوليني قتلا بطيئا ، قاسيا ! .. ستمائة يوم من الاسى ، لم يتخللها الفرح سوى مرة واحدة .. وكان ذلك في ٥ ابريل سنة ١٩٤٥ ، عندما تلقى موسوليني أنباء تطمئنه الى أن « ايدا » لجأت الى سويسرا بعد اعدام زوجها .

فما أن سمع هذا ، حتى بدا كمن يستيقظ من كابوس رهيب . ولاول مرة ، بدأ يتحدث عن المصير الذى ينتظر أسرتنا ، بعد أن تبين أن ايطاليا وألمانيا لن تكسبا الحرب !

نذر النهاية !

• **ولقد** حاول ابننا « فيتوريو » أن يغرى أباه مرارا بالنجاة فى غواصة أو طائرة مائية ، تحمله الى (أسبانيا) أو (الارجنتين) . وكان موسولينى ينصت صامتا الى خطط ابنه ثم يهز رأسه ، ويقول : **« لست أريد سوى تحاشى الوقوع فى أيدى الانجليز والامريكيين .. ولا يهمنى بعد ذلك أى مصير ألقاه ، ولو كان .. الموت ! »**

وكانت آخر مرة رأيته فيها ، بعد ظهر يوم ١٨ أبريل .. كان خارجا ليستقل سيارة خاصة الى (ميلانو) ، واذا به يسمع أنغام « الدانوب الازرق » ، تنبعث من الصالون الصغير ، فتوقف وألقى نظرة عابرة ، واذا به يرى ابننا « رومانو » جالسا الى المعزف .. وأراد الفتى أن يصحبه ، ولكنه ربت كتفه قائلا : « استمر فى العزف .. ولسوف أعود بعد يومين أو ثلاثة . »

وعندما تحركت السيارة ، أطل من نافذتها ، وأخذ يتزود بنظره من البيت والحديقة والبحيرة الزرقاء .. ثم ابتسم ! هذه هى الصورة الاخيرة التى انطبعت فى ذهنى لزوجى !

وفى صبيحة يوم ٢٣ أبريل ، حدثنى موسولينى تليفونيا ، ووعدنى بالعودة فى المساء . ولكنه عاد فحدثنى مرة أخرى – بعد ساعة – وقال : « لقد سد الامريكيون جميع الطرق المؤية الى (برسكيا) ، فسافرى فورا الى (مونزا) يا راشيل ، وسألحق بك ! » فسافرت الى (مونزا) فى الفجر . وعاد موسولينى فاتصل بى تليفونيا فى الساعة الثامنة ، ثم فى الساعة الحادية عشرة ، ثم فى الساعة الوواحدة ...

وقال لى فى آخر مرة تحدث فيهـا : « ليس فى امكانى أن أصل الى مونزا ، فاذهبوا الى (كومو) حيث ألحق بكم »

الرسالة الاخيرة

• **وطال** انتظارى ، ولكنه لم يعد .. واشتد بى القلق حتى اننى أسرعت الى مركز بوليس (كومو) ، فى مساء ٢٥ أبريل من عام ١٩٤٥ ، وأنا أردد : « اين بنيتو ؟ » .. نعم ، أين زوجى ؟ .. أين بنيتو موسولينى ؟ ولكن الجواب كان واحدا : « لا نعلم عنه شيئا ! »

وواتانى النوم لحظات ـ فى ليلة ٢٦ أبريل ـ ثم استيقظت على صوت الخادم : « خطاب من الدوتشى ! » .. وعرفت خطه فى الحال ، فصـحت وقلبى يتمزق لوعـة : « أنا ماريا .. رومانو ! » . وخف الى والداى ، اذ لم أجد شجاعة على قراءة خطابه وحدى !

« **راشيل ، يا عزيزتى** : ها أنذا أقلب الصفحة الاخيرة من كتابى .. وها أنذا أصل الى المرحلة الختامية من حياتى ! .. قد لا أراك مطلقا بعد اليوم ، ولهـذا رغبت فى الكتـابة اليك .. .. اننى أسألك العفـو والغفران عن كل اسـاءة ألحقتها بك . **ولكن لا بد أن تعرفى يا راشـيل انك كنت المرأة الوحيدة التى أحببتها فى حياتى . اننى اقسم لك عـلى ذلك أمام الله !**

« لا بد لى من السفر الى (فالتلين) . أما أنت والاولاد فيجب أن تحاولوا الوصول الى الحدود السويسرية . وهناك تبدأون صفحة جديدة من الحياة . لا أظن أنهم يرفضون السماح لكم بالدخول الى هناك فلقد ساعدتهم دائما ، كما أنكم ـ علاوة على ذلك ـ كنتم دائما بعيدون عن السيـاسـة . **أما اذا رفضت سويسرا السماح لكم بالدخول، فيجب أن تلجأوا الى الحلفاء ، ولا شك فى أنهم سيكونون أكثر كرما من الايطاليين فى معاملتكم**

« أوصيك خيرا بآنا ماريا وورومانو .. وأقبلك يا راشيل .. وأقبلكم جميعا ــ **بنيتو** »

لا بد من أن أتبع مصيرى وحدى !

● **وأخذت** أكرر هذه العبارة التى لحقت بذاكرتى من خطاب بنيتو الاخير : « وقد لا أراك مطلقا ... بعد اليــوم ! » .. وفجأة صحت بصوت أجش ، وأنا أتجه بسرعة نحو التليفون : « لا ! لا ! هذا غير ممكن ... مستحيل ! »

ورفعت سماعة التليفون وأخذت اصيح : « بنيتو ! » ، فقد كان ثمة خط يصل البيت بالمكتب مباشرة . ورد على موسولينى من الجانب الآخر فقال : « لا تنزعجى يا راشيل ! .. الجأى الى ســويسرا ! » . فصحت : « تعــال معنا يا بنيتو .. سننتظرك ! » . فكان جوابه : **« سأســافر الى فالتلين لكى أبذل المحاولة الاخيرة للمقاومة ! »**.

وخنقت الزفرات والشهقات صوتى ، فلم أتمكن من الرد عليه . وأمسك رومانو المسماع وسأله : « هل تستعدون لتنظيم المقاومــة على الاقل ؟ ومن هم أتباعكم ؟ » . فأجابه موسولينى : **« لا أحد يا رومانو .. اننى أقف وحــدى ! .. لقد فقدنا كل شىء ! »** . واختطفت المسماع ، فسمعت كلماته الاخيرة : **« يجب أن أتبع المصير الذى كتب لى ! »** .

وأدركت أنه لا بد من اتباع تعليماته لانقاذ الاولاد . فأسرعت بحزم الحقائب .. وسرعان ما انطلقت بنا السيارة .

كل الناس .. الا أنتم !

● **ورفضت** السلطات السويسرية أن تسمح لنا بدخــول أراضيها ، قائلة : **« للجميع أن يلجأوا الى سويسرا .. عدا آل موسولينى ! »** . وعدنا فى نفس الطريق الذى قطعناه . فلما وصلنا الى (كومو) ، خطر لى أن أسعى الى (فالتلين) ..

ولكن جنديا استوقفنا ـ عند الفجر ـ قائلا : « قفوا هنا ! ان الطريق مسدودة ، فقد استولى عليها المجـاهدون .. ولو قبضوا عليكم لقضوا عليكم جميعا قضاء مبرما ! »

واستضافنا صـديق فى (كومو) يومين .. وكان دوى الرصاص لا ينقطع . **وفى الليلة الثانية استيقظنا على أصوات انفجارات مزعجة بعثت الرعب الى نفوسنا .. ولكنهـا كانت انفجارات الصواريخ النارية التى انطلقت فى الفضاء . وسمعنا صيحات الفرح : « لقد انتهت الحرب ! .. لقد وصل الحلفاء ! »**

وفى صبيحة اليوم التالى وقفنا وراء النوافذ المغلقة لنرقب المصفحات الامريكية وهى تجوب المدينة .. وفجأة ، فتح باب الحجرة ودخل مضيفنا وهو يحمل فى يده صحيفة ألقى بهـا على المائدة ، وقد ملأت الدموع عينيه .. وأسرع رومانو الى الصحيفة .. ولم أنظر الى ما كان فيها ، ولكنى نظرت الى وجه « رومانو » فاذا به يصاب بالشحوب فجأة .. كانت طبعـة خاصة من صحيفة « يونيتا » تصدرها عنوان ضخم : **« العدالة تقتص من موسولينى ! »**



طاغية بغداد!

قصة مغامرين من الفرنجة فى بلاط الرشيد..

للكاتب الأمريكى : جلين بيرس

بين حقائق التاريخ وخيال المؤلف

◆ ان « بغداد » اليوم ملء الافواه والاسماع ، بعد الحركة المباركة التى حررتها من الطغيان والارهاب والفساد . على أن الحقبة التى مر بها العراق – قبل ثورته المباركة – لم تكن أول الحقب المظلمة فى تاريخه ، وقد ظهرت فى أسواق الادب أخيرا ، قصة تناولت احدى هذه الحقب ، وهى الفترة التى استبد فيها بمصائر العراق خليفة انساق وراء النزوات – هو « هارون الرشيد » – ووزراء واعوان لم يكونوا من دم عربى خالص ، فلم يفوا للدولة العربية قدر وفائهم لمصالحهم الخاصة .. انها صورة تثبت ان التاريخ يعيد نفسه ، فان ما حدث فى عهد الرشيد فى بغداد ، حدث فى القاهرة فى عهد اسماعيل وفؤاد وفاروق ، وحدث فى بغداد فى عهد فيصل الثانى وعبد الاله

والقصة – فيما عدا المناسبة التى أبرزت قيمتها – خليط موفق من التاريخ والخيال .. فمن التاريخ أخذ المؤلف الحقائق التى نسج حولها من الخيال مغامرات مشوقة تذكر القارىء بقصص المغامرات الكلاسيكية – كقصة « الفرسان الثلاثة » لديماس – ان لم تتجاوزها لتحمل القارىء الى جو « الف ليلة وليلة » .. انها محاولة بديعة ، تتيح نوعا من التلوين والتنويع ، فى خضم القصص الواقعية التى أصبحت تملأ أسواق الادب

أما والدنيا على حالها ، تتناوبها الحروب وشائعات الحروب ليلا بعد نهار ، وعاما أثر عام ، فقد رأيت من سنين عدة أن أفرغ الى الدراسة ، والتصوف ، وكتابة مغامراتى .. على اننى اصلا رجل حرب وقتال ، تألق نجمى فى بلاط الفرنجة ، كما أن من حقى أن أفخر بأننى الاوحد بين علية القوم فى بلاد الفرنجة ، الذى يجيد الكتابة .. **اننى « اريك بن كنوت » ، وقد كنت يوما « كونت » وسيدا للساحل النورماندى ، تحت سلطان شارل الاكبر ، ملك الفرنجة . ولكن المؤامرات والغدر والجريمة طوحت بى الى أراض بعيدة ، حيث تعرفت الى عاهل كان يعادل شارل فى نواح كثيرة !**

كنا قد عدنا مظفرين من حربنا ضد الصقالبة . واعترف أنها كانت حربا شريرة ، ملأت نفسي بكثير من التوجس الغريب .. على أننا انتصرنا ، ورحنا نتأهب في القصر الملكي في (اكس) ، لحفلة تليق بالمحاربين العائدين . وكانت الحفلات – في عهد شارل – قليلة ، لانه كان ميالا للبساطة ، كارها ترف الملوك وبذخهم . على أنه كان اذا أقام حفلة ، لم يدخر وسعا في أن تكون مناسبة لعظمته .. وفي تأهبنا لهذه الحفلة، تكشفت لي أولى نذر المأساة التي خيمت على حياتي ، فقد لاحظت ان زوجتي « بيرجيتا » كانت بادية الفتور ، رغم طول فراقنا .. بل انها أخذت تصدني في ترفق متكلف ، متذمرة من أنه قد قدر لها أن تكون زوجة لمحارب لا يكاد يعود من حملة حتى يوفد في أخرى .. فاذا اتيحت له بضعة أشهر بلا حرب ، انصرف الى الكتب والورق والاقلام ، كأنه من الرهبان !

وغادرت مخدعها جريح النفس والقلب ، وقد أيقنت مما كنت أتفادى الاعتراف به منذ أشهر .. أيقنت من ان حب « بيرجيتا » لي كان في دور الاحتضار .. **وفيما كنت اجتاز ردهة الجناح الذي كان مخصصا لي ، لمحت شبحا يتسلل في حذر ، فكمنت له حتى اقترب ، ثم برزت فجأة أمامه .. وأجفل اذ رآني ، فسمر في مكانه لحظة ، ثم تمالك نفسه وهتف : « أريك ! .. لقد جئت أهنئك بالعودة ! » . فانبعث صوتي باردا ، وخازا ، وأنا أقول : « وهل من العادة اقتحام جناح الفارس ، بينما تكون زوجته في احتفال خاص بمقدمه ؟ .. أن صداقتنا – فيما أعلم – لم تبلغ هذا المدى »**

وابتسم الرجل ، ثم جذبني بعيدا ، وهو يهتف متظاهرا بالود : « تعال نتناول قدحا من النبيذ ، فما أحسب الا أن الحرب أرهفت أعصابك ! » . وغالبت غضبي وشكوكي بقوة جبارة ، ولعلي لم أشأ أن أثير ضجة في البلاط ، تظهرني بمظهر

الاحمق الذى ينساق لشكوك لا مبرر لها .. أو لعلى خشيت على الرجل — وكان محاربا مشهورا — من تابعى «ايجبرت» ، الذى كان كتلة ضخمة من جسم قوى وعضلات فولاذية . ولكننى لم أتمالك أن أربط بين « بيرجيتا » زوجتى ، وبين « ليوتبراند » — وهو ذلك المحارب الذى كان يسترق الخطى الى جناحى — فراحت جذوة الغضب تذكو فى صدرى وتشتعل .. **وزادها أوارا أن لاحظت أن « بيرجيتا » و « ليوتبراند » راحا يحاولان أن يتبادلا النظرات ، عندما جلسنا الى المائدة الملكية** .. وشغلت بذلك ، حتى انتبهت فجأة الى الملك « شارل » وهو يحدق فى — وكنت أبعد عنه بحوالى ثلاثة مقاعد — حتى اذا رآنى التفت اليه ، قال : « لن يلبث ضيف الشرف أن يصل يا اريك ، واحب أن تعرفه ، فان ثمة مهمة أوشك أن أعهد بها اليك ، وهى تتصل به ! »

وأحنيت رأسى فى خضوع ، وان غاص قلبى بين جنبى ، ونظرت نحو « بيرجيتا » واجفا ، فقد كان هذا نذيرا بشاغل جديد يصرفنى عنها . ورحت أرقبها فى ظمأ .. كان جمالها رائعا ، وكنت أهيم وجدا بها ، ولكنها تجاهلت نظراتى ، وتشاغلت عنى !

* * *

ودوى صوت بوق فى الخارج ، تبعه صوت طبول .. وكانت الطبول شيئا غريبا على بلاط الفرنجة . ثم برز زنجيان عملاقان ، عاريا الصدرين ، وقد توجت رأس كل منهما عمامة بيضاء توسطتها جوهرة فوق الجبين . وأقبل خلفهما عدد من الرجال المعممين ، فى أردية فضفاضة ذات ألوان زاهية . وقد توسطهم رجل طويل ، نحيل ، ذو لحية سوداء صغيرة ، وعينين سوداوين تتألقان ذكاء . وكان يحمل سيفا عريضا مقوسا بشكل الهلال .

ونهض شارل واقفا ، وأشار الى مقعد كان يحتجزه الى جواره ، تكريما لهذا السفير ، فتقدم اليه الرجل النحيل ، بينما تربع الباقون على الارض خلفه . وقال شارل : ((**باسم الفرنجة أحيي مبعوث ملك الشرق الاكبر ، وأرجو أن تتوثق عرى الصداقة بين شعبينا لخير العالم**)) . فرد الرجل بلغة فرنجية صحيحة ـ أدهشت الجميع ـ وان شابتها لكنة ملحوظة : ((**باسم أمير المؤمنين ، هارون الرشيد ، أحمل أنا ـ على بن أبى طالب ـ (١) تحيات الاسلام اليكم . ان قائد المؤمنين يعتقد أنك ـ أيها الملك العظيم ـ وهو ، أعظم عاهلين فى الارض ، ومن ثم فهو راغب فى توطيد علاقات المودة بين دولة الفرنجة والدولة التى يرأسها ، وانه لينبغى أن تتبادلا التجارة ، والسفراء ، حتى يفل هذا عضد الهمجيين ، فلا يتجاسرون على الاغارة على دولتيكما الرفيعتين**)) !

وانحنى الرجل الطويل ، الاسمر البشرة ، ذو الانف الشبيه بمنقار الصقر . ورفع يده الى صدره ، ثم الى شفتيه ، ثم الى جبينه . ودقت الطبول مرة أخرى ، فاذا برجل من أتباعه يتقدم الى ((شارل)) بعلبة من الخشب اللامع الموشى بالذهب ، والمرصع بالاحجار الكريمة . واذ فتحها الملك ، وجد فيها كثيرا من الحلى الدقيقة الصنع ، المرصعة بالجواهر ، التى بهرت أنظار الحضور ، بل وبهت لها ((شارل)) نفسه .. وتقدم خادم آخر ، بأقمشة رقيقة ، بديعة ، ازرت بخير نسيج فرنجى .. بعضها من (غزة) ، وبعضها من (دمشق) . ثم تقدم خادم ثالث بسيف من (طليطلة) ، وعدد من الخناجر ، وحربة رائعة .. وتوالت الهدايا التى أزاغت أبصار الفرنجة الحاضرين ..

---

(١) من المسلم به أن الاسم من ابتكار المؤلف ، وان المقصود به شخص غير ((علي بن أبي طالب)) رابع الخلفاء الراشدين .

وقال شارل أخيرا : « اننى أفكر منذ عهد طويل فى تشجيع التجارة بين شعبينا ، وأرى أن يصحبك أيها السفير ــ فى عودتك ــ مبعوث من لدنى ، يحمل لعاهلكم الهدايا والتحيات ». وحدجنى الملك ــ لدهشتى ــ بنظرة ، ثم استطرد : **« وهذا الرسول من أعظم فرسانى ، فضلا عن أنه عالم متبحر ، يعرف كيف يرسم صورة لحياة الفرنجة ، لاهل تلك البلاد البعيدة ، ويستطيع أن يشرف نفسه ويشرفنى .. انه أريك ، كونت الساحل النورماندى »** .. وأجفلت اذ سمعت اسمى ، فقد أدركت أن هذه البعثة كفيلة بأن تفقدنى « بيرجيتا » نهائيا . ونظرت اليها ، فغاص قلبى ، اذ لم ألمح فى عينيها غير بريق الفرح . واختلست نظرة الى « ليوتبراند » ، فاذا به قد مال على المائدة ، وراح يحملق فى وجهها ، وعلى شفتيه ابتسامة مترافصة .. ولكنى لم أكن أملك سوى أن انهض فأنحنى واشكر الملك !

ودقت الطبول من جديد ، ثم انبعثت أنغام مزامير وآلات موسيقية وترية ، واذا بغادتين تقفزان الى وسط القاعة ، فتنضوان عنهما وشاحيهما ، وتبقيان فى غلالتين رقيقتين ، وقد ازدانتا بأجمل المصوغات والمجوهرات ، وأسدلتا على وجهيهما نقابين لا يكادان يخفيان شيئا ، وانما هما يضفيان سحرا .. **واجتذبت احداهما انتباهى ، رغم انشغال بالى . فقد كانت ذات شعر كثيف طويل ، يشيع فى سواده بريق أزرق كلما رف فى الهواء ، تحت الضوء . وكان من الجلى أنها كانت تدرك ما لجمالها الاسمر من روعة وفتنة ، ولكن هذا لم يغرها بشىء من الخلاعة أو التهتك ، بل راحت ترقص وكأنها تؤدى صلاة من أجل جمالها الباهر .. ورحت أرقبها فى اعجاب ، وان لم تتخل عنى همومى !**

ومع أن « شارل » لم يكن على وفاق مع رجال الكنيسة ، يجعله ينصاع لهم ، الا انه كان يجلهم ويحفظ عليهم كرامتهم .

وكان أكثرهم حظوة لديه ، هو « ألكوين » الذى كان صديقا وأستاذا لى . فلما انتهى الحفل ، قال هذا لشارل وهو يرمقنى طويلا : « أحب أن أروى - يا مولاى - أسطورة موجهة الى رجل من حاشيتك .. أنها قصة ثور وبغل . أما الثور فكان مجدا ، امينا ، يستيقظ مبكرا ، ويظل يعمل فى الحقل كادحا حتى يهبط الليل ، فيعود الى الحظيرة ، ويلتهم مايقدم له من أكل ، ويتأهب لليوم التالى ، دون تذمر .. وكان فى المزود المجاور له بغل كان يقضى نهاره متسكعا ، لا يؤدى عملا ما . وفى ذات يوم ، قال البغل للثور : « انك يا صديقى جدير بما يلقبوننى به ، لإنك تنصاع للعمل ، وتتقبل ما يقدم لك من طعام . أما أنا ، فقد ظفرت - بفضل تذمرى وشكواى - بعمل أقل ، وطعام أكثر . ولقد أشفقت عليك ، فتحدثت الى صاحبنا ، ووعد بأن يخفف العبء عنك ، بأن يبقيك فى الحقل ، فلا يجشمك عناء المجىء والذهاب . كما وعد بأن يترك النير فى عنقك بالليل ، لكى لا يتعبك شده كل يوم ! » .. وشكره الثور ، لا لانه كان غبيا ، وانما لانه كان يحسن الظن بمن حوله ! »

وسكت « ألكوين » وانحنى للملك ، فصاح هذا فى دهشة : « لقد قدتنا الى الجدول ، ولكنا لم نشرب من حكمتك بعد .. فماذا جرى للثور ؟ » .. وابتسم الراهب قائلا : « يؤسفنى أننى لم أعرف بقية الاسطورة » . **ولكن الحضور أدركوا مرمى قصته . أما أنا فكدت أتميز غيظا ، اذ ادركت اننى المقصود بها .**
وما لبث الحضور أن انصرفوا ، فخلوت الى الملك ، وراح يدلى الى بتعليماته لبضع ساعات ، دون ان يصغى لاحتجاجاتى ، ولتوسلاتى بأن يعفينى من المهمة . حتى اذا هممت بالانصراف ، ابتسم قائلا : « لسوف تفخر زوجتك ، وستقدر موقفك . اننى أدرك مشاعرك ، ولكننى لا أأتمن أحدا غيرك .. حتى غرماؤك زكوا الاختيار ! » .. فهتفت فى دهشة : « غرمائى ؟ » .

وكان جواب الملك : « أجل .. وفى مقدمتهم ليوتبراند ! »

* * *

وعندما عدت الى جناحى ، كان القدر قد أعد لى مفاجأة قاسية . **فقد وجدت « ليوتبراند » فى مخدعى ، مع « بيرجيتا » !** .. ولقد قرأت عن نوبات الجنون الاعمى ، التى تطيش بصواب بعض الناس ، ولكنى لم أعرفها الا فى تلك اللحظة . فاذا بى انقض على « ليوتبراند » كالوحش الكاسر . وتراجعت « بيرجيتا » فى جزع . وأشهر غريمى سيفه ، فأشهرت سيفى ، ولكنه لمح نية القتل فى عينى . وكان لئيما ، ماكرا ، سريع الخاطر ، فسرعان ما أبصر مخرجه الاوحد ، واذا به يشد « بيرجيتا » فيجعلها بينى وبينه .. وهجمت عليه ، فأنفذ سيفه — من فوق كتفها — فى ساعدى . ولم يزدنى الدم الساخن الا جنونا ، وانقضضت عليه وأنا أزيح « بيرجيتا » جانبا ، فاذا به يقفز خلفها بخفة . وألقيت سيفى جانبا ، وانتضيت خنجرا ، فحذا الوغد حذوى .. **وارتميت عليهما ، فصرخت « بيرجيتا » فى ذعر جنونى ، وزلت قدمها فسقطت ، واذ ذاك انكشف لى جسد « ليوتبراند » ، فرفعت خنجرى ، وهويت به فى قوة جبارة . ولكنه لم يضيع لمحة واحدة ، فاذا به يرفعها بسرعة خارقة ، فأصابت الطعنة صدرها ، دون أن أملك كبح يدى !**

وهكذا أبقت خسته عليه لبضع سنوات ! .. بينما ارتمت « بيرجيتا » على الارض . والتقت نظراتها بنظراتى — وقد جمدت فى مكانى — وتجلى فى عينيها ذعر الطفل الذى أطلعته المفاجأة على الذنب الذى كان يرتكبه ، ثم فطن الى الاذى الذى أصابه . وبينما كانت الظلمات تدلهم حولها ، بدا فى عينيها انها أدركت مدى حبى لها ! .. أما « ليوتبراند » ، فقد انفلت هاربا . وأسرعت خلفه ، وأنا موقن من أن قبضتى

كفيلتان بأن تقصما ظهره . ولكن القوم خفوا على الجلبة التى ثارت ، فأحاطوا بى ، حتى اذا استطعت الفكاك منهم ، كان الوغد قد اختفى !

واقتادونى الى « شارل » ــ الذى كان قد سمع الضوضاء ــ فرويت له قصتى ، وسألته أن يمكننى من الثأر . وتطلع الى فى اشفاق ، ثم كفل لى أن أنازل «ليوتبراند» فى اليوم التالى ، فظللت طيلة الليل مسهدا ، فى انتظار الصباح .. ولكن غريمى كان قد اختفى تماما ، فلم يعثر له أحد على أثر ! وقلت للملك : « لسوف يظهر يوما ، ولسوف انتظره ، وأبحث عنه ، ولو كبدنى ذلك حياتى ! » . فهز الملك رأسه وقال : « لقد اخترتك رسولا ، ولا بد لك من الرحيل .. ولترجىء ثأرك ! انه لن يظفر بحمايتى يا اريك ، واعدك ــ كملك ــ بأن تظفر بثأرك ، كما أنبئك ــ كأب ــ أن رحلة كتلك التى أنت منطلق فيها ، ستكون خير بلسم لجراح قلبك .. ولسوف يكون ليوتبراند لك ، وهذا وعد أقطعه على نفسى ! »

* * *

كانت تلك الرحلة محنة لى ، وتجربة لمدى استعدادى لخدمة « شارل » . ولم يكن هناك من أدرك أساى ، ورثى لحالى قدر « ألكوين » ، فاذا به يمدنى بكثير من الكتب والمخطوطات القديمة ، وهو يقول : « لست أملك سوى أن أقول أن هناك اشياء اعظم من حب الرجل للمرأة ، فاملأ ذراعيك بالمخطوطات ، ولعلها خير سلوى لك فى أسفارك ! »

وهكذا انطلقت مع « على بن أبى طالب » ورجاله ، لا يرافقنى سوى « ايجبرت » ــ تابعى العملاق ــ وجوادى الضخم الذى خاض معى الحروب . وانحدرنا جنوبا ، وانا اجد قدرا ضئيلا من التسلية فيما راح يحدثنى به « أبو طالب » عن تلك البلاد البعيدة التى كان يصطحبنى اليها ، وعن قيام الدولة العباسية

والظروف التى اكتنفت انشاءها : من عنف ، ومذابح ، وغدر ، وقسوة .. وكأنما خشى أن أحكم على الاسلام على ضوء هذه الصور ، فتحول يحدثنى عن عدل « عمر بن الخطاب » ، وفى صوته رنة الحسرة لما كان هناك من فارق بين هذا الخليفة ، وبين « هارون الرشيد » .. **ولكنه كان يعمد الى الحذر أحيانا ، وما لبثت أن عرفت أن بين أعوانه رجلا بدينا ، متهدل اللحم ، ضيق العينين ، محبا للأكل والمرح ، يدعى « يوسف » كان يسترق السمع ، ويتجسس أمور « ابى طالب » ، لينقلها الى الخليفة .**

ولقد لمست كراهية « يوسف » هذا لابى طالب فى مناسبات كثيرة . ولكنه فى احدى هذه المناسبات ، قادنى الى تجربة غريبة . فقد ذكر لى أن « أبا طالب » كان يتصل بالجن ويستعين بهم ويسخرهم فى خدمته . وأن الخليفة لم يكن يطمئن اليه ، وان كان فى حاجة الى علمه ومكانته كواحد من سلالة النبى ، ومن ثم فانه أوفده رسولا الى بلاط الفرنجة وبلاط (بيزانطة) ، ولكنه أرسل معه من يثق فيه ليراقبه ! .. وغاظنى من « يوسف » هذه الخسة ، فاستدرجته بعيدا عن حديث السياسة ، قائلا : « لو كان رسول الخليفة ماهرا فى السحر حقا ، فليته يجرب سحره معى ، فاننى لا أكاد أنام .. واذا نمت أقضت نومى الاحلام المزعجة » . فصاح يوسف : « سأثبت لك قولى ، وسأغرى السيد بأن يجرب فنونه فى علاجك ! »

وفى ساعة متأخرة ــ من ذلك المساء ــ خلا الى «ابو طالب» فقال : « لقد حدثنى يوسف بأمرك ، وانى لادرك انه يستدرجنى الى ممارسة ما لا يقره الشرع ، لانه يكرهنى .. ولكن السحر أنواع ، وسأعالجك به على مشهد من يوسف ، دون أن يكون له على مأخذ ! » . واستدعى يوسف ، ثم اتشح بعباءة سوداء ، وأمر بالفتاتين الراقصتين ، فانكمشتا فى ركن من المكان ، بينما

وضع امامه نارا ، واجلسنى فى الجانب المقابل منها ، وقال : **((حدق فى النار أيها السيد اريك ، ولا تحول عينيك عنهـا ، واستوعب كلماتى .. هل ترى الاشباح التى تقض مضجعك ؟)) .. وبدأت أرى الاشباح تتحرك بتؤدة فى النار . وأخـذ أبو طالب يتحدث بصوت خفيض ، لم أستبن كلمة منه ، والنـار تذكو رويدا وتتوهج ، ثم .. لم أعد أعى شيئا !**

وعندما فطنت أخيرا الى نفسي ، كنت فى مخدعى ، وقـد جلست بجوار مضجعى ((عائشة)) .. الراقصة التى كنت قد أعجبت بها أثناء مأدبة الملك شـارل .. ودهشت لذلك ، وظننتنى لا أزال واقعا تحت تأثير السـحر . ولكنها لم تكد ترانى أتحرك ، حتى انتفضت من مجلسها ، وانحنت فوقى ، وراحت تتفرس فى وجهى ، وهى تتكلم بالعـربية . ولم يكن بوسعى أن أفهمها ، رغم اننى كنت قد بدأت أتعلم هذه اللغة ، لذلك رحت استعين بكل حيلة ، حتى ادركت انهـا تتـكلم اليونانية أيضا ، وهى لغة كنت أعرفها .. وهكذا أدركت أنها ابنة حاكم احدى القرى الواقعة على حـدود الامبـراطورية الرومانية ، وأن العرب كانوا قد أغاروا على تلك القرية ، فقدر لها أن تكون بين السبايا !

وراحت «عائشة» تسرى عنى ، فروت لى قصة «شهرزاد» . وأدركت اذ ذاك حقيقة سحر ((أبى طالب)) . انه لم يكن فى دق الطبول والدفوف ، ولا فى ذلك النعاس الايحائى الذى أسلمنى اليه ، وانما كان سحره هو تلك الغانية التى أرسـلها الى ، لتفعل بى ما فعلته شـهرزاد بمليكها ، اذ كنت مثله أوشـك أن اقضى عـلى نفسى من أجل امرأة خانتنى ! .. **وأنبأتنى ((عائشة)) بأنها اوفدت الى لتكون طوع أمرى فى كل شيء ، فلو اننى شئت لاسلمتنى نفسها طائعة .. ولكن مفاتن ذكائها وروحها ووجهها جعلتنى انفر من هذا بدلا من أن اندفع اليه . ولاح أن عزوفى قد بعث ارتياحا فى نفسها ، فاذا بهـا**

تقول : ((فى الدنيا ماهو أكثر من الجسد والدم والاكل يامولاى . ان أبا طالب يعرف هذا ، وانا الأخرى اعـرفه ، واعتقد انك تعـــرفه .. اما ((يوسف)) فلا يرقى الى معرفته .. لكم احتقره وازدريه !)) .. وهل كانت تقصد ســـوى الروح والعقل ؟ ! .. والحق انها انعشت روحى وعقلى : فاذا طيف ((بيرجيتا)) — الذى كان يقض هنـــائى — يتلاشى ويغيب ، ليحل محله طيف أسمر ، دافىء ، حبيب .. وجه عائشة !

* * *

وركبنا البحر الى القسطنطينية ، أو بلاد الروم كما يسميها المسلمون . ووقفت مع عائشة عند حافة الســـفينة نرقب مشارف المدينة — حين اقتربنا منها — وانا أكاد ألمس مدى ما كان يخالج الفتاة من حنين ، وهى تقتـرب من بلادها .. ولكنها لم تحاول أن تبدى رغبة فى أن ترى أهلها ، بل قالت لى وانا استدرجها فى هذا الصدد : ((لقد ساورتنى هـــذه الرغبة فى بداية الرحلة ، ولكنها تبـددت . لقـــد ارتضيت الاسلام ، ولست أبغى أن أخرج عليه . ومن ثم فهـذه بلاد أعداء ، لان الامبراطورة ايرين كثيراً ما تبادلت النذر والوعيد مع أمير المؤمنين !))

وكنت قد سمعت عن ((ايرين)) وكيف صارت وصية على العرش بعد زوجها ، فاذا بها تحب النفوذ والحكم ، فلما بلغ ابنها قنسطنطين سن الرشـــد ، وآن له أن يرقى العـرش ، انتهزت فرصة غرامه باحدى حسان البلاط ، ورمته بالفجور ، وحرضت الجيش على الاحتجاج على تصرفات الابن ، ومن ثم وجدت حجة لكى تعتقله فى القصر الامبراطورى . وما لبثت أن اقتلعت عينيه .. ونجحت فى حمل الشعب المنحل المنهار على أن يكرهه ، وان يعجب بوحشيتها !

ولم يرتح ((أبو طالب)) الى الاستقبال الذى اســتقبل به

هو وحاشيته .. فقد اقتدنا الى القصر الامبراطورى خلال طرقات المدينة وليس بيننا من راكب سوى « أبى طالب » وحده . أما الباقون ، فقد ساروا على الاقدام .. وكانت الامبراطورة « ايرين » مضطجعة على عرش كأنه السرير ، حين مثلنا بين يديها .. عجوز ذهب السلطان بأية مسحة من الجمال كانت لديها ، ولمعت عيناها بخبث بارد ! .. وما لبثنا أن اقتدنا الى حجرات فخمة ، لنتسريح قبل أن نحضر مأدبة العشاء مع الامبراطورة .

وفى ساعة متأخرة من الاصيل ، علمت أن « ليوتبراند » كان فى بلاد الروم ! .. وكان « ايجبرت » هو صاحب هذا الكشف العظيم . فقد استأذننى فى أن يصيب قسطا من اللهو فى حانات الميناء . ومع أن « عائشة » أنذرتنى بأن الحى الفينيسى — فى الميناء — ملىء بالاخطار والشرور ، الا اننى لم أكن أخشى على « ايجبرت » — وهو العملاق الجبار الذى عرفته — فأذنت له ! .. ولكنه عاد — قبيل الغروب — وهو منفعل ، ودلف الى غرفتى ، فأمسك بذراعى وهتف : « انه هنا ! علمت بهذا فى حانة « علامة السمك » . ذلك الشيطان الاسود ليوتبراند ! لقد التقيت فى الحانة باثنين من الرقيق الالمان ، قالا اننا ثانى بعثة تصل من بلاد الفرنجة فى هذا الشهر . وقد وصفا لى رجال البعثة الاولى ، فما لبثت أن وجدت وصفا ينطبق على ذلك الشيطان تماما .. **لقد تقدم على أنه رسول من شارل الاكبر ، فلما أقبل « أبو طالب » وأعلن أنك رسول الملك ، تلقى المسئولون النبأ فى شىء من الشك .. من المستحيل أن أخطىء ، فقد وصفاه لى وصفا دقيقا »**

وتسارعت أنفاسى لحظة ، وجرى الدم ساخنا فى عروقى . وأسرعت اتمنطق بسيفى . وأقبلت « عائشة » اذ ذاك ، فرأت الرغبة فى القتل تطل من عينى . وما أن عرفت السبب ، حتى

حاولت أن تردنى الى صوابى ، بيد أننى دفعتها جانبا . وفى اللحظة التى هممت فيها بالانطلاق بحثا عن غريمى ، أقبل « أبو طالب » . وتجهم وجهه اذ علم بالامر ، وقال : « لقد كنت كريما معك يا اريك ، وما احسب الا انك ستسترد كرمى بمثله . لقد جئت الى هنا فى مهمة ، ولا بد لى من أن أؤديها ، مهما تكن الامور .. ان للصيد وقتا ، ولتجفيف الشباك وقتا آخر ! » . ولم أجد بدا من أن انصاع له ، ولكننى ارتبت فى أن أستطيع أن املك مشاعرى ، اذا قدر لى ان ارى « ليوتبراند » .. وقد رأيته أثناء المأدبة ، فى قاعة الحفلات بالقصر الامبراطورى !

كنا جلوسا حول مائدة — على شكل حدوة الفرس — وقد أقبلنا على صنوف الطعام الشهية . وكانت الامبراطورة « ايرين » مضطجعة فى عرش من المرمر المزخرف بالذهب ، لا تكاد تتكلم ، ولا تكاد تأكل ، وانما كانت تتفرس فى الحضور بعينين يقظتين ، ماكرتين ، نفاذتين .. وفجأة ، دوت اصوات طبول وبوق فضى ، واذا بحراس القصر يحفون بضيف جديد لم أكد أراه ، حتى تدافعت الدماء حارة الى رأسى .. **كان « ليوتبراند » بعينه ، فى مظهر مهيب ، وحلة قرمزية ، وحزام ذهبى ، ووشاح أزرق . وبدت فحته وجرأته وهو يقف رافع الرأس ، وعيناه تطوفان بالحضور فى سرعة خاطفة ، ثم تستقران على .. ولا بد أنه كان قد سمع بمقدمى ، وأدرك اننى لن أعفيه من الثأر ، اذ لمحت قراب خنجره مثبتاً الى وسطه !**

وكنت قد ارهقت ذهنى — مذ علمت بوجوده فى بلاد الروم — بحثا عن علة تبرر وجوده هنا ، دون أن أهتدى الى جواب مقنع ، اللهم الا ان يكون « شارل » قد نفاه الى هذه البلاد ، فأبى أن يكون نكرة ، وخيل اليه أن أمامه فرصة سانحة لكى يستعيد تألقه فى الوسط الذى يقيم فيه . فزعم أنه مبعوث ملك الفرنجة .. وما كانت مثل هذه الجرأة مستغربة منه ! على

ان الذى كان يهمنى من الامر ، هو ان غريمى بات فى متناول يدى !

* * *

وارتفع صوت يعلن للامبراطورة مقدم « سفير ملك الفرنجة، كونت فرنكونيا ، وسيد شمالى الراين » . فهمست فى اذن أبى طالب : « لقد نصب نفسه « كونت » على منطقة لم يضمها شارل بعد ، و « دوق » على منطقة لا تزال تحت اغارات الدانيمركيين ! » . واذا « على بن أبى طالب » يهب واقفا ، ويعلن الى الامبراطورة ــ فى لباقة ديبلوماسية ــ زيف ما كان « ليوتبراند » يدعيه ، مؤكدا اننى المبعوث الاوحد للملك شارل .. واومضت عينا ليوتبراند فى ازدراء ، بينما ساد الصمت القاعة .. على اننى أدركت من نظرة الامبراطورة ، أن الشقى كان قد وطد مكانته لديها . اذ لم تلبث أن قالت : « **يسر امبراطورة الروم أن ترحب بسفير شارل الاكبر ، وتنظر بعدم الرضى الى الحيلة التافهة التى صدرت من مبعوث جارها غير الصديق ، خليفة المسلمين ، وترجو ان تبرح البعثة التى تضم المبعوث الفرنجى المزعوم أراضيها فى أقرب فرصة !** »

وتلفت حولى فاذا « يوسف » يرقب الموقف فى خبث ، واذا « أبو طالب » مسمر فى مكانه .. ووجدتنى انهض فأقول، وأنا أدرك أن كلماتى كانت تترجم الى الامبراطورة : « اننى أحتج على قرار امبراطورة الروم ، فان شارل الاكبر يشهد بأننى وأصدقائى لم نعمد الى زيف أو خداع .. انما المخادع حقا هو هذا الفارس الذى غدر بى ، وغدر بزوجتى ، والذى التمس ان يؤذن لى بتصفية حسابى معه فورا ، بحد السلاح! » . وثار لغط فى القاعة . ونهض الشقى ــ وهو هادىء الاعصاب ــ فقال مبتسما : « ان السيد يناقض نفسه بنفسه . انه يستشهد بشارل الاكبر ، ثم لا ينتظر رفع الامر اليه ، بل يهددني

بالنزال فورا » . فابتسمت الامبراطورة قائلة : « **لا عليك ، فان بوسعى أن أميز بين الصدق والخداع . واذا كان وفد الخليفة قد فرع من تناول الطعام ، فليتفضل بالانسحاب ! »**

ولم أتمالك نفسى ، فاذا بى أقفز من مكانى ، وأهرع منقضا على « ليوتبراند » . ولمحته ينتضى خنجره فأمسكت بمعصمه ، ورحت أهوى بخنجرى حتى غاص فى لحمه . ولكنه لم يصب سوى كتفه . وفى تلك الاثناء ، هرع الحراس من كل جانب ، فلم أجد من الحكمة البقاء ، اذا أردت أن أستكمل ثأرى فيما بعد . ولم أدخر حيلة ولا جهدا فى شق طريق لنفسى الى الخارج ، ثم رحت اضرب على غير هدى ، حتى وجدتنى اخيرا فى منطقة الميناء . وتذكرت ما قالته « عائشة » عن الحى الفينيسى ـ من أنه موطن أوكار المجرمين والخارجين على القانون ـ فلم أجد خيرا منه ملاذا . وكان « ايجبرت » قد ذكر لى أن فى حانة « علامة السمك » قبوا تحت الارض ، للراغبين فى التستر ـ من روادها ـ فرحت أبحث عنها حتى اهتديت اليها .. وكان الجو خانقا ، والضوء ضعيفا ، ورائحة الخمر الرخيصة تزهق الانفاس ، والسكارى من حثالة القوم ـ من كل جنس تجنح سفنه الى شاطىء الروم ـ لا يبعثون فى النفس ارتياحا ولا طمأنينة .. على أننى لم أكن املك سوى أن أجلس فى مكانى ، وقد شددت اطراف عباءتى السوداء حول جسمى ـ لتخفى ثيابى الرسمية الفخمة ـ وجذبت طرفا منها حول صدغى ، ليحجب وجهى ما أمكن .. ورحت أفكر فى عواقب ما جرى ، وفيما ينبغى أن أفعل

ولم أفطن الى مرور الوقت ، ولكننى لم ألبث أن انتبهت الى أن عين صاحب الحانة اليونانى الاعور ، كانت ترقبنى فى حذر . وارتبكت ، واشتدت حيرتى . وأخذت أفكر فى مخرج . **وكأنما أشفقت السماء على أخيرا ، فاذا باب القبو يفتح ، ليبرز منه « ايجبرت » ! .. وابتسم اذ رآنى ، فجلس الى**

جوارى ، ثم همس : ((**أحمد الله يا مولاى على ما أوتيت من ذكاء حاد .. لقد حدست أنك ربما لجأت الى هذا المكان ، اذ اننى كنت قد ذكرته لك !**)) .. وسألته فى لهفة عن ((ابى طالب)) واتباعه ، فذكر لى أن أحدا لم يتعرض لهم بسوء ، وان السفير العربى قد أصبح فى موقف حرج من جراء عملى ، ولكن هذ لم يمنعه من أن يرسله للبحث عني ، وأن يزوده برسالة لى .. وكانت الرسالة بلغة لاتينية تنقصها الدقة ، وقد جاء فيها : ((استأجر قاربا عبر البسفور ، الى (اسكودار) ، فهى محط للقوافل . واعمل على أن ترافق احدى القوافل الذاهبة الى (الموصل) . وهناك انتظرنى . وان كنت قد سبقتك ، فاذهب الى بغداد . لست أحمل أى استياء نحوك ، بل أننى أقدرك كرجل !))

وعلمت من ((ايجبرت)) ان السفير النبيل قد زوده بكيس من النقود ، للانفاق على الرحلة

* * *

وهكذا وجدتنى بعد أيام ، أنضم ــ مع ايجبرت ــ الى قافلة رجل رومى ، فى طريقنا الى (الموصل) ، وقد ارتدينا زى البدو ! .. ورحنا نجتاز أرضا قليلة الماء والزرع ، حتى اذا بلغنا منطقة من الصحراء تكاثرت فيها التلال ، بدا صاحب القافلة قلقا متخوفا ، اذ كانت هذه المنطقة موبوءة بالمغيرين البدو من أتباع ((زيد المحارب)) ، الذين لا سبيل الى صدهم .. وظننتهم فى بادىء الامر جماعة من قاطعى الطرق ، ولكن الرومى قال : ((**ان زيدا من أبناء عمومة البرامكة ، الذين هم أقوى وزراء هارون الرشيد وأقربهم الى نفسه . ولكنه ــ هو بالذات ــ من ألد أعداء العباسيين ، ولا ينى يعمل على تأليب الناس عليهم !**))

وحاولت أن أطامن خوف الرجل ، ولكننا لم نمض طويلا ،

حتى لمحنا غمامة من غبار ، يتخللها وميض سيوف .. وأصبح لون وجه الرومى أخضر ، وهتف : « ها قد حل بى الخراب ! .. انها المرة الثالثة التى يغيرون فيها على قوافلى ! » . وترك الابل بما كانت تحمل ، وولى مع رجاله الادبار . ولم أجد فرصة للتفكير ، فاندفعت الى الامام ، ولحق بى « ايجبرت » واقترح أن نترجل عن دابتينا ، ففعلت .. ولكنا كنا وحيدين ، أمام مغيرين لم نكن ندرى عددهم ، ولا عدتهم ، ولا أساليبهم .. وقبل أن نصل الى رأى كان فرسان البادية قد انطلقوا وراء الهاربين .. وسمعنا قعقعة السلاح ، وصرخات الذعر والجزع . ولكن بعض الفرسان اندفعوا نحونا ، وفى أيديهم سيوف هلالية الشكل ، وعلى وجوههم سمات الجرأة ، والاستبسال ، وقد توجت رؤوسهم العمائم ، وملأت الريح أردان عباءاتهم .. واستطعت أن أصيب أول رجل منهم ، كما أن « ايجبرت » اوقع رجلا آخر . ثم لم أعد أميز شيئا ، فقد رحت أضرب ذات اليمين وذات الشمال .. وما لبثت أن ذكرت خدعة تغلبت بها مرة فى احدى غابات ألمانيا ، فأطلقت صرخة وددت أن يكون « ايجبرت » قد سمعها وفهمها ، ووضعت يدى على صدرى ، وتراجعت مترنحا ، وكأننى أصبت ، ثم ارتميت على الارض .. وسمعت صرخات آمرة ، ثم هدأت حدة المعركة حولى . ومن خلال اجفانى المطبقة لمحت فارسا طويلا ، مهيبا ، يصدر أوامر باللغة العربية ، فسرعان ما تراجع الرجال من حولى .. ووقف ذلك الفارس — الذى كان مسنا ، مجعد الوجه — يرقبنى فترة ، ثم اقترب منى ، وكنت أبذل مجهودا جبارا للسيطرة على أعصابى ، لابدو ميتا . وراح يتفرس فى — من كل جانب — ثم فعل الشىء الذى كنت أنتظره فى أمل . فقد ازداد دنوا منى ، وانحنى فوقى ، وبسرعة خاطفة جذبت ذراعه وانا أقفز على قدمى ، فاذا به فى مكانى على الارض . وناضل بقوة عجيبة ، ولكنه

لم يلبث أن كف عن المقاومة عندما أحس بسن خنجرى فوق عنقه . وقلت باليونانية : « لعل فيكم من يتحدث بلغة الروم ! » . وكم كان ارتياحى حين انبرى من القوم رجل يجيدها ، فقلت له : « اننى أساومكم .. حياتى وحياة تابعى وحريتنا ، فى مقابل حياة هذا الفارس ! » .. ونقل الرجل كلامى الى أسيرى ، ودار بينهما نقاش قصير ، قال بعده : « لك ما طلبت ، فخل الآن سبيل زيد المحارب ! »

ونهض الرجل المسن وأنا أرقبه وأرقب أتباعه فى حذر ، خشية الغدر . ولكنه وقف برهة يتأملنى فى وقار ، ثم التفت الى المترجم ، فقال له شيئا ، لم يلبث أن نقله الى : « ان زيدا يقول ان حريتكما لن تجديكما فى هذه الصحراء ، لانكما ستموتان جوعا وعطشا . لذلك فانه يستضيفكما فى معسكره ريثما تبرأ جراحكما ، ثم يزودكما بالقوت والماء ، لتواصلا الرحيل ! .. انه يقول انكما شجاعان ، اذ واجهتما الموت ولم تفرا كأولئك الكلاب ، فأنتما جديران بصداقته ! »

وهكذا نزلت و « ايجبرت » ضيفين على معسكر زيد المحارب ، حيث نعمنا بحفاوة وأمان وحرية لم نكن نتوقعها .. وفى ذات يوم ، قدر لى أن أنقذ الابنة الوحيدة لزيد ، من موت ظن أهلها أنه واقع بها لا محالة ، فاذا المعسكر بأسره يضج بالفرح ، بعد أن كان الحزن يخيم عليه ، وقربنى هذا العمل من زيد ، الذى أصر على أن أطيل مقامى فى ضيافته . وبينما كنت أنتهز الفرصة لالتقط من اللغة العربية أكبر محصول



ممكن، عز على أن أرى هؤلاء البواسل يحاربون ارتجالا ، فرحت أعلمهم كيف يوحدون جهودهم فى اغاراتهم . ورحت أعلم زعيمهم « زيد » كيف يرسم الخطط مقدما . وكنت أستعمل عصا أرسم بها على الرمال كيف يوجه رجاله بحيث تكون حركاتهم متناسقة يكمل بعضها بعضا !

وفى ذات أصيل ، أقبل أحد جواسيس زيد ينبئه بأن قافلة تابعة للخليفة ، كانت تقترب من المنطقة .. وادركت من الاوصاف انها قافلة « أبى طالب » ، فاذا قلبى يخفق ، ورأسى يدور . ورأيت من الخير أن أرافق الحملة ، عسى أن أستطيع انقاذ « أبى طالب » و « عائشة » . وسرعان ما أشرفت الحملة على معسكر كانت فى جانب منه خيمة تحمل لواء ، وأيقنت أن « أبا طالب » و « عائشة » فى هذه الخيمة ، وعولت على أن أدفع عنهما رجال زيد .. ولو بالقوة ، اذا دعت الضرورة ! ودارت معركة بين الفريقين ، أصبت خلالها بجرح غائر . وخشيت أن تفارقنى قواى دون أن أكون قد أنقذت أبا طالب وعائشة ، فتسللت الى الخيمة . **وشد ما كانت المفاجأة ، حين وجدت أن الذى بداخله لم يكن سوى .. « ليونبراند » ! ولمعت عيناه حقدا وذعرا . وبالرغم من الوهن الذى أصابنى بسبب جرحى ، فقد رأيت أن فرصتى للثأر قد حانت . ورفعت سيفى عاليا .. وفى اللحظة التالية ، وجدتنى محمولا بين ذراعى عملاق جبار ، هو « ايجبرت » . اذ خسر رجال زيد المعركة ، وجدوا فى الانسحاب !**

وفى تلك الليلة ، رحت أعلم رجال زيد كيف يقسمون قواتهم عند المعركة الى فرسان ومشاة ، وكيف يهجمون بفريق ، بينما يزحف فريقان فى صمت ــ ذات اليمين وذات الشمال ــ فيطوقان العدو ، ويغيران من وراء ظهره .. وفى الفجر ، عاد رجال زيد الى الاغارة على ذلك المعسكر ، متبعين الخطة التى شرحتها لهم ، فاذا غرماؤهم يولون الادبار أمامهم . ورفع هذا

النجاح مكانتى لدى زيد . ولكن « ليوتبراند » لاذ بالفرار ! ورحت ــ فى الايام التالية ــ أعانى القلق ، اذ طال مكثى بعيدا عن غايتى . ولكننى ظللت أتجلد وأصابر ، الى أن علمت رجال زيد فنون الحرب الفرنجية ، ودربتهم عليها . وعندما خلوت الى « زيد » ذات مساء ، قلت له : « يا أخى زيد ، لقد آن لى أن أغادركم ، لان احداثا تنتظرنى فى بغداد ! » . فهز رأسه بحزن ، وقال : « كنت أعلم أنك لابد راحل يوما . ولكن المدينة المستديرة (بغداد) ، ليست بالمكان الذى آمن فيه على صديق ! » . ومضى يروى لى كيف أن المدينة بنيت على الدماء ، وكيف أن العباسيين كانوا يقيمون حكمهم على الظلم والطغيان . واستطرد قائلا : « **ان هارون واسلافه قد أساءوا الى رسالة النبى عليه السلام . انهم لم يحبوا العرب يوما ، لانهم كانوا ينشدون دائما المنافقين ولاعقى النعال ، وقد وجدوا بغيتهم فى فارس وخراسان !** »

وتطوع « زيد » بأن يوفد معى رجلا كان بمثابة الذراع اليمنى له ، وكان يدعى « المحافظ » ، أى الحارس الذى يصون الامانة . وهكذا لم ألبث أن انطلقت و « ايجبرت » مع المحافظ ، ورفيقين مسلحين ، فى قافلة تألفت من أربعة جمال وسبعة حمير محملة ببضائع أمدنا بها « زيد » بسخاء !

* * *

ومع أننى كنت قد ألممت باللغة العربية ــ قراءة وكتابة ــ خلال مقامى الطويل مع « زيد » ورجاله ، الا أن لكنتى وعدم اتقانى اللغة اتقانا كاملا ، حملانى على أن أزعم اننى كنت يونانيا أقام فى (دمشق) طويلا .. وراح « المحافظ » خلال الطريق يروى لى من القصص ما يزيدنى فهما بالامة التى كنت مقبلا على الاقامة فى عاصمتها . على أن أكثر ما أهمنى من قصصه ، هى تلك التى كانت تبين النفوذ الذى اكتسبته النساء لدى

بعض الخلفاء العباسيين ، ولدى « هارون الرشيد » بالذات .. وتلك التى كانت تبين الجبروت والطغيان ، مما اكسب أول خلفاء العباسيين لقب « السفاح » . ومن الطريف حقا أن هذا الرجل الذى مد سماطه يوما على جثث أعدائه ، لم يتزوج سوى امرأة واحدة ، هى « أم سلمة » ، ولم يكن زئر نساء كبعض من خلفوه ! .. **على أن العباسيين لم يكونوا جميعا على شاكلة « السفاح » فى الجبروت ، ولا على شاكلة « الرشيد » فى البذخ والظلم .. فكان « المنصور » - ثانى الخلفاء العباسيين - حاكما عادلا ، واداريا كفءا ، وكان عهده من أسعد العهود للمسلمين . وهو الذى أنشأ (بغداد) .** ولعل أعظم خطأ ارتكبه ، هو أنه رفع البرامكة الى السلطان .. وكان «زيد» وأعوانه يتهمون البرامكة بكل المساوىء التى حلت بالدولة الاسلامية ، وبكل الفساد الذى انزلق اليه الخلفاء .. رغم انهم كانوا أبناء عمومة « زيد » !

واذ بتنا على مسيرة يومين من (بغداد) ، التقينا بمسافر قادم منها ، فعلمنا منه أن رسولا من الفرنجة قد حل بالمدينة ، وأن الخليفة استقبله فى بلاطه .

وبعد يومين ، بدت لنا مآذن بغداد وقبابها وأبراجها ، التى كانت تلمع تحت أشعة الشمس وكأنها صنعت من ذهب أو نحاس أصفر .. ورأيت « المحافظ » يقف يتأملها فى خشوع واكبار ، رغم كراهيته للعباسيين ، ثم هتف : « هذه هى مركز الاسلام يا نصرانى ، ولا تدانيها فى عظمتها مدينة فى الدنيا ! » . ومضى يروى لى كيف اختار « المنصور » موقعها على ضفة النهر ، وكيف أقام جدرانها حجرا حجرا ، وكيف عمرها بالناس ، ليقترب بعاصمة الملك شرقا ، نحو الاقوام الذين كان العباسيون أكثر ركونا اليهم منهم الى العرب . وقال : « لو أن العباسيين الملاعين قنعوا بهذا ، لكانت بغداد خير شاهد بعظمتهم . ولكنهم أفسدوا سمعتهم اذ اقتبسوا عن الفرس عاداتهم

وتقاليدهم ونظمهم ! .. وكان الفرس من أعوانهم هم الذين شجعوهم على الفساد ، لانهم حذقوا الرياء ولعق النعال فى سبيل كسب المال والنفوذ ! » . وتحول يلقى ألوانا من اللوم على البرامكة ، **فشجعنى هذا على أن ألقى السؤال الذى طالما أحرج صدرى : « ولكن زيدا من البرامكة ؟ ! » . فقال : « هو ذلك ، ولكن المستوزرين منهم من فرع فارسى ، فى حين أن زيدا ينتمى الى فرع تجرى فى عروقه الدماء اليمنية . فهو عربى أصيل ! »**

وكان العمران يدب فى الاراضى الممتدة خارج أسوار (بغداد) ، والباعة يعترضون القوافل مروجين لسلعهم . وكانت أسوار المدينة ثلاثة ، بعضها داخل بعض ، ولكن الاسوار الوسطى هى أعلاها وأضخمها . وكان لا بد للمرء من أن يجتاز معبرة فوق مجرى من الماء كان يفصل بين الاسوار الخارجية والاسوارالوسطى . وافضت بنا المعبرة الى « بوابة الشام » ، بعد أن استوقفنا الجند ، وسألونا عن أسباب مجيئنا ، فقال « المحافظ » اننى تاجر يونانى من سوريا ، وقد جئت ببضائع ، وجاء هو فى ركابى .. وفحص الجند ما حملت دواب قافلتنا ، كما أطالوا تأملنا فى حذر ، حتى اذا لم يجدوا ما يثير شكوكهم ، تركونا نجتاز المعبرة . وقال المحافظ : « لقد اجتزنا أسوأ عقبة ، فان حراس الاسوار الداخلية ، يعتمدون على حراس الاسوار الخارجية ، فان الخليفة يقطع رقبة رئيس هؤلاء ، اذا قدر له أن يكتشف جاسوسا داخل المدينة ، وهذا هو السر فى اهتمامهم بفحص كل قادم ! » . ومن الاسوار الوسطى اجتزنا نفقا طويلا الى الاسوار الداخلية التى كانت أشبه باستحكامات دفاعية ، وكانت تمتد متعرجة ، تتخللها أبراج مسلحة . ثم ترجلنا عن دوابنا ، وقال المحافظ : « لقد حرم الخليفة المنصور على أى امرىء — سوى أمير المؤمنين — أن يدخل المدينة راكبا ! »

وأخيرا ، أصبحنا فى (بغداد) .. المدينة المستديرة ، التى طال حلمى بها ، والتى كنت مشوقا الى بلوغها ، لا لكى أؤدى مهمتى فحسب ، بل أملا فى أن أرى « عائشة » .. لقد كانت هى الأخرى غريبة عن المدينة ، ولكنها أحبتها واتخذتهاوطنا !

.. وكان أول ما انطبع فى ذهنى هو ازدحام المدينة ، وامتلاء جوها بالجلبة والضوضاء . ومع أن المظاهر كانت تنم عن وجود فقر فى جميع الاحياء ، الا اننى شعرت بأن الثروة كانت موزعة بين الناس توزيعا أكثر عدالة مما عهدت فى بلاد الفرنجة .. وكانت المدينة ــ الى جانب ذلك ــ مرحة ، فأينما وليت وجهك طالعتك البشاشة والابتسام .

وما أن استقر بنا المقام فى الخان الذى اختاره لنا المحافظ ، حتى هتف ايجبرت : « مولاى ، أن الظمأ قد أحرق حلقى . لطول مقامى فى الصحراء . وما لم تســـمح لى بأن انطلق فى المدينة على هواى ، فسأموت عطشا ! » . ولم أكد أنبئه بأن الاسلام يحرم الخمر حتى اكفهر وجهه ، وبدا عليه من الاسى ما جعلنى أشفق عليه ، فأستشير المحافظ .. وشد ما كانت دهشتى حين قال : **« هناك حانات فى الطرقات الخلفيــة فى المدينة ، فمن المستحيل أن تفرض الاخلاق على البشر فرضا .. فضلا عن أن الخليفة وحاشيته يخرقون تعاليم الاسلام بهذا الصدد ، فيضربون المثل المرعية ! »**

وكانت أولى خطواتى فى المدينة ، تنحصر فى تنسم أخبار « أبى طالب » . وقد ذكر لى المحافظ أن المقاهى هى خير مورد للأخبار . وحول أقداح القهوة ، رحنا نسأل عن بغيتنا فى حذر ، حتى قدر لنا أن نلتقى بتاجر للسجاد اسمه « أبو الحسن » ، أشار الينا ــ حين أدرك غايتنا ــ بأن نتبعه الى حانوته الذى كان غاصا بمختلف أنواع السجاد ، من كافة أرجاء الدولة الاسلامية . وبينما كان التاجر يتظاهر بعرض سجاده علينا ، راح يقول: « ان المرء لا يأمن جواسيس الخليفة .. أن أبا طالب

من خير عملائى .. وهو يقيم فى بيت فخم عتيق .. على مقربة من السور الشرقى ، حيث لا يقيم الاغنياء عادة . وانما يقيم هو وفاء منه لبيت الاسرة ، الذى عمره أهله منذ أيام المنصور !»

وفى خان فى منطقة السور الشرقى ، رحنا نتنسم الاخبار فى مزيد من الحذر . فقد كان « هارون الرشيد » وأعوانه البرامكة ، يقيمون حكمهم على التجسس ، والتآمر .. لا خوفا من الاعداء الخارجيين فحسب ، بل انهم كانوا يخشون سخط الرعية كذلك ، بعد أن استفحل الفساد . لذلك رحنا نسأل عن غايتنا فى احتراس بالغ ، فسرعان ما اكتشفت أن « أبا طالب » كان محبوبا فى الحى كله . فقد أكبر فيه أهل الحى تشبثه بالاقامة بينهم رغم ارتفاع مكانته الى الدرجة التى لم يعد يليق به عندها الاقامة فى حى فقير متواضع . كما أنه كان يحدب على المساكين ، ويساعد المعوزين ، ويفتح داره للجميع . وتمتم المحافظ ونحن ننطلق فى الاتجاه الذى ارشدنا اليه بعض من سألناهم : « انه رجل عاقل ، لم يطمئن الى رضى الخليفة ، فأقام لنفسه من ولاء هؤلاء الناس حصنا منيعا ! »

* * *

وتلقانى « أبو طالب » فى شوق ولهفة ، هاتفا : « اذن فأنت لم تقتل كما سمعت من الرومى صاحب القافلة ؟ ! » . وبعد أن عرفته بالمحافظ ، روى لى رحلته من بلاد الروم ، كما روى لى كيف رحل « ليوتبراند » مستعينا بامبراطورة الروم ، مستبيحا التظاهر بأن قافلته تابعة للخليفة . ومضى بعد ذلك يجوس بى فى أرجاء القسم الخاص بالرجال من داره . وكم هالنى أن رأيت مكتبته التى كانت حافلة بالمخطوطات والرقائق . كما أعجبت بحجرتين امتلأتا بالزجاجات والقنينات والبواتق والمواد الغريبة ، وقد وصفهما بأنهما المكان الذى كان يجرى فيه التجارب لتحليل المواد وتحويلها .. وهى عمليات قال انها

قوام علم « الكيمياء » !

واذ لاحظ « أبو طالب » أن ذهنى كان يشرد أحيانا ، وانني كنت أغالب سؤالا حاول أن ينطق على لسانى ، قال : **« ان التى تريد أن تسأل عنها ليست هنا .. لقد أخذها الخليفة ، بعد أن حدثه عنها « يوسف » خلال تقريره عن مسالكى وتصرفاتى وولائى ! »** . وغاص قلبى بين جنبى ، فقال : « لا تبتئس ! ان لدى الخليفة آلاف الجوارى ، وأن طاقته كانسان لمحدودة ، ومن ثم فان معظم الجوارى يعشن فى القصر دون أن يرينه ، ودون أن يتذكرهن هو ! » . وعندما لمس مدى وجدى ، وعدنى بأن يبذل قصارى جهده لكى يجمع بينى وبينها . ثم استدرك قائلا : « .. ولو اننى لم أعد ذا حظوة تذكر لدى الخليفة على ما أعتقد . وأظن أن « يوسف » قد لعب دورا فى ذلك ، فضلا عن أن المبعوث المزعوم من قبل ملك الفرنجة قد سبقك بفترة ليست قصيرة ، وأخشى انك لن تجد الطريق ممهدة أمامك » . وكأنما لمح ما جاش فى أعماقى لدى ذكر ليوتبراند ، فقال : **« انك لن تتغلب عليه بالتهور ، فاسمع ما اعتزمت .. سأصطحبك للمثول بين يدى الخليفة ، فلعل هذا يكشف زيف غريمك ، كما أنه يتيح لى فرصة تعرف ما نفثه يوسف فى ذهن الخليفة ضدى ! »**

واستضافنا « أبو طالب » فى تلك الليلة . وقبل أن آوى الى مضجعى ، دفع الى برسالة وصلت اليه من « ألكوين » ليسلمنيها . وقد ذكر فيها صديقى القس العالم أن «شارل» حين علم بفرار « ليوتبراند » أعلن أنه خارج على القانون . واستطرد قائلا : « وانى لاشعر بأنه ذهب الى الشرق ، أملا فى أن يقابلك هناك ، ويعود بقصص زائفة يتقرب بها الى شارل ، ويحط من قدرك . بل اننى لاحدس انه قد يزعم أنه رسول شارل ، ليسبب لك المتاعب فحذ حذرك ، وتذكر كلمات أفلاطون : ما أحلاها وأعظمها من نعمة ، أن يكون المرء

فيلسوفا .. فاستعمل حكمتك ! »

* * *

وفى ساعة مبكرة من الصباح التالى ، انطلقت مع «أبى طالب» الى قصر أمير المؤمنين .. وكان قصرا هائلا ، ذا ردهات ضيقة ، وابهاء وساحات فسيحة تطل عليها نوافذ الحجرات ، فلا ترى فى الجدران الخارجية أية ثغرة ، اللهم الا شرفات للزينة ، لا تصل بينها وبين الداخل أبواب ما .

واستقبلنا الحجاب ورجال القصر بفتور أوحى بأن أبا طالب كان محقا فى تخوفه من أن يكون « يوسف » قد صرف ثقة الخليفة عنه . فظللنا طويلا ننتظر الاذن لنا بالمثول بين يدى « هارون الرشيد » . حتى اذا اذن أخيرا ، قال أبو طالب : « أنحن أمامه ، ولا ترفع رأسك حتى يأذن لك ! » . ولكنى احتفظت برأسى عاليا عندما انتهينا ــ خلال الردهات الضخمة المتشابكة ــ الى قاعة العرش . وتقدمت وقد ثبت نظرى فى نظر الرجل المعمم الذى كان يجلس على منصة فى آخر القاعة ، بين غمغمة القوم ودهشتهم .. **ومهما يكن هارون الرشيد وحكمه ، فانه كان انسانا ، له ما لكل انسان من مواطن قوة ومواطن ضعف ، ومن محاسن ومثالب ، ومن عظمة وانحطاط !** .. وكان يحيط بالعرش مائتا شخص انتشروا على شكل مروحة . وعلى درجات العرش جلس ثلاثة كثيرا ما سمعت عنهم ، هم : يحيى البرمكى ، الوزير الشيخ المسن ، وأبناه : الفضل ــ الذى عرف بحبه للدرس وبرزانة مظهره ــ وجعفر الذى كان أقرب البرامكة الى قلب هارون ، والذى كان زميلا له فى جولاته بعد منتصف الليل ، حين كان ينطلق متنكرا ينشد العبث والمغامرات . ولقد أطلت النظر اليه لانه كان قائد الجيش الذى أغار على أهل « عائشة » وانتزعها منهم .

ولاح لى أن « الرشيد » كان فى الاربعين من عمره ، وكانت

تتخلل جبينه أخاديد غائرة ، وكأنه اعتاد أن يكثر من العبوس . أما يداه ، فكانتا ترزحان تحت ثقل الخواتم والاحجار الكريمة ، بينما توسطت عمامته ــ فوق الجبين ــ ياقوتة كبيرة فى لون الدم ! .. ذلك كان أمير المؤمنين ، وخليفة النبى محمــــد ، والحاكم الذى امتد سلطانه من جبال البيرانيس ــ غــربا ــ خلال الصحراء ، وعلى طول سواحل البحر الابيض المتوسط ، ثم عبر الهلال الخصيب ، الى حدود بلاد الهند .

وقال هارون بعد صمت رهيب : « الســـلام عليك يا أبا طالب ، وعلى صديقك الذى لا يعرف عاداتنا ! » . فبادر أبو طالب معتذرا عن مسلكى ، مؤكدا أنه نبهنى الى التقاليد المتبعة فى المثول بين يدى أمير المؤمنين . وما لبث الخليفة أن قال فى جفاء : « **انه لامر طريف حقــا ، ان تزعم انه مبعــوث ملك الفرنجة !** »

فقال أبو طالب ، وهو يزن كلماته : « لست أزعم يامولاى ، وانما أقرر حقيقة .. فان الذى تقدم اليكم من قبل مخادع ، وقد عين الملك شارل هذا المبعوث أمامى » . وســـاد المكان صمت وقلق ، تسارعت خلاله دقات قلبى ، وأنا أرقب امارات الشك والتوجس على محيا الخليفــة . ولاحظت أن هـــذه الامارات قد انعكست على أسارير وحركات الحضور ، اللهم الا شخصين .. **رجل أحدب ، ضخم الانف ، دميم الطلعة .. وامرأة شابة ، قلة فى الجسم ، كانت تقف الى جوار الخليفة ، وكان لها وجه فتى أمرد !** . وقال الرشيد أخيرا : « اننى لم أعتد التسرع فى اتخاذ قراراتى . وبما أن النبيـــل ليوتبراند ــ كونت فرانكونيا ــ غير موجود ، فليس فى الامكان ان أواجه كلا من المبعوثين بالآخر . ولعمرى ، انه ليكون موقفا طريفا ، لا عهد لى بمثله من قبل ! .. ثم اننى لا أود أن أهين شارل الاكبر ، وأوثر أن أتروى فى الامر . فاحضر هذا الرجل ــ يا أبا طالب ــ الى مائدتى عند العشاء ، لنرى ما نكون ! »

ولقد علمت من أبى طالب ـ بعد ذلك ـ أن الاحدب الدميم كان يدعى ((عمر بن مهران)) ، وكان المؤتمن على شئون أم هارون الرشيد فى حياتها . أما الفتاة الشبيهة بالفتى الامرد ، فلم تكن سوى ((العباسة)) أخت الرشيد والاثيرة بحبه ، حتى ليقال أن علاقاتهما تجاوزت حدود الاخـوة ، مما أثار الاقاويل والشائعات . فما كان من الرشيد الا ان أمر جعفر ـ وهو الاثير بحبه من الرجال ـ بأن يتزوجها ، على أن لا يستغل شيئا من الحقوق التى يبيحها الزواج له . ولكن هذا لم يزد الشائعات الا استفحالا ، لا سيما حين تبدى ان العباسة وجعفر كانا يتبادلان الحب ، وان الرشيد بما اشترطه قد فرض عليهما غبنا جائرا .

وقال أبو طالب ، عندما ذكرت له أن عمر والعباسة هما الوحيدان اللذان لم يبديا شكا وارتيابا نحوى : ((هذا معقول ، لانهما يبديان لى ودا صادقا ، وقد كنت معهما على خير علاقة منذ سنين عديدة . فضلا عن اننى سمعت أنهما لم يميلا الى ليوتبراند))

* * *

وعدنا بعد الغروب بساعة ، الى القصر الذى كان يعلوه تمثال من النحاس الاصفر ، لمقاتل من رماة الرماح . وتركنا ننتظر فترة ، ثم اقتدنا الى قاعة العرش ، فدخلها أبو طالب منحنيا ، بينما تقدمت أنا رافع الرأس ، كما فعلت فى الصباح . فقال الخليفة : ((أرى أن تعاليمك لم تثمر مع النصرانى يا ابا طالب !)) . فأسرعت قائلا بلسان عربى ، بقدر ما وسعنى : ((لا أيها العاهل ، وانما درجنا فى بلاط الفرنجة على أن لانطالب المبعوثين باتباع تقاليد سوى تلك المتبعة فى قصور ملوكهم . وقد شعرت أنكم اردتم تكريم شارل الاكبر بالسماح لى باتباع تقاليد بلاطه !)) . فاكفهر محيا الخليفة ، ثم اومضت عيناه فى

ذكاء واستحسان ، وقال : **((أحسنت القـول ، وانه لتأنيب استحقه .. أن المبعوث الآخر لم يبد اعتـداداً بالرأى مثلك ، بل انصاع لكل ما أملى عليه !))** . وأشـــار بيـده ، ففطنت – للمرة الاولى – الى وجود ((ليوتبراند)) ، فى ثياب فخمـة أزرت بملبسى . وكان يبتسم لملاحظة الخليفة ، وان اومضت عيناه بالحقد .. وتذكرت نصيحة ((ألكوين)) فى رســالته ، فتشبثت بأهداب الحكمة والفلسفة ، لاقاوم الهياج الجنـونى الذى حاول أن يتملكنى .. وغاص قلبى وأنا أتطلع الى وجوه المحيطين بالخليفة ، الذى ما لبث أن قال : ((أجلس وحدثنـا عن مستنداتك ، وعن العاهل الذى تدعى أنه أوفـدك ، فان الآخر فارس بادى القوة ، وقد أجاد القول حتى اسـتمال قلبى . فاذا استطعت أن تتفوق عليه ، فلا بد انك من الجن ولست بشرا !)) . وضحك ، ثم أشار الى ليـوتبراند قائلا : ((تقدم يا كونت فرانكونيا ، فهذا هو الكونت اريك ، سـيد الساحل النورماندى . أتراكما التقيتما من قبل ؟))

ووقف ليوتبراند أمامى ، ويده على مقبض سـيفه ، فقلت بلسان عربى ، ليفهم الخليفة قولى : ((لماذا جئت الى هنـا أيها المسعور ، يا قاتل النســاء ، ويا مفرق الازواج عن الزوجات ؟ .. لماذا تجىء الى بيوت السلطان بلسانك الاسود ، وقلبك الآثم ؟)) . وانحنى الوغـد فى برود ، وقال : ((لست تحسن سوى تنسيق الكلمات .. ما الذى تجنيـه من وراء زعمك أنك مبعوث شارل الاكبر ؟)) . ثم التفت الى الخليفـة قائلا : **((انه يا مولاى من أدنى رجال الحاشـية ، وتحف به الشبهات والريب !))** . فالتفت الرشيد نحـوى ، يرتقب جوابى . فقلت له : ((لست أقول سوى الحق أيها العاهل ، والحق يتطلب صبرا ، فى بعض الاحيان)) . ومضيت أروى له مغامراتى منذ تلك الليلة المشئومة فى بلاط الملك شـارل ، واقامتى فى معسكر المحارب زيد ، ثم حضورى ، فلم أغفـل

سوى مرافقة « المحافظ » لى . وهم ليوتبراند بأن يقاطعنى مرة ، اذ تبين اهتمام الخليفة ، ولكن هذا أسكته بخشونة . حتى اذا انتهيت ، تحول يسـألنى عن زيد ورجاله ، ولكنى قلت : « ليس بوسعى ايها العاهل أن أجيب ، فما أطلق سراحى الا بعد أن وعدت بأن لا اشى بشىء . ووعد الحر دين ! » . وحاول ليوتبراند أن يستغل هذا لتسفيه روايتى ، ولكنى التفت الى يحيى البرمكى وابنه الفضـل ، وقلت : « ان زيدا من أقاربهما يا مولاى ، فمرهما أن يسـألانى عنه ، فى غير ما يضر به ، تتحقق من صدقى ! »

وفعلا أقرا كل اجاباتى ، فهز الرشيد رأسـه قائلا : « ان اعتذارك عن اجابتى وفاء بوعـدك ، يجعلنى أثق فيك ! » . فبادرت قائلا : « واسمح لى يا مولاى أن أذكرك بأن هنـاك شهودا على صدق قولى بشأن بعثتى اليكم ، وبينهم خادمكم الوفى أبو طالب » . فغاضت الابتسامة من وجه الرشيد ، وأطال الوجوم ، ثم قال : « ان الامر يستحق التفكير » .

وأمر بعد ذلك بمد الموائد ، حتى اذا انتهى العشاء ، دخلت الراقصات ورحن يعرضن ألوانا من فنهن . وكنت طيلة الوقت أبحث بينهن بنظر ملهوف ، ولكنى لم أجد عائشة ! .. على أن الخليفـة لم يلبث أن قال لابى طـالب : « لكى ابين لك أن كل هداياك لم تزدر ، سأدعو الفتاة عائشة ! » .. **وأقبلت عائشة فى جمالها الفتان ، فرقصت كما لم ترقص من قبل . وكنت احاول طيلة الوقت أن أتصيد نظراتها ، او ان أشعرها بوجودى ، ولكنى لاحظت أنها كانت تتعمد الاغضاء عنى وتجاهل وجودى .. وخفق قلبى فى أسى ، خشية أن تحوز رضى الخليفـة ، فيستأثر بها !**

وعندما انفض الحفل ، وتأهب القوم للانصراف ، أشـار الخليفة نحوى ونحو ليوتبراند ، قائلا : « امكثا ، فانى أريد أن أعرف ما اذا كنت أحسن الحكم على الرجال ! » .. وانصرف

الجميع ــ وبينهم أبو طالب ــ وبقينا لنحضر مجلس الشراب الخاص بالخليفة ، والذى لم يكن يباح حضوره الا للاميرة العباسة ، وجعفر البرمكى ، وأقرب المقربين الى الرشيد . وأقبل الشراب ، ومعه أقبل « أبو نواس » ــ شاعر الخليفة ونديمه ــ وراح يبتدع ألوان التهريج لاضحاك الرشيد ، حتى طرب هذا وراح يضحك ، وان لم يتخل عن وقاره المتزمت . وما لبث أن قال لنا : « حدثانى عن شارل الاكبر أيها النصرانيان ، فطالما سمعت عن حكمه ، ومجده ، وسلطانه ! » . وأصررت على أن يكون « ليوتبراند » هو أول متكلم ، فقال اللئيم : « أرأيت يا مولاى ؟ .. انه يتراجع لانه اعتاد أن يحترم مكانتى ويقدمنى على نفسه ، ولانه لا يعرف دخائل الحكم الفرنجى ! .. ان شارل يحكم دولة تفوق دولتك بمراحل ، ولديه عشرات الالوف من الجند ، فما رأيت جيشا يقوى على هزيمة جيشه ! » . وحان دورى فى الكلام ، فقلت : « ان الكونت ليوتبراند أستاذ فى الكذب يا مولاى ، وانى لاعرف أن شارل لا يحترم شيئا قدر الصدق . ان مولاى شارل لا يحكم دولة تفوق دولتك ، ولا يزال يعانى من قبائل الصقالبة التى تقوم بين حدوده وحدود الروم .. ثم انه ما من جيش ينجو من هزيمة ، حتى جيشك ! .. ومع أنه اقوى عاهل منذ عهد القياصرة ، الا أنه لم يبسط سلطانه بعد على جميع أراضى الروم ، بدليل أنك تحكم بعضا منها ! .. انه لا يحفل بشىء قدر ما يحفل بالحقيقة والامانة ، وهو لا يشن الحروب جزافا ، وانما هو يتبع تعاليم المسيح ! »

وعبس هارون ، ثم صاح : « احضروا أحدث زهرة فى بستان المسرات ! » . وسرعان ما أقبلت « عائشة » . وجمد الدم فى عروقى وانا ألاحظ اصرارها على أن تتجاهلنى .. وفى لباقة شرعت تروى للخليفة اشعارا انفرجت لها أساريره المصرة على العبوس ، ثم أخذت تغنى .. وأثقل الهم فؤادى

وأنا أرقب مدى رضى الخليفة عنها . وعندما لمحت « عائشة » أن الملل اوشك ان يتطرق الى « هارون » ، تحولت تروى له قصة استأثرت باعجابه ، حتى اذا انتهت ، صاح : « لعمرى انك لاروع من شهرزاد ! .. لسوف استمع اليك كل ليلة ، ولو .. لالف ليلة وليلة ! » . **ثم اذن لها بالانصراف وتحول يدعونى وليوتبراند الى أن نرافقه والعباسة وجعفر فى احدى جولاته الليلية الماجنة . وطالت بنا الجولة بين ضحك وعبث وهذر ، حتى أشبع الخليفة نزواته ، فعدنا الى القصر .** وهناك أمر الحراس بأن يقودونى وليوتبراند الى الحجرتين اللتين أعدتا لاستضافتنا . وهو يقول : « أنهما حجرتان متساويتان فى كل شىء ، الى أن أتبين من منكما المبعوث الحقيقى فأكرمه .. اما الآخر ، فلن أرحمه ، بل سأعاقبه باسمى وباسم شارل كذلك ! »

* * *

وشعرت فى اليوم التالى ، بأننى أشبه بأسير مكرم ، مرعى المكانة ، فى قصر الخليفة . وقدر لى أن أشهد هارون الرشيد وهو يعالج شؤون الدولة ، ويصرف أمور الحكم . فراق لى أن أدرس هذه الناحية .. ومن الصحيح أن هارون كان يتمسك بمظاهر الطاعة المادية ، التى تلزم كل من يغشى مجلسه بأن ينحنى أمامه . ولكن التزمت كان لا يلبث أن ينجاب بمجرد أن تنتهى هذه المراسم . وكان جعفر مستشاره الامين ، الذى يقف الى جانبه ، حتى اذا اشتم منه شططا أو تسرعا أو سوء رأى ، مال على أذنه ، فهمس له بما يجعله يبادر الى تصحيح الامر . **على أن ما اقشعر له بدنى حقا ، وأثار سخطى ، هو أن قطع الرقاب كان من أيسر الامور على الخليفة . فما هو أن يغضب على امرىء ، حتى يأمر باطاحة رقبته ، وسرعان ما يأتى بالنطع والسيف .. وان هى الا دقائق حتى يكون الجلاد**

ممسكا برأس الضحية ، أمام الخليفة !

وتوالت الايام حتى اكتملت أسابيع ، دون أن يبت هارون فى أمرى وأمر ليوتبراند ، وان حرص على أن يسوى بيننا فى المعاملة . وكنت أتسلل من القصر - بين آن وآخر - فأظل أضلل المراقبين والجواسيس حتى أتخلص منهم لاستطيع أن اتصل بالمحافظ و « ايجبرت » . وقد علمت من الاول انه كان على اتصال بزعيمه « زيد » ، بفضل جواسيس هذا ، المنبثين فى أرجاء المدينة . أما « ايجبرت » فكان راضيا عن حياة اللهو التى راح يحياها بين الحانات والمواخير . ولكن صبرى أخذ ينفد ، ورحت أتساءل عن مصيرى .. كنت موطد العزم على أن أثبت شرعية وضعى ، ولكن هذا كان يتطلب الحصول على مزيد من الادلة من بلاد الفرنجة ! .. ولاحظت فى الوقت ذاته ، أن البرامكة الثلاثة - الاب وابناه - كانوا يتقربون الى ، ويمطروننى بالاسئلة ، فلم يغب عن فطنتى أنهم كانوا مكلفين من مولاهم بالتحقق من أمرى . وقد بدا عليهم الاقتناع بصدقى ، وتجلى لى أنهم حاولوا أن يقنعوا الرشيد بدوره ، ولكن تعنته جعله يصر على التريث فى القطع برأى فى الامر !

على أن « جعفر » كان أكثرهم ودا ، فقابلت صداقته بالمثل . وكان على اخاء كامل مع الخليفة ، حتى انه كان ينعم بما ينعم به هارون من أطايب العيش وأسباب الترف . وكان قصره - فى أقصى المدينة - يكاد يضارع قصر الخليفة فى مظاهر البذخ والرفاهية . وكان كلما توثقت صداقتنا ، كشف لى عن جوانب من نفسه ، فأدركت أنه لم يكن يطمئن الى دوام مركزه ، بل كان يؤمن بأن مصيره معلق بكلمة من الخليفة . ومن ثم **فقد اتجهت فلسفته الى أن يتزود من ملذات الحياة طالما كان التزود فى وسعه . حتى اذا ازداد كل منا اطمئنانا الى الآخر ، أطلعنى على السر الاكبر فى حياته .. كان لا يفتأ يلتقى بالعباسة فى برج خاص بقصره ، لينعما بما كان هارون يحرمه عليهما من**

حقوق كزوجين . وقد استطاعا أن يعاوناني في أن التقي أنا الآخر بعائشة هناك .

ولقد سرى الى هارون نبأ ترددي على قصر جعفر ، فاذا به يحاول استدراجي ليستوثق مما كان اذا جعفر والعباسة يلتقيان في ذلك القصر ، ولكنني عرفت كيف أروغ من أسئلته بلباقة ودهاء ، وان اكتشفت اذ ذاك مدى الغيرة التي كانت تنهش فؤاده ، مما أكد لي أن علاقته بالعباسة لم تكن مجرد اخوة ، وان جعفر كان على حق في عدم اطمئنانه الى هارون !

وفي ذات يوم ، بادرني الخليفة قائلا : « تلقيت اليوم أنباء من بيزنطة .. لقد خلعت الامبراطورة ايرين عن عرشها ، وخلفها القائد نيسفوروس فوكاس ! .. ومن العجيب أن الامبراطورة لم تقاوم أو تحتج ، حتى أن نيسفوروس يوجس خيفة من انصياعها ! واعتقد أن الامبراطورة ألهمت بايحاء خفي ، أن تداهن نيسفوروس ، فنحن الذين نسيطر على حياة الناس ، نشعر - في الملمات - بايحاءات ونذر خفية . ومهما يطل عهد الحاكم بالحكم ، فلا يلبث أن يصادف يوما يجد فيه أن الفوز لا يستحق عناء النضال ! .. **انني أشعر بكل هذا ، فليس بين البرامكة - وهم أقرب خلصائي - من أطمئن اليه ، سوى واحد .. ذلك هو « زيد » ! فما تذبذب مرة ، ولا أخفى عني كراهيته يوما ، بل كان صريحا على الدوام ! .. انني أود لو أقتله ، ولكني - في الوقت ذاته - أحترمه ! »**

وابان تلك المدة التي عشتها في بلاط الرشيد ، استطعت أن ألمس أن هذا البلاط كان يتألف من خلايا كلها مغرقة في التآمر والدس والتجسس .. ولقد حاولت «زبيدة» - زوجة الرشيد - أن تستدرجني مرة لابوح لها بما كان يجري في مجالس الرشيد الخاصة ، بدافع من غيرتها من حبه لاخته العباسة ، ولكنني استطعت أن أطامن شكوكها ، وأن أرضيها بدون أن أبوح بشيء .. على أن هذا لم يكن لينقضي دون أن

يعلم الرشيد بأننى كنت فى الحريم ، فقرب اليه « ليوتبراند » ، وأبدى لى غضبه ، وراح يحاسبنى فى قسوة . ولكنى أصررت على اننى انما طامنت شكوك زوجته .. واذ ذاك صاح : « تكلم يا عمر ! » . وخيل الى اننى خليق بأن أقتل ذلك الاحدب الدميم ، اذ أدركت أنه كان يتجسس على .. ونهض ابن مهران ، فقال : « لقد راقبته وفقا لرغبتك يا مولاى ، واسترقت السمع الى حديثه مع السيدة زبيدة .. واعترف انه لم يقل الا حقا ! » وتبدت الدهشة على وجه الخليفة ، ثم تجلت عليه امارات التفكير والتوتر برهة .. وأخيرا ، انفرجت أساريره ، وقال : « أشكرك يا نصرانى ! » .. وتبدل موقف الرشيد منى — منذ تلك المناسبة — ولكنه ظل يتلكأ فى البت فى موضوعى مع ليوتبراند !

* * *

على أن موقف أبى طالب ازداد حرجا . وقد ذكر لى أن الخليفة ، يرتاب فى أنه يمارس السحر بما يمكنه من أن يدفع عنه سطوة الرشيد .. كما أنه كان يشك فى تعلق الناس بأبى طالب ويخشى أن يكون ممعنا فى تدبير ثورة على النظام القائم .. واستطرد صديقى قائلا : « وما كنت لافعل شيئا من هذا ، ولكنه مصر على خوفه .. ان الطغاة نادرا ما يلجأون الى العقل والادراك السليم ، ولا بد من هزة قوية لكى يرتدوا الى أنفسهم ويروا الحقيقة ! .. أنظر الى موقفك ، مثلا . انه واضح ، ولكن عناده وقصر نظره يجعلانه يتظاهر بأنه غير متأكد من أيكما الصادق : أنت أو ليوتبراند ! » . وفى تلك الليلة ، كتبت الى « الكوين » أنشد عونه لدى شارل ، وأسلمت المخطوط الى أبى طالب ليدبر طريقة لارساله .

وانقضى شهران ، ثم تلقيت رسالة من « الكوين » ، بدا أنها لم تكن ردا على رسالتي ، لانه ارسلها مبكرا .. على أنه

تعرض فيها لعين ما طلبت منه ، اذ قال أن هواجسه من ناحية « ليوتبراند » جعلته يسأل الملك شارل أن يذيل الرسالة باقرار بأننى مبعوثه الاوحد . **وشد ما كانت دهشتى وأساى حين تبينت أن ذلك القرار قد اقتطع من المخطوط . وقال ابو طالب: « هناك من يهتم بتتبع رسائلك ! » . فقلت : « وأكثر من ذلك انهم يريدون أن أدرك ذلك ، والا ما أرسلوا لى هذا المخطوط وهو مبتور ! »**

واستيقظت ذات صباح لاتبين اننى قد قضيت فى بلاد الخليفة تسعة أشهر ، ولما يبت هارون بعد فى وضعى ووضع ليوتبراند . ولم يكن لى من عزاء سوى اننى كنت ألتقى بعائشة — من وقت لآخر — فأتزود بذخيرة من حنانها وحكمتها وصفاء روحها ! .. وكان من الممكن أن أرتضى هذه الحياة الرخية ، فأوفر على نفسى وعقلى وجسمى كثيرا من المتاعب . ولكن روحى كانت دائما قلقة ، لا تهدأ ولا تستكين ! وفى ذات مساء ، سعيت الى لقاء « المحافظ » ، فاذا به مضطرب ، اذ شعر باشتداد الرقابة عليه .. كانت الدولة تعد عدتها ، وتحشـــد قواتها ، لتكون متأهبة لاى حرب تعلن عليها . فقد توفرت الادلة لدى الرشيد على أن الانقلاب الذى حدث فى بلاد الروم ، وانتقال أزمة الحكم الى قائد عسكرى ، نذير باحتمال قيام حرب بين الدولتين الجارتين ، غير الصديقتين . ومن ثم شدد رجال الرشيد الرقابة على كل غريب فى (بغداد) ، خشية الجواسيس ! .. ولقد شعرنا فى ذلك المساء بأن ثمة من كان يقتفى خطواتنا ، ويسترق السمع الينا . وعبثا حاولنا أن نضلله ، فلما ضقت به ذرعا ، أغمدت خنجرى فى صدره ، فى شارع مظلم . ولكن الحظ كان بالمرصاد ، فما أن سقط الرجل على الارض قتيلا ، حتى ظهر أحد العسس . **وفى سرعة خاطر مفاجئـــة ، اذا « المحافظ » يمسك بتلابيبى ويتشاجر معى . حتى اذا وصل الشرطى ، زعم له انه قتل الرجل اذ ظن انه كان يتربص له**

فى الظلام ، واننى حاولت أن أنقذ الضحية فأخفقت .. وهكذا قدر للمحافظ أن يلقى فى سجن ضيق حاولت عبثا أن أخرجه منه !

وعدت الى غرفتى فى قصر الخليفة ، فاذا فى انتظارى مفاجأة لم تكن فى الحسبان .. كان « ليوتبراند » يرتقبنى . حتى اذا رآنى ، بادرنى قائلا : « اننا هنا فى مأزق يا أريك ، وانى لاوقن من أننا لن نتخلى عن تباغضنا ، ولكن علينا أن نتحد ريثما نتمكن من مغادرة هذه البلاد التى تحكمها النزوات ، ثم نستأنف عداءنا ! » .. ولم أجب ، فقد شعرت أن فى الامر سرا ، فما كان ليوتبراند لينزل عن قحته وغطرسته ، الا لسبب خطير .. أتراه فقد حظوته لدى الرشيد ؟ .. وحاول أن يتعجلنى الاجابة ، فقال : « أحب أن أوضح لك السبب الذى دعانى الى الحضور الى هذه البقاع .. فبعد الضجة التى أثرتها فى بلاط (ايكس) ، استدعانى « شارل » . واعتقد انه صدق ما قلت له . ولكن الحاشية كانت منقسمة ازائى الى فريقين ، فنصحنى بأن أرحل بعيدا ريثما تهدأ عواطف القوم نحوى ، وان أحاول ببعض الاعمال المجيدة أن أمحو أثر ما صدر منى .. وهكذا أقصيت عن البلاط ، ولكن فى رفق ولطف ، فهذه هى أخلاق شارل . ورأيت أن ليس من نجاح يبهر الابصار أكثر من ان أتفوق عليك فى المهمة التى كنت موفدا لادائها ! » . فقلت فى جفاء : « قد تكون صادقا ، ولكن حديثك لا يغرنى فى شىء .. فماذا جئت تبغى ؟ »

فضحك قائلا : « لنتهادن الآن ، ولنعمل معا اذ شئنا أن نخلص من هذه المدينة .. ثم لنسو حسابنا فيما بعد ! اننى مطمئن الى أنك لو وشيت بما سوف أقوله لك ، فسيرميك الخليفة بالحمق ، لا سيما وانك لا تملك دليلا . فاصغ الى ! .. لقد اتصلت بجاسوس من بيزنطة ، ولعلك عرفت أن « ايرين » سمحت لقائد عسكرى بأن يتولي الملك بدلا منها ، وهو الآن

يرغب فى أن يوسع حدوده الى سوريا وجزر البحر الابيض المتوسط . **وهذا الجاسوس على استعداد لان يدفع ثمنا طيبا فى سبيل الحصول على خطط الرشيد . ثم اننى سمعت عن صداقتك لزيد المحارب ، وعن جيشه ، وعن رغبته فى تقويض ملك العباسيين ، فاذا استطعت أن تغريه بالحرب فى صف نيسفوروس ، فسوف يصبح أميرا للمؤمنين بعد الحرب ، ونحظى معا بأكثر مما فى وسع شارل أن يفعله لنا ! »** .

وظللت أنصت الى أن فرغ من حديثه ، ثم قلت : « ان الخيانة والغدر من طبعك .. انك تخون وطنك والملك الذى رفعك ، كما خنتنى وغدرت بى ، وكما تخون الملك الذى أكرمك رغم زيف الصفة التى جئته بها . فاخرج من هنا ، ولا تتصل بى بعد اليوم اطلاقا ! اخرج ! »

وانصرف النذل ، وعلى شفتيه ابتسامة خبيثة تنذر بالشر ، بينما بقيت أحرق الارم غيظا ..

* * *

وعندما خلوت الى نفسى ، رحت أفكر فى « المحافظ » .. لقد ضحى بنفسه اذ زعم أنه قاتل جاسوس الخليفة ، فى حين اننى الذى قتل ! ثم أنه ما جاء الى وكر أعداء « زيد » الا من اجلى ، ولو اكتشف انه الذراع الايمن لزيد ، لما كان ثمة شك فى أنه سيتعرض لاقسى ألوان التعذيب المنكر ، قبل أن يقتل .. وعندما التقيت بعائشة ــ فى أصيل ذلك اليوم ــ لمحت بذكائها اننى كنت مهموما ، فما زالت بى حتى أفضيت اليها بجلية الامر .. وشرد بالها فى أسى ، ثم قالت : **« ان كلا منا فى موقف لا يحسد عليه .. فأنا فى مأزق حرج ، من أجل السيدة العباسة ، وصديقك السيد جعفر .. ان العباسة حبلى ، ولا بد من اخفاء الامر ، وقد تقدم بها الحمل بحيث لا يسهل اجهاضها . ولو أن الرشيد اكتشف الامر ... ! »**

وحدثتنى كيف أن العباسة أعلنت انها منطلقة فى رحلة لبضعة أشهر ، ثم لاذت بجناح فى أعلى البرج الذى أقامه جعفر فى قصره ! .. وكانت هذه مفاجأة المفاجآت ! .. ووقفت فى النافذة ، فوقع بصرى على تمثال قاذف الرمح ، الذى يعلو القصر .. **كانت ثمة نبوءة بأن سقوط هذا التمثال من مكانه ، نذير بانهيار ملك العباسيين . ولكن .. كم من الرقاب ستسقط قبل أن يسقط هذا التمثال ؟ !**

وبقيت مشكلة « المحافظ » تشغلنى أياما . فلما ازدادت تعقدا ، أوحت الى « عائشة » بأن ألجأ الى « جعفر » . ووجدته فى قصره مهموما ، فقد كان مريضا ، وكان فى خوف من حلم راوده مرارا فى منامه .. **فقد رأى فى نومه تمثال قاذف الرمح النحاسى يسقط وسط بركة من الدماء !** .. وكانت رهبة الحلم تتضاعف كلما تبين موقفه ، وموقف العباسة والجنين الذى كان فى أحشائها . ورحت أسرى عنه حتى بددت عنه هواجسه ، ثم صارحته بموضوع « المحافظ » . ورأيت أن ليس أفضل من الصدق ، فكشفت له الحقيقة كاملة . وأرعد جعفر وأزبد عندما عرف أن الرجل من أتباع زيد ، وقال أن الخليفة لا يشفق اطلاقا على رجال « زيد » . ثم راح يذرع المكان ، وما لبث أن قال لى : « لقد جئت تلوذ بى أيها النصرانى ، ولكنك تعلم اننى لا أقدم الا على ما فيه خير مولاى هارون ! » . فقلت له : « أو لا ترى أن اعدام المحافظ خليق بأن يذكى عداء زيد للخليفة ، فيشتد فى نشاطه ، وقد ينضم الى أعداء الخليفة ، اذا قامت حرب ما ؟ »

— ولكن أحدا لن يجسر على اقناع الخليفة بهذا .. اسمع يا نصرانى ، لسوف أغامر لاننى مقتنع بأن ما قلته صحيح ، وان اعدام الرجل فى غير مصلحة الخليفة . سأذهب الى هارون ، فأروى له الحقيقة كلها ، واشفع للرجل ، فاذا ثار وهاج ، كان الرجل بعيدا عن سطوته . فان مركزى كوزير يبيح لى أن آمر

باطلاق سراحه ، وسأفعل قبل أن أفاتح الخليفة فى الامر .

ولكنى لم أتصور قط أن غضب الخليفة - من جراء ذلك - يبلغ المبلغ الذى شهدته عندما فاتحه جعفر فى الامر ، ولم يكن فى المجلس سوى البرامكة وعمر بن مهران ، وبعض خلصاء الخليفة .. فقد راح جعفر يبين للخليفة العواقب التى كانت خليقة بأن تترتب على اعدم « المحافظ » ، فى لباقة بارعة . ولكن الخليفة لم ينثن عن وجوب تعذيب الرجل لاستخلاص أسرار « زيد » منه . وشد ما كان هياج هارون حين علم أن « جعفر » قد أطلق سراح الرجل .. **ولم أشهد فى حياتى غضبا يحيل وجه صاحبه أسود ، كذلك الغضب الذى استولى على هارون .. ووجم المجلس كله واكفهر جوه .. وظهر مسرور - الجلاد - لدى الباب ، فغاص قلبى الى أعماق قدمى اشفاقا على جعفر !**

على أن هارون لم يلبث أن قفز عن مجلسه ، وأزاح من كانوا فى طريقه - بعنف مهتاج - وغادر القاعة !

* * *

وبمجرد أن سنحت لى الفرصة ، أسرعت الى قصر جعفر . ولم يكن قد وصل ، فاستقبلتنى « عائشة » . وما أن عرفت بما جرى ، حتى اربد وجهها ، ودعتنى الى مقابلة «العباسة» ، عسى أن تجد بحكمتها مخرجا .. وهكذا قادتنى الى أعلى البرج ، فلما بلغنا نهاية الردهة العليا ، اعترضنا عبدان أسودان أشهرا سيفين فى وجهينا . ولكن « عائشة » طرقت بابا خلفهما ، بطرقات معينة ، فاذا بمزلاج يزاح من مكانه ، وانفتح الباب عن غرفة فخمة الرياش . وكانت « العباسة » مستلقية على أريكة فى جانب منها .. واستقبلتنا بفرح ، اذ كانت الوحدة ترهق أعصابها ، حتى اذا لمحت أسارير نا أوجست خيفة ، فما زالت « عائشة » تترفق ، حتى أفهمتها أن « جعفر » ربما كان معرضا

للخطر ، من جراء شقاق بينه وبين الخليفة .. ثم روت لها القصة .

والتفتت الى « العباسة » ـ أخيرا ـ وقالت : « لقد لمست فيك الصدق والصراحة ، فأنت لست كمواطنك الآخر الذى علمت أنه مغرق فى الدسائس حتى أذنيه .. **ولقد فوجئت به هنا بالامس . أما كيف وصل الى مخبأى ، فهذا ما لست أدريه ، كما اننى لا أدرى كيف عرف الطرقات السرية على بابى ! » .. واضطربت ، فما كان ليوتبراند ليسعى الا الى شر ، بينما استطردت الاميرة : « لقد جاء ينشد معونتى ومعونة السيد جعفر ، ويلوح منذرا بالسر الذى بيننا ! » .** فهتفت « عائشة » : « اذن ، فيجب أن لا نضيع الوقت سدى .. يجب أن ننذر السيد جعفر ، لتهريبك من هذا المكان ! » . فقالت العباسة فى أسى : « ولكنى لا أستطيع ، فقد اقترب موعد الوضع ! » . وهنا قلت : « بل هذا أدعى لنقلك الى مكان آمن .. انك بذلك تنقذين روحين ، لا روحا واحدة ! »

وانطلقت كالمخبول أبحث عن جعفر .. لم أدع مكانا من الاماكن التى اعتاد أن يتردد عليها ، الا ذهبت اليه . وكنت أشعر بأن لكل دقيقة من الوقت قيمة ، فرحت أجرى كالمجنون . ولكننى لم أعثر له على أثر . وفى حيرتى وكربى ، وجدتنى أهرع الى « أبى طالب » .. ورويت له كل شىء . وأطرق الرجل طويلا ، ثم قال : « اذا لم يكن جعفر فى المدينة ، فلا بد أنه ذهب الى (الرقة) . ذلك لان الخليفة يحب هذه المدينة ، وكثيرا ما يتردد عليها ، ومن ثم فسوف يستبعد أن يلوذ بها جعفر من غضبه . فضلا عن أن للبرامكة هناك قصرا اذا اختبأ فيه امرؤ ، فلا سبيل لاحد اليه . وأهم ما فى الامر الآن ، هو الحيلولة دون أن يسعى « ليوتبراند » الى الخليفة ليشى اليه بما عرفه من سر جعفر والاميرة ! »

ولم أنتظر حتى يتم أبو طالب حديثه ، فقد تذكرت خمسة

« ليوتبراند » وخبثه ، وفطنت الى خطورة معرفته للسر . ولكن ، لمن تراه يبيعه ؟ .. انه من الدهاء بحيث أتوقع أن يكون قد فطن الى شذوذ طباع هارون وتقلبه ، فأدرك أن هارون قد ينصت له ، ثم يأمر - فى ثورة الغيظ - بقطع رقبته .. وصح عندى انه قد يلجأ الى « زبيدة » ، فهى الوحيدة التى يهمها أن يخلص الرشيد اليها ، وأن تقصى العباسة عن طريقها للانفراد بقلبه . ومن ثم وجدت قدمى تحملاننى الى جنـاح السيدة « زبيدة » . وألفيت « ليوتبراند » يقف فى ركن من قاعة الاستقبال ، ينتظر الاذن بالدخـول اليها .. ورمقنى بعينين حادتين حذرتين ، اذ رآنى ألج المكان ، فأتقدم اليه ، وامسك بذراعه قائلا : « تعال معى الى الردهة الخارجية ، فان لدى مسألة مهمة .. لا تقاوم ، والا صارعتك هنا حتى يسقط أحدنا قتيلا ! »

وتردد برهة ، حتى اذا فطن الى أن الانظار كانت قد بدأت تتجه الينا ، خرج معى ، وقد تأبطت ذراعه ، حتى اذا صرنا فى البهو ، التفت الى ويده على مقبض سيفه ، فقلت له : « اسمع ايها الزنيم ! اننى أعرف أن السر الذى وقعت عليه ، سر تهفو اليه نفس السيدة زبيدة ، وكفيل بأن يكسـبك كل حظوة لديها ، ولكننى عقدت العزم على أن أقف فى سبيلك ! » . وقبل أن يفطن ، كانت ذراعى اليسرى قد أحاطت بجسمه ، وكان خنجرى عند صدره ، تحت عباءته السوداء . وقلت : « أية حركة كفيلة بأن يغوص هذا الخنجر فى صدرك ! » . ودفعته الى الخارج ، وهو يقول : « وما شأنك أنت وهذا الامر ؟ انضم معى أكفل لك الثراء ! » .. وخيل الى أن ساعة تسوية الحساب قد حانت . ولكن أذنى التقطت صوت نعل خفيف خلفنا ، فالتفت .. وقبل أن أفطن ، هوت على مؤخرة عنقى وخلف ركبتى ضربتان أسلمتانى الى الارض .. ولم أكد أبادر الى النهوض ، حتى رأيت « يوسف » بجسمه السمين ووجهه

الماكر ، يعتذر عن اصطدامه بى عفوا . بينما تأبط ((ليوتبراند)) ذراعه ، وانحنى لى قائلا فى سخرية : ((أتأذن لى بالانصراف ؟))

وكدت أجن .. كان الموقف قد بلغ أقصى حدود التأزم . وكنت أدرك أن سعاة السوء والوقيعة ـ من الوشاة والنمامين ـ لن يدعوا فرصة الشقاق بين الخليفة وجعفر تمر سدى . وكان الوتر الذى يضربون عليه معدا .. فكثيرا ما سمع هارون ـ من الدساسين ـ أن البرامكة كانوا يثرون ويزدادون نفوذا ، وأن جعفر كان يفرض لنفسه سلطانا لا يقل عن سلطان الخليفة ، وها قد جاء حادث اطلاق سراح « المحافظ » مؤيدا لذلك .. ثم أن هارون كان لا يفتأ ينظر بحذر الى علاقة جعفر بالعباسة ـ رغم أنهما زوجان شرعا ـ وكانت الغيرة تعصف بعقله .. وها قد اكتشف « ليوتبراند » اللعين سرهما . وكان الرشيد متقلبا ، سريع الغضب ، سريع البت فى الامور التى تثير شكوكه فيما يتعلق بمصلحته . لذلك لم يكن عجيبا أن انتشرت فى المدينة الشائعات عن غضب الخليفة على جعفر . وجاءنى « ايجبرت » فى أصيل ذلك اليوم يقول ان الجيوش كانت تحتشد خارج بغداد ، وان نذر الحرب مع بلاد الروم تلوح فى الافق ..

* * *

وهكذا اكتملت عوامل الازمة الكبرى .. فلما التقيت بعائشة فى ذلك المساء ـ بقصر جعفر ـ رحنا نحاول أن نرسم خطة عاجلة ، ونحن نرى أننا نتخبط فى ظلام دامس .. لم نكن على يقين من المكان الذى أوى اليه جعفر ، ولكننا كنا على يقين من أن « ليوتبراند » قد كشف السر ، وان النتائج لن تلبث أن تترى بسرعة .. وكنا نقف فى شرفة البرج . وقالت : « ان الحرب قائمة لا محالة .. وقد سمعت اليوم أنباء خطيرة ! .. **لقد كان ((يوسف)) يتجسس على السيد جعفر ،**

وهو الذى أرشد « ليوتبراند » ـ ولا ريب ـ الى سر البرج .. كما سمعت أن غريمك استطاع أن يكسب سمع الخليفة بما راح يرويه له عنك ، حتى ليقال ان الخليفة لن يلبث أن يعترف به رسميا كمبعوث من لدن الملك شارل ، ومن ثم فستصبح أنت ـ فى نظره ـ كاذبا ، وسيوقع بك أقسى عقاب ! »

وفجأة ، سمعنا زئيرا عاليا ، واشتد الظلام حولنا ، وهبت لفحات من هواء ساخن ، فهتفت عائشة : « هذه نذر عاصفة رملية قد تستمر ثلاثة أيام ! » .. وفى الوقت ذاته ، سمعنا صليل سيوف الحراس القائمين أمام القصر ، ونداء يصيح : « أفسحوا الطريق للوزير جعفر ! » .. والتقت عينى بعينى عائشة ، ثم أسرعنا الى جعفر نستقبله .. وبدا هادىء النفس ، فما أن رآنا فى لهفة على أخباره ، حتى قال : « لقد كنت فى اجتماعات مع القادة ، لان « زيدا » ينذر بثورة لا بد من اخمادها ! » . ثم فطن الى اننا كنا مضطربين ، فما زال بنا حتى أفضينا اليه بكل شىء .. واذ ذاك غاض الابتسام من وجهه ، ثم قال : « الم أقل لك يا اريك اننى أقامر بحياتى فى خدمتى للرشيد .. انه متقلب ، وهو الآن فى احدى نوبات الجنون . ولكن ، لا .. لن أمكن للخليفة من العباسة ، وحق الكعبة . يجب أن تتحرك الليلة قافلة مجهزة بمؤونة شهر كامل ! » .. **وأسرع الى باب القاعة التى كنا بها ، واذا برسولين من جنود الخليفة بالباب ! .. وخيل الينا أن الواقعة قد وقعت ، ولكن أحدهما تقدم قائلا : « ان مولانا الخليفة يرجو ان توافيه ، فقد تلقى رسالة من بلاد الروم ! »**

ووددت لو يتقاعد جعفر عن تلبية الدعوة ، لينتهز الفرصة للهرب بالعباسة . ولكنه أبى ، بل أصر على أن أصحبه . وما أن دخلنا على الرشيد ، حتى هلل قائلا : « اهلا بأخى ! » . ثم دفع اليه برسالة من نيسفوروس ـ ملك الروم ـ يطلب فيها الى الرشيد أن يؤدى اليه الجزية صاغرا ، والا .. فالحرب !.

وذكر الخليفة أنه أجاب باعلان الحرب ، فقال جعفر : « ان قواتي متأهبة في ساحة الحشد ، فقد كنت أتوقع هذا التطور ! » . وقال هارون : « اذن ، فلنتحرك الى (هرقلية)، اذ أن جواسيس أنبأوني أن « باردانيس » - المتمرد الرومي - يعد مفاجأة لتيسفوروس ، لا تخطر بباله ! فاسرع ، ولتتحرك الجيوش فورا ! »

وما أن بلغنا الابواب الخارجية للقصر ، حتى وقف جعفر ، وتفرس في وجهي قائلا : « **ألم أقل لك ؟ .. انني أقامر بحياتي مع رجل متقلب الاهواء !** »

- اذن فهذا أدعى الى المبادرة بالنجاة .. خذ رجالك وارحل ، ودع هارون يخوض حربه بنفسه !

ولكنه أبى في اصرار . وما ان استقررنا في قصر جعفر ، حتى فوجئنا بجنديين من لدن الرشيد ، يصحبهما « مسرور » الجلاد ، وقد أقبلوا يدعون الوزير للقاء الخليفة .. وامتقع وجه جعفر ، ووجف قلبي وحدثني بأن في الامر شرا . وحاول جعفر أن يتلكأ ، ولكن مسرورا تعجله ، فانطلق معه ، يحف بهما الجنديان .. ووقفت وعائشة نطل عليهم من شرفة البرج ، وقد اعتصرت قلبي يد قاسية . وفجأة ، دوى قصف الرعود ، وتوالى وميض البرق ، وهبت العاصفة !

وبغتة ، تردد رنين شديد .. فقد وقع تمثال قاذف الرمح !

* * *

ولقد علمت فيما بعد أن « زبيدة » سعت الى الخليفة عقب انصراف جعفر - في المرة الاولى - فانهت اليه الانباء ، التي حملها اليها « ليوتبراند » عن حمل « العباسة » . ومن ثم أوفد الخليفة يستدعي جعفر للمرة الثانية .. ولقد أوحى نذير خفي لجعفر بأنه كان يسير الى حتفه ، ولكنه لم يجفل ، ولم يرهب . بل انه قال لمسرور ، حين أمره الخليفة باعدامه :

« لقد قامرت بحياتى ، وخسرت .. اد واجبك يا مسرور ! »

وعندما عاد مسرور الى مولاه برأس جعفر ، انجاب الغضب عن هارون ، واذا بجسده كله يهتز ، ثم انفجر يبكى ويعول ويندب جعفر .. أخاه وصديقه ! ولكنه - على ما يبدو - تذكر العباسة ، فاذا نوبة الغضب الجنوني تعاوده ، لانه لم يلبث أن أقبل مع مسرور واثنين من جنوده ، فاقتحموا قصر جعفر ، وساروا فورا الى مخبأ « العباسة » . وجذبتني عائشة الى الشرفة ، وخلال النافذة - التى كانت مصاريعها الزجاجية مغلقة - رحنا نسترق النظر الى ما كان يحدث . فاذا بالخليفة يأمر الجنديين بالبقاء فى الخارج ، ثم يتقدم بنفسه ، مشهرا سيفه ، فأطاح برأس أخته الحبيبة . وأمر مسرورا بأن يحفر فى أرض الحجرة قبرا لها . حتى اذا واراها جوفه ، دعا اليه الجنديين - اللذين كانا فى الخارج - وأمر مسرورا باعدامهما ، حتى يطمئن الى السر . وفجأة وقعت عينا مسرور علينا خلال زجاج النافذة . وقبل أن يفيق من المفاجأة ، كنت قد حملت عائشة ، وتدليت من الشرفة الى سطح مبنى مجاور - من مباني القصر - ثم رحت أجرى كالمجنون ، حتى بلغت الطريق وبجسمي عشرات الجراح .. ورحت أجرى صوب « بوابة الشام » ، ثم عرجت - فى الطرقات الضيقة المعتمة - نحو الحى الشرقى ، حيث كان بيت « أبى طالب » !



وشعرت خلفى بجلبة واصوات ، وسرعان ما كان عدد من الشرطة والعسس يطاردونني . وتمنيت اذ ذاك لو أن دار

« أبى طالب » كانت قريبة ، أو ان « ايجبرت » كان الى جوارى .. ورحت أضرب فى الازقة ، حتى تذكرت حانوت « أبى الحسن » تاجر السجاد ، فيممت شطره . وكان مغلقا . وبينما رحت أحاول اغتصاب بابه ، لحق بنا عدد من الفرسان ، فأنزلت عائشة الى الارض ، وجعلتها بينى وبين الباب ، ثم شهرت سيفى ووقفت أدافع .. واستطعت أن أصيب جوادا ، وأن أقتل جنديا ، ولكننى فوجئت بأحد الفرسان يرتمى فوقى . ووقعت على الارض . **وفى اللحظة التالية ، سمعت عائشة تصرخ : « لقد أمسكونى ! أنج بنفسك ! » . وعندما قضيت على الفارس الذى أوقعنى ، واستويت واقفا ، كان ثمة فارس ينطلق بعائشة مبتعدا ، بينما وقف أمامى اثنان . ونازلتهما بكل ما أمدنى به اليأس من قوة ، فقضيت على أحدهما ، وأثخنت الثانى بالجراح ، فانطلق يدعو بعض زملائه . وانتهزت تلك الفرصة فانطلقت كغزال جامح ـ رغم أن الدماء كانت تنزف من جراحى ـ الى بيت « أبى طالب » !**

ووجدت الصديق الطيب فى انتظارى ، فقد توقع أن الجأ اليه ، بعد أن ذاع فى المدينة مصرع جعفر .. وتبينت أنه كان قد دعا « ايجبرت » ، وأعد قافلة لنرحل بها بمجرد وصولى .. ورويت له ما جرى ، ثم قلت : « يجب أن أعود من أجل عائشة ! » . ولكنه قال : « لا ، بل يجب أن تهرب ، وانى لاقامر بمستقبلى من أجل انقاذك ، ولذا سأهرب معك ! »

وقبل أن أعارض ، كان أبو طالب قد أصدر أوامره ، فسرعان ما انطلقت بنا القافلة فى طرقات المدينة التى بدت خاوية الا من الجند الذين كانوا يبحثون عنى .. وراح أبو طالب يطمئننى الى أن أعوانه يرقبون سبيلنا ويمهدونها لنا . وأضاف أن حراس الاسوار الوسطى قد دعوا الى المدينة ، اذ أعلنت الاستعدادات للطوارىء عقب اعدام « جعفر » ، خشية قيام أنصار البرامكة بأية حركة .. أما حراس الاسوار الخارجية ،

فقد أوفد اليهم من اشترى عونهم بالمال .

* * *

ومرة أخرى ، وجدتنى فى قافلة منطلقة فى عرض الصحراء .. وكنا نرى جيوش الرشيد تنطلق فى مختلف الجهات ، ساعية الى مواقع القتال ، بعيدا عن الطريق المتوارية التى اخترناها لقافلتنا .. وما لبثنا أن وصلنا ـ بعد أيام ـ الى واحة تتشعب عندها الطرق . وهناك ، رحنا نتشاور قبل أن نقرر مقصدنا . وما لبث أبو طالب أن قال : « بوسعنا أن ننضم الى زيد ،ولعلنا نستطيع أن نؤدى للاسلام خدمة .. آه ، انه مجرد حلم ، ولكنا اذا وفقنا الى تحقيقه ، استطعنا ان نكسب رضاء الخليفة .. فأعود الى دارى ، وتتخلص انت من ليوتبراند ! »

وكانت خطة « أبى طالب » هى أن نسعى الى زيد ، وأن نقنعه بأن يعد قواته لنصرة المسلمين ، على أن يظل واقفا فى الانتظار ، وان يرقب تطورات الحرب ، حتى اذا حانت لحظة حرجة ، اندفع بقواته بحيث يرجح كفة الخليفة ، وبذلك تتضاعف قيمة معونته .. وكانت المهمة شاقة ، ولكننى ـ وأبا طالب ـ استطعنا بعد لاى أن نقنع « زيدا » بأن فساد الحكم قد يتلاشى بعد زوال البرامكة ونفوذ الفرس .

وقلت ، عندما رأيت أن زيدا بدأ يلين : « ولا تنس أن الخليفة سيرقب المعركة بنفسه ، فاذا دخلتها فى الوقت المناسب .. فى اللحظة التى يوشك فيها أن ينهزم ، أدرك مدى معونتك ! » . وهكذا أخذ زيد يتأهب للمعركة .

وهنا يحسن بى أن أذكر أن « ليوتبراند » بعد أن اكتسب الحظوة لدى « زبيدة » ، بوشايته بالعباسة وجعفر ، لم يلبث أن وجد نفسه فى موقف لا يحسد عليه . فما أن هدأت سورة غضب الرشيد ، حتى استبد به الحزن من أجل جعفر

والعباسة ، فتحول يبحث عن هدف جديد لنقمته .. وشرع يلح على « زبيدة » كي يعرف المصدر الذى استقت منه النبأ . وخشي ليوتبراند على حياته ، كما أن أطماعه عاودته ، فاذا به يتسلل هاربا ، ويولى وجهه شطر بلاد الروم .

* * *

ونشط جواسيس « زيد » ، فما لبثوا أن كشفوا لنا عن نقاط الضعف فى خطط الروم .. كان أكبر عيوب الدولة البيزنطية أنها كانت تدع الدفاع عن الحدود لاهل الحدود ، أو بالاحرى لامراء الاقطاع والقوات التى يحشدونها هناك . فكانت حروبهم حروب عصابات ، لا تعتمد على شيء من استراتيجية الجيوش النظامية . وتوقع « زيد » أن يحشد نيسفوروس قواته عند الحصون الشمالية وأبواب قليقية .. ورسمت بنفسى الخطة لقوات زيد . **فرأيت أن يجهز ثلاثمائة فارس بحراب طويلة جدا ، خلف الفرسان ، فاذا ما اشتد أوار المعركة ، هبطوا عن خيلهم ـ فى حماية الفرسان الذين يتقدمونهم ـ وتصدوا بحرابهم لخيل العدو وهى تندفع فى هجماتها ، فلا تلبث الخيل أن تجد الحراب فى صدورها قبل أن تملك عنها انحرافا ، أو يملك فرسانها كبحها .**

ولن أثقل عليك ـ أيها القارىء ـ بتفصيلات عسكرية ، قد تجدها فى الكتب التى تسجل تاريخ المعارك ، اذا شئت ان تلم بدقائقها . ولكنى أكتفي بأن أذكر أن كل الخطط التى رسمناها سارت بنجاح ، وكان اندفاع قوات « زيد » موفقا ، حتى لقد ظن الروم أنهم استدرجوا الى خدعة ، وان ثمة قوات للمسلمين كانت تكمن لتنقض بغتة من كل مكان فتحيط بهم وتفنيهم . ومن ثم بدأت جيوش الروم تنسحب مولية الادبار . وفى تلك الفترة ، لمحت فارسا يناضل فى جراة ليشق له طريقا . **وخفق قلبى بشدة ، اذ تبينت فيه غريمى اللدود ، فانقضضت**

عليه بكل ما كان فى نفسى من حسرة على بيرجيتا ، وعلى جعفر ، وعلى العباسة .. وبكل ما كان فى نفسى من سخط على نذالته ، وخداعه ، ومكره .. وبكل ما كان فى نفسى من مرارة ، من جراء ما لحق بى .. وخيل الى أننى أداة بعثتها السماء لتنتقم منه جزاء خسته ، وغدره ، ولؤمه !

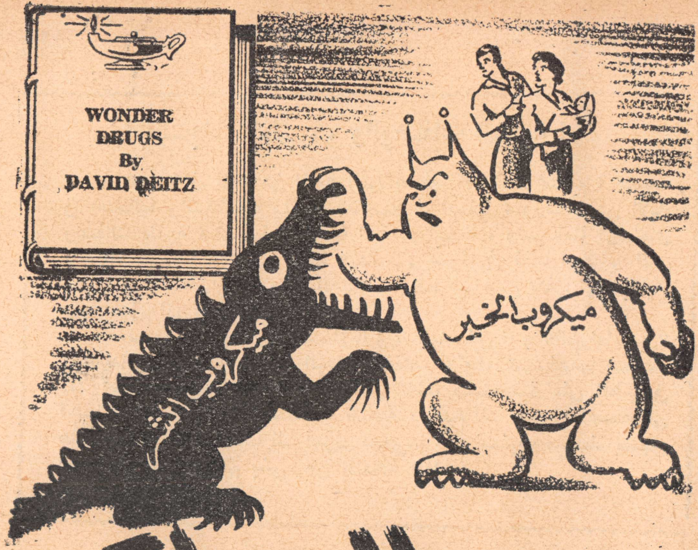
وكأنما أدرك كل هذا فدفع جواده فى درب ضيق بين التلال ، ولكننى لحقت به .. ودار بيننا نزال أهوج جبار . ودفع سيفه فى كتفى اليسرى ، فانبثق الدم غزيرا ، وشعرت بظلمة توشك أن تكتنفنى ، ولكننى تذكرت الثأر الذى عشت من أجله ، فتحاملت على نفسى بقوة لا أحسبها فى طاقة البشر ، واندفعت نحوه .. وراح كل منا يحاور الآخر ويداوره . ولم يلبث الهياج أن خرج بنا عن نطاق الطبيعة البشرية المهذبة ، وارتد بنا الى وحشية الفطرة ، فطوح كل منا بسيفه ، والتحمنا فى صراع بالايدى والارجل .. وكان شعورى بتداعى قواى — من جراء الدماء المنسابة من جرحى — يدفعنى الى الاستبسال والاستماتة ، فكأنما كنت أستمد من تضاؤل قواى قوة .. قوة حيوانية ، عاتية ، مسعورة ، لم تلبث أن تركزت فى قبضتى وهما تحيطان بعنقه وتشدان عليه ، حتى جحظت عيناه وتدلى لسانه ، وانبعثت قرقعة عظامه وهى تتحطم ..

ولم أع بعد ذلك شيئا ، فقد أظلمت الدنيا فى عينى ! ..

* * *

وقال زيد للخليفة بعد احتفالات النصر : « اننى أوافق على أن أغدو قائدا لجيوشك ، ولكنى لن ارتدى قط شعار العباسيين الاسود ! » . فضحك الخليفة قائلا : « البس ما شئت ، على أن تحرز لى النصر دائما ! » . ثم التفت نحوى ، وتأمل الضمادات التى لفتنى ، وقال : « أما أنت أيها النصرانى ، يا سفير الفرنجة ، فكيف أعوضك عما ألحقته بك من اذى ؟ » .

فقلت له : « لى رجاءان يا مولاى ، فاضمن لى أن أكون بمأمن من أى غضب ، أصارحك بهما ! » . وعبس قليلا ، ثم بسط أساريره وقال : « لك الامان ! » . قلت : **« أما أولهما ، فانني ألتمس أن تهبني الجارية التي فرت معي ! »** . فقطب وصاح : « أو تجرؤ ؟ .. بعد أن اختطفتها ، فكأنما انتهكت حرمة الحريم كله ! » . وجمد الدم فى عروقى ، ولكننى تجاسرت وقلت : « لقد وعدتنى ! » . وظل لحظة جامدا ، ثم اصطنع ابتسامة واهنــــة وقال : « لك ما طلبت .. فما الرجاء الثانى ؟ » . قلت : **« ان تنسى أننى رأيت أخطاء عاهل فى ساعة غضبه ، وأن تثق أننى لن أشى بها لاحد .. فما العاهل سوى انسان ! »** . وأدرك أننى كنت أشير الى ما شهدته من قتل العباســــة ، فتفرس فى وجهى بعينين حادتين ، قويتــمين .. ثم تراخت عضلات وجهه ، وقال : « ليغفر الله لنا يا اريك ! »

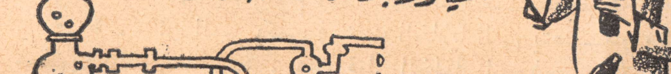


سحر العقاقير



عرض علمى مبسط للمعجزات التى تحدث فى جسم الإنسان ، والدور الذى تلعبه الميكروبات فى الصحة والمرض !





عرض وتلخيص : فوزى الشنتوى

منتجات العلم .. والوصفات البلدية !

• ان ٩٠ فى المائة من المواد التى يصفها الاطباء لمرضاهم ، جديدة فى اسمائها واشكالها ، ولكنها قديمـة فى اصلها ، ورثناها عن الآباء وصفات بلدية ، ثم سلطنا عليها العلم والبحث ، واستطعنا ان نهتدى بفضلها الى ما هو أثمن منها قيمة .. سواء فى ذلك العقاقير التى تنقذ بنى الانسان من الاوبئة الفتاكة ، والعقاقير التى تكفل لهم الوقاية منها قبل ان تصيبهم

انك تسمع اليوم عن « السلفا » و « البنسلين » و «التيرامايسين» و « الكلوروميستين » وما اليها من عقاقير ، وقد تستخدمها فتعجب لقدرتها السحرية على شفاء أمراض كانت مستعصية على الطب فى أجيال سابقة .. وفى الصفحات التالية ، نقدم لك صورة واضحة عن هذه العقاقير ، ونكشف لك أسرار سحرها ، فى أسلوب مبسط يسهل فهمه على من لم يلم بشىء من الثقافة العلمية

معامل ومصانع .. فى خلايا الانسان

• **لو أن** المرء جمع المواد التى يتألف منها جنس الانسان ، وحاول أن يبيعها فى السوق ، لما ظفر بأكثر من جنيـه أو اثنين ثمنا لها .. شىء واحد يقلب هذا الوضع ، ويجعل لهذه المواد قيمة . ذلك هو .. **الحياة !** .. فبفضـل الحياة يضم جسمك مجموعة من أدق وأبرع معامل انتاج المواد الكيمياوية .. بل انه يضم مصانع نشهد آثارها ، ولكننا ـ برغم البحث والدراسة ـ لا نعرف لها مكانا ، ولا طريقة عمل .

ومن هذه الآثار : النوم ! .. لماذا ننام ساعات طويلة ؟ .. وكيف ؟ .. ان السر يكمن فى تلك الخلايا التى يتعـذر رؤية معظمها بالعين المجردة . فان قطر الخلية النموذجيـة لا يزيد على واحد الى ألفين من البوصة . **ولكن هـذه الجسيمة الصغيرة تصنع المعجزات ، فهى تملك أجهزة تتيح لها أن تصنع نحو ألفين من المركبات الكيمياوية المختلفة التى يستحيل على**

جسمك أن يعيش بغيرها . وهى تصنعها بطريقة آلية ، ووفق حاجة جسمك فى مجموعه .. فاذا أصيب أصبعك بجرح ، اشتغلت خلايا مخك لتصدر الاوامر الى شتى الخلايا كى تفرز موادها لمنع النزيف وصيانة دمك من أن يهدر . وفى الوقت نفسه تصنع الخلايا موادا أخرى لتحصين جسمك من غزو أى ميكروب خارجى . وكثيرا ما تحس بالمعركة الناشبة فيه بين قوات الدفاع وقوات الغزو ، حين تشعر بالتهاب أو ارتفاع فى درجة الحرارة التى تعد دليلا على أن المعركة حامية

وخلايا المخ ذاتها تعمل ، وتتلقى الرسائل ، وتبعث بالاوامر، عن طريق سلسلة — شديدة التعقيد — من التفاعلات الكيمياوية التى تحدث فى الوقت المحدد لها بالضبط دون ما تأخير ، وفى دقة يعجز عنها الانسان — ذاته — والآلة !

ومع أن عقاقيرنا السحرية الجديدة من أروع اكتشافات الانسان ، الا أنها تعتمد — الى حد كبير — على استغلال هذا الجهاز الخلوى البارع . فهى تعززه ، ليقاوم أعداء أشد منه بأسا . وفى وسعك أن تقول أنها اسلحة نضعها فى أيدى الخلايا التى تعرف كيف تجيد استغلالها . وما « البنسلين » و « الاستربتوميسين » — وغيرهما من المضادات الحيوية — الا عوامل تنشط الخلايا على افراز موادها المدمرة للميكروبات .

أسرار كيمياوية فى جسم الانسان

• **وتمتاز** خلايا الانسان بأنها فى تجدد مستمر . وقد عرفنا الكثير من هذا التجدد والتغير فى عام ١٩٤١ ، عندما أعلن العالم الامريكى « رودولف شوبنهيمر » خلاصة تجاربه التى استغل فيها الازوت والايدروجين المشعين .. اذ خلطهما بطعام الحيوانات ، فاستطاع أن يتعقب سيرهما فى الجسم وعملهما ، بفضل الاجهزة الحساسة للاشعاعات . فأزالت اكتشافاته كثيرا من الاخطاء التي كنا نؤمن بها في الماضي . فقد كنا نعتقد

أن المواد الدهنية في اجسامنا مجرد مخازن للوحدات الحرارية ، وأنها لا تشترك في نشاطنا الا في حالات المرض أو الجوع ، عندما نحتاج الى مزيد من مواد الوقود . ولكن تجارب هذا العالم وزملائه أثبتت أن ٤٤ في المائة من المواد الدهنية يختفي ، فيتكون غيره في مكانه ، بحيث يظل وزن الجسم على حاله . **ومعنى هذا أن جسم الكائن الحي في تفاعل كيمياوي دائم ، فتنحل الخلايا القديمة ، وتظهر غيرها — في الوقت ذاته — لان الخلية هي وحدة الحياة ، والانسان أو الحيوان مجموعة من الخلايا التي تعمل بلا هوادة !**

وفي الجسم أسرار من العبث أن نحاول تقليدها ، ومنها عملية الهضم . فلو أن أبرع العلماء حاول هضم قطعة لحم بوسائل كيمياوية ، لصب عليها أقوى الاحماض ، ولاستخدم عشرات الاجهزة المعقدة ، ليحصل — بعد بضعة أيام من العمل المتواصل — على قطرات شبيهة بالمواد المهضومة . في حين أن هذه العمليات الطويلة تتم في جسمك في ثوان معدودة . ذلك لان في المعدة عناصر مساعدة ، هي في الواقع المسئولة عن كل العمليات الحيوية من هضم ، ونمو ، وانقباض عضلات ، وولادة ، وتحرك أعصاب .. وغير ذلك من مئات العمليات التي تحدث . لان هذه العناصر تعرف كيف تختار المواد وتقدمها في الوقت المعين لحدوث التفاعل . ولها قدرة فذة على ربط الجزيئيات بعضها ببعض ، ولاستخراج مواد جديدة من أخرى قديمة في جزء من الثانية !

« الانزيمات » .. هذه العناصر الجبارة !

• **والعناصر** التي تصنع هذه المعجزات في جسمك ، تسمى **« الانزيمات »** ، أي عناصر التخمر . ولكل نوع من التفاعلات الكيمياوية « أنزيم » خاص به ، مما يوجب وجود آلاف الانزيمات في جسمك . وهي وحدها القادرة على صنع انزيمات

أخرى . ويعتقد بعض خبراء الوراثة أننا نحصل على الانزيمات الاصلية – التى تكون غيرها – من جسيمات التوريث المعروفة باسم « جينز » . وهذه الوراثيات وأنزيماتها هى المسئولة عن الاختلافات الواضحة بين أنواع الانسان والحيوان وشتى الاحياء ، فهم التى تشكلها بالصورة التى نراها

وليس من السهل أن نقول ما هى الوراثيات والانزيمات ، فان أحداً لم يرها ، ولكننا أدركنا وجودها بما تؤديه من أعمال فى الخلية التى نراها تحت الميكروسكوب . وتختلف الخلايا بعضها عن بعض بمقدار ما تحويه كل منها من أنزيمات ومركبات قد لا توجد فى غيرها

وقد تمكن الخبراء من فصل « الانزيمات » – لاول مرة – فى عام ١٩٢٦ . وبالدراسات والبحوث حصلوا على آلاف منها ، فوجدوا فى الخلية الواحدة مئات من الانزيمات تستطيع الخلية بها انتاج مئات المركبات الكيمياوية بكميات ضئيلة للغاية ، نظرا لدقة حجم الخلية . على أن للانزيمات – فى حد ذاتها – قوة كامنة . فانزيم « الببسين » – الذى يفرز فى المعدة لهضم اللحم مثلاً – قوى للغاية ، حتى أن الرطل منه يكفى لهضم ٣٠ طنا من اللحم فى ساعتين ، كما أنه قادر على أن يجعل مليون جالون من اللبن تتجمد فى دقائق

وتتم العمليات الكيمياوية على سطح الخلية وفى داخلها ، حيث توجد حبيبات دقيقة للغاية ، تعرف باسم «ميتوكوندريا» .

ويرى بعض الباحثين أننا لو عرفنا كل شىء عن الميتوكوندريا ، استطعنا ان نجلو أسرار الحياة . فهى تبدو كخلايا داخل الخلية . وتوجد أدلة توحى بأنها المصانع المختصة بانتاج الانزيمات . فقد ظهر أن الحبيبة الواحدة منها تستطيع أن تعد مليون جزيىء من المواد البروتينية .. ومعنى هذا أن الحبيبة الواحدة تحوى ألفى أنزيم !

ولعلك أدركت الآن مدى دقة تركيب بنائك ، وصغر



وحداته . وهذه الدقة هى التى أدت الى الثـورة الحالية فى عالم ابتكار العقاقير الساحرة ، لانهـا أتاحت للعلماء معـرفة العوامل والعناصر التى تجعـل العقاقير فعالة فى علاج الامراض ومنعها . فقد كان العلماء — فى الماضى — لا يهتمون بأسـباب ووسائل فاعلية العقاقير ، وانما كانوا يكتفون بالنتائج . ومن ثم ظل محصولهم من العقاقير محدودا الى نهاية الحرب العالمية الاولى تقريبا !

كيف يقتل العقار الميكروبات ؟

• **ومن** المعروف أن كل عقار يؤخذ لفائدة احدى العمليات الحيوية ، وأن « البروتينات » هى المواد الاساسية للحيـاة . وقد وجدت هذه المواد فى كل الانزيمات التى أمكن فصـلها ، حتى لقد ذهب بعض الخبراء الى القول بأنهما شىء واحـد ، ولكن كلمة « بروتين » تعنى التركيب ، بينما كلمة « أنزيم » تعنى النشاط أو العنصر الحى الذى يوجد فى الاحياء ، ويختفى فى الاموات .. حتى الميكروبات المسـببة للامـراض تعيش بالانزيمات . ومن هنا تبدأ عملية التفكير فى ابتكار العقـاقير القاتلة للجراثيم .. فان أكثر الجراثيم وحيدة الخلية ، وتعتمد على نظام محدود من الانزيمات التى تقدم لها طعامها من الجسم الحى أو سواه . وبالعقاقير نحدث اضطرابا فى هـذا النظام ، فنحرم الجرثومة من بعض عملياتها الحيوية ، ونعمـل على قتلهـا !

ونستطيع أن ندرك الدور الذى يقوم به أى عقار ، اذا عرفنا

انه يصنع جزيئيات شبيهة لجزيئيات الخليــة التى يغزوها الميكروب المراد مكافحته . فلا تلبث خليـة الميكروب أن تغتر بالجزئيات الزائفـة التي لا تمـدها بالانزيم الضرورى ، مما يؤدى الى قطع سلسلة التفاعل الكيمياوى ، ويحرم خليـة الميكروب من غذائها فتموت !

بهذه الطريقة يعمل علم العقاقير الحديث ، فيدرس الانزيمات وتكوينها وشكلها ، ويسعى الى خلق أشباه لها ليخدع بها خلايا الميكروبات ويوقف عملها . وقد ظهر فى كثير من الحالات ، ان الانزيمات التى تحتاج اليها خلايا الميكروبات ليست ضرورية للانسان اذ تستطيع خلايا جسمه الاستغناء عنها أو احـلال غيرها محلها . ومن ثم يسعى الباحثون الى ابتكار عقاقير يمكن تصميم شكلها وهيكلها بحيث تقاوم الخلايا الضارة . وقديؤدى التوسع فى هذا الادراك الى وضع نظم حسابية لصنع العقاقير القاتلة للميكروبات الضارة أيا كان شكلها

ولا تقتصر فائدة العقاقير على مكافحة الميكروبات المسببة للامراض ، وانما هى تزود الجسم أيضـــا بالمواد الكيمياوية الضرورية لتمكين الخلايا العادية من العيش سليمة . وقـد درجنا على تسمية هذه العملية بالتغذية ، اذ أن الخلايا تظفر من العقاقير بالغذاء اللازم لجعل نظامنا الانزيمى فى حالة صحية جيدة . **ومن أهم عوامل التغذية الفيتامينات . وكثير منهـا معروف بأنه أنزيمات مساعدة ، أى أنه جزء نشط فى النظام الانزيمى . وهذا يؤدى الى انعدام الفوارق التى تميز بين المواد الغذائية والعقاقير ، مما يدعو بعض الخبــراء الى التنبؤ بأن غذاء المستقبل سيصنع فى الصيدلية !**

والسعى متواصل للعثور على عناصر تفتك بالخلايا الضارة ـ دون أن تؤذى الخلايا الصحيحة ـ مما يفسح الامل فى امكان الوصول الى وسائل للشفاء من السرطان وغـيره من أمراض تزايد النشاط فى بعض الانسجة والغدد . والنجاح فى هـذا

المضمار رهن بتزايد ما نعرفه عن « الانزيمات »

ويوالى الباحثون دراساتهم للتغلب على مجموعة من الامراض التى لا تحدثها الميكروبات ، ومنها أمراض الضعف والشيخوخة وتليف الانسجة والشرايين وغيرها . وتنعقد آمالهم على مجموعة من العقاقير المضادة للفيتامينات والهرمونات والاحتراق الغذائي ، لان كثيراً من هذه الامراض ينشأ عن ازدياد النشاط بدرجة تفقد الجسم توازنه ، وتستدعى العمل على الحد من هذا الازدياد .

ساحر اسمه « السلفا » !

• **وكثيراً** ما تكون العقاقير المفيدة فى متناول أيدينا ، دون أن نفطن اليها . ومن أمثلة ذلك أن مجموعة عقاقير « السلفا » اكتشفت فى سنة ١٩٠٨ ، وأمكن تحضيرها على أنها من مواد الصباغة . الى أن قدر لفتاة ألمانية صغيرة أن تجرج اصبعها — ذات يوم — وهى تعبث بابرة . وسرعان ما تلوث الجرح ، وأصيب بالتهاب حاد أخذ يستفحل ، دون أن تفيد فى كبحه العقاقير . **وفى ساعة من ساعات اليأس ، خطر لوالد الفتاة أن يعطيها مسحوق الصباغة الاحمر — الذى تدخل السلفا فى تكوينه — فسرعان ما زالت الحمى ، وتلاشى الالتهاب .. وشفيت الفتاة ، بينما ظفر الاب بجائزة نوبل !**

ذلك لان هذا الاب — وهو الدكتور جرهارد دوماجك — كان مكلفا بدراسة مجموعة من الاصباغ التى دخلت « السلفا » فى تكوينها . وقد لاحظ أن لها خواصا غريبة فى شفاء الالتهابات الميكروبية فى الفئران التى كان يجرى تجاربه عليها . فلما استفحلت حال ابنته ، رأى أن يجرب أحد مركبات هذه الاصباغ — واسمه « البرونتوسيل » — مع ابنته ، فاذا به يسفر عن هذه النتيجة .. وكان ذلك فى سنة ١٩٣٢ . وان هما الا عامان ، حتى ظهرت عدة تقارير علميه عن فوائد

« البرونتوسيل » فى علاج التهاب اللوزتين ، وتسمم الدم ، وحمى النفاس .

وقدر لخبيرين فى معامل « باستور » ـ بباريس ـ ان يشطرا جزىء « البرونتوسيل » ، فاذا أحد شطريه مكون من المادة الصابغة ، أما الشطر الآخر ـ وهو الذى عزى اليه المفعول السحرى ـ فكان عقارا معروفا باسم « سلفانيلامايد » ، لم يفطن العلماء من قبل الى قيمته العلاجية !

وسرعان ما نشط ابتكار مركبات « السلفا » ، وأقبل الاطباء على استخدامها ، وحفت الاضواء بها . ثم هدأت الضجة ، وبدأ العلماء يتخلصون من السحر ، ويلمسون الواقع . فأدركوا أن « السلفا » محدودة المفعول ، فهى لا تفتك بكل الميكروبات ، وانما تفتك بالميكروبات الحلقية الشكل ، التى تسبب عشرات الالتهابات المؤذية . كما يتفاوت تأثيرها فى ميكروبات أخرى ، وينعدم تماما فى ميكروبات ثالثة . ثم اكتشفوا أن لها رد فعل يتمثل فى حدوث التهابات جلدية ، وفى الاضرار بكريات الدم الحمراء والبيضاء وبالكبد .

عقاقير لخداع الميكروبات !

• **وكان** هذا كفيلا بأن يجتذب انتباه بعض العلماء .. لماذا تشفى مركبات « السلفا » بعض الامراض ؟ .. وكيف تقتل أنواعا من الميكروبات ، وتدع أنواعا أخرى ؟

وكان البحث فى هذه الناحية محفوفا بالمتاعب .. كانت « السلفا » لا تحد من نمو الميكروبات فى أنابيب الاختبار ، الا بعد ثلاث ساعات أو أربع ، كما أنها ضعيفة التأثير ـ أو معدومته ـ على البكتريا الخاملة . ومعنى هذا أن « السلفا » لا تنقض على الميكروبات وتفتك بها فورا ، وانما المرجح أنها تتدخل فى حياتها بطريقة ما ، فتضعف نموها وتكاثرها ، وتيسر لكريات الدم البيضاء مهمة الفتك بها .. **أما كيف يتم هذا ،**

فهو ما لم يتضح الا فى سنة ١٩٤٠ ، حين ظهر أن جـزىء ((السلفا)) يشبه جزىء نوع من الفيتامينات الضرورية لحياة بعض أنواع الميكروبات . فاذا ما انخدعت هـذه الميكروبات وامتصت ((السـلفا)) على أنها الفيتامين المنشود ، انقطعت سلسلة عملياتها الحيوية ، وتعطلت تغذيتها حتى تموت !

وكان هذا مفتاحا للباحثين فى العقاقير القاتلة للميكروبات فقد أصبحوا يبحثون حلقات العمليات الحيوية للميكروب المراد محاربته ، حتى يهتدوا الى مادة لازمة له ، يسهل انتاج شبيه زائف لها ، يمتصه الميكروب كغذاء ، فيكون فيه حتفه !

للميكروبات دويلات فى جسمك !

• **وليست** كل الميكروبات أعداء للانسان ، بل أن منهـا ما يدافع عنه حتى الموت ، ومنها ما لا سبيل لحياة الانسـان بدونه . فلولا البكتريا التى تحول المواد العضوية والفضلات الحيوانية الى مواد غير عضوية ، لتعذر على النبات أن يجد تغذية تساعده على النمو والتكاثر ، ولتعذر على الحيوان أن يجد كفايته الغذائية من النبات ، ولتعذر على الانسان ان يجد غذاءه من الاثنين !

وللميكروبات مستعمرات منتشرة فى جسـمك ، فمنها ما تجده فى الامعاء للمساعدة على هضم الطعام ، ومنها ما تجده فى الجهاز التنفسى لصداى عدوان خارجى . وهذه الميكروبات شديدة التعصب لاوطانها ، فهى لا تسمح لاى غريب بأن يقيم معها ، بل أن من المتعذر على أى غريب أن يفلت منها متسللا .

فاذا قدر لك أن تستنشـق هواء يحتوى على ميكروبات ((الدفتريا)) مثلا ، احتشدت الميكروبات التى تستوطن الجهاز التنفسى ، وهاجمت الدخيل بكل عنف وقوة حتى تقضى عليه أو يقضى عليها . ومن الجائز أن تحس بآثار المعركة الناشبة التى تظهر على هيئة التهاب !

وهذه الميكروبات تكره الهجرة كذلك ، وتتشبث بالحياة فى الاماكن التى نشأت فيها . ولو قلت أن فى جسمك دويلات تحترم كل منها حدود الاخرى ، لما كنت مغاليا فى التعبير . ولكنها دويلات متعاونة ، هدفها صيانة أجزاء جسمك من أى عدوان خارجى .

الانسان يأخذ فنون الحرب عن الميكروبات !

• **ولهذه** المستعمرات الميكروبية خططها وأسلحتها فى دفع الغزاة ، ولعلها أول من عرف الحرب الكيمياوية فى هذه الدنيا . فالميكروبات — فى سلم التطور — أقدم من الانسان بملايين السنين ! .. وبعض هذه الميكروبات تقضى على أعدائها بالاستيلاء على كل مواد غذائية ، حتى يموت جوعا . وبعضها ينفث فى بيئة الدخيل موادا تجعل الحياة فيها مستحيلة . **وبعضها تنتج المواد التى نسميها بالمضادات الحيوية — كالبنسلين — وقد استخدمتها أنواع البكتريا والفطريات قبل أن يعرفها الانسان بحقب طويلة . وتنتجها الاحياء الدقيقة لاحداث اضطراب انزيمى فى خلايا أعدائها ، كوسيلة لقتلها . ومن تلك الاحياء الدقيقة تعلمنا كيف نستعمل تلك المواد — المضادات الحيوية — لمكافحة الميكروبات الضارة !**

وقد كان توصله اليها مصادفة كمصادفة اهتدائه الى « السلفا » . ففى صباح أحد أيام شهر سبتمبر من عام ١٩٢٨ ، أقبل الدكتور « الكسندر فلمينج » على أطباق كان قد زرع فيها عينات من أنواع البكتريا ، فى معمله بمستشفى « سانت مارى » بلندن ، واذا به يجد طبقا خالف نمو البكتريا فيه كل ما كان الدكتور يعرفه . ففى وسط مستعمرة البكتريا الذهبية اللون ، رأى فطرا ذا لون أخضر يميل الى الزرقة ، وحوله هالة من السائل الشفاف الذى تنمو عليه الميكروبات ، وحول الهالة ظهرت مستعمرة ميكروبية . فكأنما كان السائل الشفاف حائلا

دون وصول الميكروب الى الفطر . أو - بالاحرى - ان الفطر أفرز السائل ، ومنع الميكروب من التكاثر بالقرب منه . وبعبارة أخرى أن الفطر أحدث وباء أباد ملايين الميكروبات التى سبق أن تكاثرت فى تلك الهالة .

وعكف الدكتور فلمينج على دراسة الفطر ، فاذا هو المعروف باسم « بنيسيليوم نوتاتوم » : وهو عين العفن الذى يكثر ظهوره فى الخبز والجبن والفاكهة فتعافه النفس . ويشبه الفرشاة الصغيرة ، بأهدابه الشعرية الدقيقة .

« البنسلين » فى ميدان الطب !

• **وعنى** « فلمينج » بزرع هذا الفطر ، واستخلص منه عصيرا غريبا حقن به الفيران المصابة ببعض الامراض ، فاذا بعضها تشفى من أمراضها . وقد نشر « فلمينج » نتائج بحثه فى احدى المجلات العلمية - فى يونيو سنة ١٩٢٩ - ولكن العلماء لم يولوه كثير أكتراث . ومع ذلك فقد ظل « فلمينج » مؤمنا بقيمة هذا الفطر الذى اكتشفه .

وفى تلك الاثناء ، كان بعض الباحثين يحاولون عزل المادة الفعالة عن الفطر ، دون أن يوفقوا . الى أن فطن أحدهم الى بحث « فلمينج » - بعد عشر سنوات من نشره - فقرر وزملاؤه الاسترشاد به . وتمكنوا فى عام ١٩٤١ - بعد ثلاث سنوات من الدراسة المضنية - من عزل كمية ضئيلة من مادة سمراء ، لا تكاد تملأ ملعقة صغيرة . وفى ١٢ فبراير سنة ١٩٤١ حقن بها أول مريض كان يكافح الموت فى مستشفى (راد كليف) بسبب تسمم دموى عجزت مركبات السلفا عن علاجه ، كما كانت كل الوسائل الطبية قد عجزت عن تخفيف وطأة الحمى التى انتابته ، ولم يبق من أمل فى انقاذ حياته .. وسرعان ما **هبطت درجة حرارته بشكل ملحوظ ذهل له الاطباء . فلما حاولوا اعادة الكرة لاتمام العلاج ، كانت الكمية قد نفذت ، فعاد**

الالتهاب الى ضراوته ، وقضى المريض نحبه .

وكشفت التجربة عن أن فى وسع البنسلين انقاذ حياة الآلاف من الناس ، اذا توفر بكمية كافية . فعكف العلماء بضعة أشهر على انتاج كمية كافية كانت من نصيب غلام فى النزع الاخير من حياته .. فكان أول انسان أنقذه « البنسلين » !

وادرك العالم أهميــة العقار الجديد ، فتكاتفت الشركات والحكومات ، على انتاجه بكميات كبيرة ، وبنفقات زهيدة .

هكذا يعمل البنسلين

• **واذا** أردت أن تعرف مجال عمل البنسلين ، فلا مفر من أن نلقى نظرة عاجلة على تقسيم العلماء للميكروبات من حيث قابليتها لمواد الصباغة . وأول من فكر فى هذا التقسيم هو العالم الدانيمركى « هانز كريستيان جرام » ، اذ وجد أن بعض أنواع البكتريا تقبل التلوين ، وتظهر به تحت المجهر ، وتسمى ببكتريا « جرام » الموجبة ، أما البعض الآخر فلا تقبل التلوين ، وتسمى ببكتريا « جرام » السالبة ! **وقد أثبت البنسلين أنه عقار فعال ضد « بكتريا جرام الموجبة » ، ولكنه أقل مفعولا ازاء النوع السالب . والبكتريا الموجبة تسبب أمراضا شديدة الضراوة ، كالحمى القرمزية ، والتهابات اللوز والحلق ، وحمى النفاس ، والتهابات الغشاء الصدرى والاسنان والرئة وغيرها من الامراض الفتاكة .** ونجح العقار أيضا فى عـلاج ٩٩ فى المائة من حالات الزهرى المبكرة .. وقد اقتصر العلاج بالبنسلين — فى بادىء الامر — على الحقن ، ثم تمكن الخبراء من انتاجه فى جرعات عن طريق الفم .

وقد دلت دراســة جزىء « البنســلين » على أنه أكثر تعقيدا من جزىء « السلفا نيلا مايد » ، رغم أن مواد بنائهما واحدة ، وهى الكربون والايدروجين والاكسوجين والازوت والكبريت . وهما يعاديان الميكروبات بطريقة واحدة ، وهى

التدخل فى شؤون الخلية الميكروبية ، ومنع احدى عملياتها الحيوية من أن تتم . **فالبنسلين يمنع أحد الاحماض «الامينية» — وهو حامض «جلوتاميك» — من المرور الى الخلية ، فيحرمها بذلك من الغذاء حتى تموت .**

ذلك لان الاحماض « الامينية » ضرورية لبناء المواد البروتينية فى الجسم ، وعددها ٢١ حامضا ، من بينها « الجلوتاميك » . واليها يعزى فضل بناء جسمك من شعر وجلد وأنسجة وأظافر وهرمونات وانزيمات أو خمائر . وتحتاج خلية الجرثومة الى نسبة ضئيلة من حامض الجلوتاميك ، فاذا حال البنسلين دون وصول هذا الحامض الى جسمها فقدت أحد العناصر الهامة لتكوين بنيتها .

العصا تلتهم الحلقة

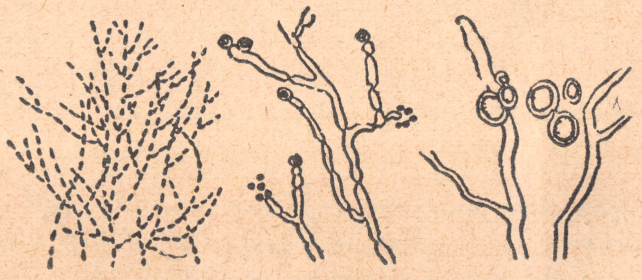
• **وليس** البنسلين أول المضادات الحيوية — التى عزلها الانسان — ولا هو آخرها . فقد كان أول من وفق الى عزل المضادات الحيوية هو الدكتور « رينيه ديبوس » ، أحد علماء روكفلر للبحوث الطبية . ولم يكن مضاده الحيوى من انتاج أنواع الفطر ، وانما كان من صنع البكتريا المعروفة باسم « بريفيز » . وهى كائنات حية كالعصى ، تلصق بالميكروبات الحلقية فلا تلبث أن تبيدها ابادة تامة . وقد اهتم « ديبوس » بهذه الظاهرة ، ووجه كل اهتمامه لفصل المادة التى تقضى على الميكروب الحلقى . وبعد مجهودات مضنية ، وفق فى بحثه وأطلق على مادته اسم **« تيروثريسين »** . فكانت شديدة الفتك بالميكروبات التى تقبل التلون بأصباغ « جرام » . **ولكن التجربة أثبتت أنها خطرة على الانسان ، اذ تصبح مادة سامة اذا ما نفذت الى دمه .** وعلة أحداث التسمم هى الآفة التى تعترض مئات من المضادات الحيوية التى كشف منها أكثر من ٤٠٠ مادة ،

لا يصلح منها لعلاج الانسان سوى عدد لا يزيد على أصابع اليدين .

على أن الجهود التى بذلت لاكتشاف هذه المادة لم تذهب هباء ، بل ان بحوث « ديبوس » كانت مفتاحا فتح بابا وجد فيه الانسان كنز المضادات الحيوية . والى جوار هذا كله كانت عقارا جيدا لعلاج الامراض الجلدية السطحية ، وعلاج أمراض الحيوان .. ومن أهم نتائجها أنها شجعت الدكتور « سلمان دكسمان » ــ أستاذ ديبوس ــ على مواصلة أبحاثه فى ميكروبات التربة وأهميتها للزراعة . اذ كان « دكسمان » قد وفق ــ فى سنة ١٩١٥ ــ الى استخلاص « ستربتوميسين جريسوس » . ولكنه لم ينتبه الى أهميته العلاجية الا فى عام ١٩٣٩ ، حين نشر تلميذه «ديبوس» تقريره عن «التيروتريسين» . فأدرك الاستاذ أن تلك الاحياء التى تعيش فى تربة الارض ، قد تقدم موادا جليلة النفع لشفاء الانسان من أمراضه .

سحر من الوحل !

• **وفى** صبر القائد المحنك وسعة ادراكه ، وجه «دكسمان» تلاميذه ومساعديه الى دراسة أكثر من عشرة آلاف نوع من



أنواع من الفطريات المنتجة للمضادات الحيوية

الاحياء التى تعيش فى التربة والاوحال . ومن هذا الحشد الكبير اختار عشرة أحياء دقيقة ليواصل عليها بحوثه . واستطاع – فى عام ١٩٤٤ – أن يستخلص مادة « الستربتوميسين » بشكلها المعروف طبيا . **وكانت أولى مميزاتها قدرتها على القضاء على بعض « ميكروبات جرام السالبة » ، التى أثبت البنسلين عجزه حيالها ، فعالجت التهابات الكلى والمرارة والحمى الراجعة وغيرها من الامراض الضارية . وعليها عقدت الامال فى محاربة السل والجذام .**

والمعروف عن ميكروب السل أنه من أبرع الاحياء فى تحصين نفسه .. فكثير من المواد تؤثر عليه ، ولكنه سرعان ما يكتسب المناعة ضدها ، فتصبح عديمة الاثر . وقد امتازت المادة الجديدة بأن مفعولها بالنسبة اليه يستمر مدة طويلة . ولكنها فى بعض الحالات تتحول فجأة وتصير عديمة التأثير عليه . ومن ثم فهى تفيد فى بعض الحالات ، وتخفق فى بعضها الآخر . ولهذا يتحايل الخبراء على اضافتها الى مواد أخرى لزيادة فترة تأثيرها .

ومن عيوب مادة « الستربتوميسين » انها تهاجم بعض أنسجة الجسم – كأنسجة السمع – فتصيبها بالضعف . وكذلك يؤدى استخدامها مدة طويلة الى اصابة المريض بأعراض مؤذية كالدوار . ويحاول الخبراء تجنب هذه الاضرار بتقصير فترة العلاج بها ، حتى لا يكتسب الجسم حساسية ازاءها .

ويحضر الآن « ستربتوميسين » من فطر أرضى عرف باسم « اكتينوميستس » وهو فطر غريب أثبت أنه من أغنى الانواع بالمواد الحيوية المضادة ، التى تفيد فى علاج الامراض .. **وهو لايزال يكشف – خلال البحوث – عن مواد جديدة تختلف باختلاف الارض التى تعيش فيها .** ويظهر أنه يتأقلم بالبيئة ، فيكتسب منها خواصا متباينة . ولهذا تجد معامل البحوث – فى شتى أنحاء العالم – تتلقى فى كل يوم عينات التربة

من مختلف البلدان ، لتجرى عليها البحوث ، لعل واحدا منها يكشف عن مضادات حيوية جديدة .

(ومن أحدث الاكتشافات – فى هذا الصدد – مادة اكتشفتها كلية الزراعة بجامعة القاهرة ، وثبت أنها شديدة التأثير على مجموعة كبيرة من الميكروبات الضـــارية . وهى الآن تحت التجربة) .

ملايين الاحياء تحت قدميك

واكتشاف المضادات الحيوية مسألة تعتمد على المصادفة والحظ . ففى كل حفنة من تراب الارض كائنات حية لا يقل عددها عن عدد سكان الارض . وهى تكون خاملة ، حتى اذا خلطت التراب بماء يحوله الى طين ، ونقلت قطرات من هذا الطين الى صحاف جهزت بالمواد الغذائية للميكروبات ، فانك سرعان ما ترى الصحاف تتلون ، فتجد فيها الذهبى والابيض والاخضر الزاهى .. الخ . ونظرة واحدة من الخبير تطلعه على ما فى الصحفة من كائنات . فاذا شاهد بينها عينة غريبة ، سلط عليها ميكروسكوبه ، عسى أن يصل الى الضالة المنشودة القاتلة للميكروبات الضارة دون أن تؤذى الانسان .

وكان الدكتور « بول بركهولدر » – الاســتاذ بجامعــة « ييل » بأمريكا – أحد المحظوظين . ففى عام ١٩٤٧ ، وصلته عينة من تربة (فنزويلا) ، فزرع بعضا منها فى أطباق التجارب واذا به يعثر على فطر جديد ، نقل عينة منه الى طبق ملىء بميكروبات ضارة ، فسرعان ما أنشأ الفطر حول نفسه هالة شفافة لا أثر لاى ميكروب فيها . وعندما حلل « بركهولدر » هذه المادة الجديدة ،وجد فيها ذرتين من « الكلور » ، فأطلق عليها اسم **« كلوروميستين »**

ودلت التجارب على أن العقار الجديد يقضى على ميكروبات السعال الديكى ، وعلى ميكروبات الكساح والتيفوس – التى

كانت حصينة ضد كل أنواع العقاقير ـ كما انه خفض مدة علاج التيفود الى عشرة أيام ، بدلا من واحد وعشرين يوما .. على أنه رؤى أن من الخير أن يستعمل « الكلوروميستين » عن طريق الفم ، وليس بالحقن . ودلت الدراسات على أن مجال عمله فسيح ، لانه ينتشر بسهولة فى شتى أنسجة الجسم ، مما يعجل مفعوله .. فضلا عن أنه بسيط التركيب ، مما أتاح تحضيره بالطرق الكيمياوية ، دون داع لزرع الفطر وتدريبه على انتاج العقار .

« الاوروميسين » .. أمل للمتقاعدين !

• **على أن** مشكلات الانتاج عرقلت توفير « الكلوروميسين » بكميات كبيرة ، فسبقه فى هذا المضمار عقار « الاوروميسين » .. تلك الحبات الذهبية اللون ، التى تكشفت عنها دراسة حفنة من تربة حقول القمح فى ولاية (ميسورى) بأمريكا . **ولهذا العقار قصة تبعث الامل فى الشيوخ وأرباب المعاشات !**

ففى سنة ١٩٤٢ ، تلقى الدكتور « بنجامين دوجار » قرارا باعفائه من عمله كأستاذ لعلم النبات بجامعة (وسكونسين) ، لبلوغه الحادية والسبعين من العمر . وآلمه أن شعر بأنه لم يعد ذا نفع للمجتمع .. فعكف على كتبه ومجلاته ينشد فيها عزاء . وفى ذات يوم ، استرعى انتباهه جملة سجلتها احدى المجلات العلمية ، وأبرزتها زوجته بأن رسمت تحتها خطا بالقلم الرصاص . وكانت الجملة تقول «سيظل الدكتور دوجار معروفا ببحثه المشهور فى وظائف نبات فطر الغراب » . فألهبت هذه العبارة عزيمته ، وعز عليه أن يظل اسمه مقترنا بفطر الغراب وحده . وتذكر أن معامل « لدرل » الكيمياوية أرسلت له تدعوه للاشتراك فى بحوثها لدراسة عينات التربة ، بحثا عن عقاقير جديدة ، فبادر الى تلبية الدعوة بعد أن كان قد أهملها ، واشترك فى الدراسات والبحوث .

وبين عينات الطين وأنواع الفطر أمضى ثلاث سنوات ، درس فيها مع زملائه آلاف العينات ، ولكنها جميعا لم تحقق آماله .
وأخيرا جاءت البشرى على هيئة فطر ذهبى اللون ، نما وانتعش حول قطعة طين من أرض (ميسورى) . واستمر فى دراسة الفطر ومعالجته ، حتى جعله يفرز كمية من مضاداته الحيوية التى اثبتت فائدتها الجزيلة ، والتى اتسع مجال عملها ــ فيما بعد ــ فأثبتت قدرتها على الفتك بعدد كبير من أنواع البكتريا الضارة . فهى تقضى على ميكروبات لين العظام وفيروس حمى الببغاء والتراكوما ، والكوليرا الاسيوية .

وأطلق على العقار الجديد اسم « **أوروميسين** » . وهو يشارك الكلوروميستين فى كثير من نواحى مجال عمله الفسيح ، ولكنه يختلف عنه فى بعض الحالات . ولهذه الميزة أهميتها . فان العقاقير ذات المجال الفسيح مطلوبة فى كثير من الحالات التى يتعذر تشخيصها ، والتى يحار الطبيب فى أمرها . كما أنها تكون مطلوبة حين يكتسب الميكروب مناعة ضد أحد « المضادات الحيوية » الاخرى .

ومع صعوبة تحضير « الاوروميسين » كيمياويا ، الا أنه يمتاز بأنه غير سام ، لان تركيبه الكيمياوى يحول دون حدوث التسمم الحاد .

وكان من نتائج تسابق الشركات الكيمياوية الكبرى فى البحث فى التربة عن العقاقير ، أن اكتشفت « **التيراميسين** » فى سنة ١٩٥٠ . وهو شبيه بالاوروميسين فى شكله الذهبى ، ويؤدى عين مهامه تقريبا ، وان اختلف عنه فى التركيب الكيمياوى . على أن هذا الشبه لم يضعف قيمته ، اذ أن الطب فى حاجة ــ كما ذكرنا ــ للمضادات الحيوية التى يمتد تأثيرها فى مجال فسيح .

المضادات الحيوية وأمراض الحساسية

• **وهكذا** أصبحت المضادات الحيوية من أهم العقاقير . ولعل المقارنة بين نسب الوفيات بين الجرحى فى الحروب الماضية ، تبين مدى ما حققته هذه المواد ، بنجاحها فى الحيلولة دون تفاقم الجروح . **فلقد كانت نسبة وفيات الجرحى – فى الحرب العالمية الاولى – ٨٠ فى الالف ، ثم انخفضت فى الحرب العالمية الثانية – عندما بدىء فى استخدام المضادات الحيوية – الى ٤٥ فى الالف .. وانخفضت مرة أخرى فى الحرب الكورية – حين ازداد عدد هذه العقاقير واتسع رواجها – الى ٢٤ فى الالف .**

على أن المضادات الحيوية كأية مادة أخرى ، تضر اذا أسىء استخدامها ، بتقديمها الى مريض أوتى حساسية ازاءها – كما حدث فى بعض حالات الوفاة عقب تعاطى البنسلين – أو بالاسراف فى جرعاتها . ويعد البنسلين من أقل المضادات الحيوية احداثا للتسمم . **ولكن نسبة تتراوح بين ٥ و ١٠ فى المائة من الناس ، أوتوا حساسية ضده . ولا يملك الطبيب ازاء هؤلاء سوى أن يراقب مفعول العقار أثناء الحقن به ، وأن يراعى الحقن ببطء شديد ، فاذا ظهر التهاب جلدى طفيف ، كان هذا نذيراً بوجود الحساسية .**

وقد حاول بعض الكيمياويين انتاج بنسلين لا يؤثر على ذوى الحساسية ، ولكن هذا لا يمنع من التزام الحذر . كما قيل أن تعاطى البنسلين عن طريق الفم ، يخفف من حدة تأثيره على ذوى الحساسية . ولكنه فى هذه الحالة قد يحدث تورما باللسان ، مع ظهور طبقة شعرية عليه . وهى ظاهرة طبيعية ، تنتج عن الصراع بين البكتريا الموجودة فى الفم ، وبين المضادات الحيوية . كما أنها لا تقتصر على اللسان ، بل تحدث فى كثير من أعضاء الجسم ، كالامعاء . ولكنها لا تلبث أن تختفى ، اذ

تستعيد البكتريا الاصلية مكانتها .

علاج لمشكلات التغذية

• **ومن** المضادات الحيوية ما يبدو عاجزا — فى بعض الاحيان — عن مكافحة الميكروبات الضارة . وقد ثبت أن هذا يرجع الى عدة أسباب ، منها سوء التحضير ، وسوء الاستخدام . كما أن منها ما يرجع الى حيل الميكروبات فى الدفاع عن نفسها ، اذ أنها — كما قلنا من قبل — بارعة فى الحرب الكيمياوية .

ويدرس الاخصائيون الآن ما ثبت من أن الميكروبات قد تكتسب مناعة ضد بعض العقاقير . وقد كان من حسن حظ البشرية ، أن كشف العلم عن عدد كبير من المضادات الحيوية ، بحيث يمكن استعمال نوع منها اذا اكتسبت الميكروبات مناعة ضد نوع آخر .

على أن مهمة المضادات الحيوية لا تقتصر على الفتك بالميكروبات ، بل أن لها جانبا سحريا آخر ، يتمثل فى انها تعمل كعنصر غذائى فعال .. حتى أن اضافة ثلث أوقية منها الى طن من علف الحيوان ، يضاعف من كمية لحم الحيوان بسرعة ويخفض من استهلاك الحيوان للمواد الغذائية . وقد استغلت هذه الظاهرة فى أمريكا فى زيادة لحم الدجاج ، ورفع انتاجه من البيض .

وقد عللت هذه الظاهرة بأن المضادات الحيوية ذات مقدرة على انتاج أنواع المواد البروتينية ، وهى التى لا غنى عنها لبناء الجسم ، والتى يؤدى نقص بعضها الى ظهور أعراض سوء التغذية .. **وقد ذهب الاخصائيون الى أن اضافة قليل من البنسلين أو الاوروميسين أو التراميسين الى الارز — وهو الغذاء الرئيسى لملايين الناس فى الشرق الاقصى — كفيلة بانقاذهم من أمراض سوء التغذية .**

على أن الاخصائيين يسيرون بحذر فى هذه الناحية ، فهم

يخشون اذا استخدمت المضادات الحيوية فى تغذية الانسان ، أن تؤدى الى نتائج تجاوز ما يمكن أن يخطر بالبال .. وليس بوسعهم أن يتكهنوا بما يترتب على سرعة نمو الاطفال .

ومع ذلك .. فلا جديد تحت الشمس !

• **والحيويات** المضادة من عوامل الوقاية من الامراض ، لا سيما تلك التى تزمن مع المريض ، وتصيبه بنوبات تظل تعاوده حتى تسلمه الى حتفه . مثال ذلك الحمى الروماتزمية التى تظل تعاود المريض فى فترات ، وقد تزحف الى قلبه ، فتقضى عليه .

وقد أجريت تجارب ، باعطاء المرضى بالروماتزم والمرضى بداء السكر ، جرعات منتظمة من المضادات الحيوية ، لمنع الالتهابات الميكروبية التى تنتابهم ، فأسفرت هذه التجارب عن نجاح أغرى الاطباء باستخدام المضادات الحيوية كعلاج وقائى فى الحالات المزمنة لامراض الجهاز التنفسى ، والقلب ، والدورة الدموية . على أنهم يقصرون ذلك على الاشخاص الذين يخشون على حياتهم من النوبات ، أو الالتهابات . كما أنهم يلتزمون الحذر حتى لا تكتسب الميكروبات مناعة ضد المضادات الحيوية ، وحتى لا يكون لهذه المواد رد فعل يؤثر على المريض

وبعد .. قد تظن أن استخدام المضادات الحيوية جديد على الناس ، ولكنه ــ فى الواقع ــ قديم قدم التاريخ . فكم من جداتنا من غالبت الحمى بالخبز المتعفن . وكم من طبيب تأكد من ذلك ، ولكنه خشى أن يجهر به حتى لا يتهم بالدجل والشعوذة .. **وعذره فى ذلك أن العلم لم يكن قد ارتقى بالدرجة التى تمكنه من أن يرى الكائنات الحية التى تتكون فى هذا العفن ، والتى تعلن الحرب على الميكروبات الضارة !**


HISTORY OF
POPE A. BORGIA
BY
F. MATANIA
"البابا" المفتون!
للمؤرخ والفنان العالمى "فورتوناتو ماتانيا"

عندما يدب الفساد فى الرئاسة الدينية !

• لم يشهد الكرسى البابوى فى (روما) ، ولا شهدت (روما) نفسها عهدا سادها فيه الانحلال الخلقى ، والتبذل ، والجريمة ، قدر عهد البابا « اسكندر بورجيا » .. كان عهد فساد شامل فى السلطات المدنية ، والسلطات الدينية على السواء ، حتى انه ألهم كثيرا من الكتاب ، قصصا عجيبة عن آل « بورجيا » .. البابا نفسه ، وأبناؤه ، وابنته ذات الجمال الفتان والشهوة الضارية . على أن المؤرخ الفنان العالمى الصيت « فورتوناتو ماتانيا » لم يحفل بالشائعات ، ولا لجأ الا ما كتبه الكتاب — فى مختلف القرون — من مادة غلبوا فيها الخيال على الواقع ، وانما درس وبحث ونقب ، حتى استطاع أن يستخلص لنا الوقائع التى أوردها فى الصفحات التالية .. فتعال نقرأ معا قصة الرئيس الدينى والدنيوى الذى انحط الى أدنى درك ، فى سبيل مطامعه وأهوائه .. قصة « البابا اسكندر بورجيا » !..

هذا هو .. « رودريجو بورجيا » !

• وهبته الطبيعة سلاحا فعالا ، كان هو عدته الاولى فى شق طريقه ، وفى خوض معركة الحياة ! .. وهبته وجها بشوشا الى أقصى حدود البشاشة ، ومظهرا سمحا الى أقصى حدود السماحة ، ومقدرة على أن يقنع أى امرىء بأن الاسود أبيض .. مهما يكن اسوداده ! وكانت هذه المقدرة تنم — فى الوقت ذاته — عن جرأة وجسارة تذهبان الى حد التجرد من أى خجل أو حياء ، مما أكسبه الاعجاب !

ذلك هو « رودريجو بورجيا » ، الذى كان أسبانيا — بحكم مولده — والذى نصبه عمه « البابا كاليكستس الثالث » كاردينالا ، وهو فى الرابعة والعشرين .. ولم يكن قد اكتمل نضجه ، ولا اكتسب من تجارب الحياة ما يجعله أهلا لهذا المنصب الدينى الخطير . وقدر له أن يكون صديقا للبابة « بول الثانى » — عندما خلف كاليكستس — فظل أثيرا مجدودا !

يحب ابنة عشيقته !

• **وكان** « رودريجو » طويل القامة ، متين البنيان ، شغوفا بالالوان العنيفة من الرياضة ، شديد الولع بالنساء ، حتى انه كان يحيط نفسه دائما بحلقة منهن . ولكنه تعرض وهـو يقترب من نهاية العقد الثالث من عمره ، لاعنف تجربة صادفته مع النساء .. **فلقد أحب ابنة عشيقته !** .. كان يرقبهـا مذ كانت برعما صغيرا ، ثم وهى تنمو رويدا ، حتى اذا تحـول البرعم الى وردة ، وشرعت أكمـام الوردة تتفتـح ، لم يعد « رودريجو » يقوى على مقاومة الاغراء !

والواقع أن « روزا فانوتسـيا » أصبحت مثالا للجمال الاسبانى ، بكل مفاتنه المثيرة . وقد بلغ من قوة اثارة هـذه المفاتن أن « رودريجو » نبذ جميـع مغامراته الغـرامية ، لينغمس جسما وروحا فى هذه المغامرة الجديدة . **وقد وجد فى « روزا » خلقا يناسب خلقه تماما .. كانت تبالغ فى الظهور بالوقار والتقوى ، حتى لكأنها « مادونا » جديدة ! وكانت عنيفة فى حبها ، وسهلة رقيقة ، على استعداد لان تنصاع لرودريجو فى كل ما يشتهى ..** ومن ثم تبعته الى (فينيسـيا) ، فالى (روما) ، حيث أنجبت له خمسة أطفـال ، دون أن تجشم نفسها عناء التستر أو التكتم ! .. وقد قدر لاربعة من هؤلاء الاولاد ـ هم : جيوفانى ، وسيزار ، وجيفرى ، ولوكريشيا ـ أن يقوموا بأدوار هامة فى التاريخ . فلقد نشأوا فى جو من الرفاهية والتساهل ، بين حنـان الام المفرط ، وزهو الاب المعتز ، مما أفسدهم !

فى سبيل الكرسى البابوى

• **وتعاقب** أربعة على الكرسى البابوى ، فكان الـكاردينال « رودريجو بورجيا » يظفر لدى كل منهم بمكانة أثيرة ، وحظوة كبيرة ، بفضل ما كان يبذله من جهود فى سـبيل انتخاب كل



كانت ((روزا فانوتسيا)) مثالا للجمال الاسبانى بكل مفاتنه .. وكانت عنيفة فى حبها ، وسهلة رقيقة فى انصياعها لبورجيا ..
(لوحة بريشة الفنان فورتوناتو ماتانيا ، تمثل بورجيا وروزا فى أحد مواقفهما الغرامية)

منهم بدوره . وهكذا راح يجمع الثروة ، ويوطد نفوذه ، سعيا وراء تحقيق خطته التى كان طموحه يرسم كل خط فيها بدقة وعناية .. **فقد كانت غايته الكبرى ، أن يتبوأ هو نفسه العرش البابوى ، وأن يحمل على رأسه التاج الثلاثى ، وأن يحمل مفاتيح كاتدرائية القديس بول .. أى أن يصبح الرئيس الروحى لجميع « الكاثوليك » !**

وكان « رودريجو بورجيا » قد بلغ العام الواحد والستين من عمره ، عندما مات البابا « اينوسينت الثامن » ، فقرر أن الفرصة التى ظل يعمل لها سبعا وثلاثين سنة قد حانت ، فاذا أفلتها فى هذه المرة ، كتب على حلم العمر كله أن يتبدد !

على أن سمعته الخلقية جعلت المهمة بالغة الصعوبة على « رودريجو » ، ولكنه لم يكن يعرف اليأس ، فراح يعرقل انتخاب « البابا » يوما بعد يوم .. ويوما بعد يوم ، كانت الجموع تحتشد فى ميدان القديس بولس ، فى انتظار اعلان « البابا » الجديد ، فاذا ما انتهى النهار ، سمرت أبصارهم على مدخنة معينة من مداخن الفاتيكان ، ليروا الدخان مستمرا فى التصاعد منها ، اشارة الى أن الرأى لم يجمع بعد على سيد جديد لروما .. حتى لقد اشتد الكرب بالناس ، وراحوا يتساءلون عما كان يجرى بين جدران الفاتيكان !

وما دروا أن « رودريجو » كان يعمل على كسب الوقت ، ويقوم بحيله الماكرة . وكلما مر يوم تناقص عدد الاكفاء الذين كانوا فى طريقه . فأخذ المنافسون والمعارضون يتراجعون تباعا ، و « بورجيا » يقترب من احراز الاصوات اللازمة !

.. وانتخب فى يوم غضبت فيه السماء !

• **وفى** الحادى عشر من شهر أغسطس سنة ١٤٩٢ ، اجتاحت روما عاصفة هوجاء . ولكن توتر أعصاب الشعب كان قد بلغ أوجه ، وشعروا بأن عدم الوصول الى خليفة

للبابا ، نذير بمحنة قومية .. فقد كان « البابا » اذ ذاك هو صاحب السلطة المدنية فى (روما) الى جوار سلطته الروحية. لذلك لم يحفل القوم بالعاصفة ـ فى ذلك اليوم ـ بل مكثوا فى أماكنهم بميدان القديس بولس ، حتى اذا حانت الساعة المحددة، اذا بالدخان لا يظهر .. **وهبط الليل ، يحمل فى أطوائه رهبة غريبة مبهمة . ودقت الاجراس تعلن صلاة الغروب ، ومع ذلك لم يظهر للدخان أثر .. وكان معنى ذلك أن « البابا » الجديد قد انتخب .. فلماذا اذن لم يعلن اسمه للجمهور ؟ وما الداعى لكل هذا التردد الطويل ؟**

وكانت الساعة العاشرة مساء ، والغيوم السوداء تتكاثف فى السماء ، عندما ظهر فى الشرفة شبح .. وانبعثت آلاف الاصوات : « صمتا ! .. سكونا ! » . وشق السماء وميض برق شديد ، أضاء المنظر كله . ودوى قصف رعد جبار ، وكان الله كان يعلن من السماء غضبه على الدجل الذى كان يوشك أن يعلن على الشعب ، والذى ينطوى على جحود وزندقة وكفر !

وأغلقت أبواب الشرفة فورا ، واختفى الشبح الذى كان البرق قد أظهر الناس على أنه الكاردينال « سفورزا » . فاذا انسحابه هو الشرارة التى فجرت ما كان كامنا فى نفوس القوم من قلق ، وتوجس . وشرعوا يصرخون ، ويسخطون ، ويهددون باجتياح الفاتيكان ، ليختاروا بأنفسهم « البابا » الذى يريدون .. **وبدا أن العاصفة التى اجتاحت ميدان القديس بولس ، أوشكت أن تكون أكثر جموحا وهياجا من العاصفة التى كانت مقبلة من السماء !**

واذ ذاك ، عاد الكاردينال « سفورزا » الى الظهور فى الشرفة .. وتحت وابل المطر الذى بدأ ينصب على الارض ، أعلن انتخاب « **رودريجو بورجيا** » ليكون « **البابا الكسندر**

السادس » .. وما كان الناس ليتلقوا هذا النبأ العجيب ، فى جو أشد انذارا بالمأساة من هذا !

نفوس كبيرة .. ونفوس صغيرة

• **وكان** أهل روما قد اعتادوا أن يتحملوا أشد الامور ، بفلسفة مدهشة ، حتى أن أعظم التعليقات – على هذا الانتخاب – جدية وخطورة ، لم تلبث أن انقلبت الى فكاهات ونكات ، بينما كان الناس ينفضون من الميدان ، أشد ما يكونون تلهفا على العودة الى دورهم ، وقد بللهم المطر .



.. ونصب رودريجو بورجيا باسم البابا اسكندر السادس !
(من رسم الفنان ماتانيا)

وفى تلك الاثناء ، غادر الفاتيكان خمسة أشخاص مهيبون وقورون ، لا يزال الاعياء واضحا على وجوههم ، بعد الايام العصيبة التى قضوها هناك . وما كان هؤلاء الخمسة سوى الكرادلة الذين عافوا الرشوة فى صلابة ، وكافحوا بورجيا – فى بسالة وشهامة – الى اللحظة الاخيرة .. كانوا كرادلة نابولى ، وسيينا ، والبرتغال ، وسان بيترو فى (فيكولى) ، وسانتا ماريا فى (بورتيكو) .

أولئك كانوا معالم مضيئة فى التاريخ ، يقابلهم أشباح مظلمة ! .. فلقد حظى الكردينال «أوريسينى» بقصر بورجيا الفخم المنيف – بكل أثاثه ورياشه – دون أن يعنى أحد بالتمويه على الرأى العام .. ولو بعقد بيع صورى ! .. ورفع الكاردينال « اسكانيو سفورزا » الى أرفع مناصب الفاتيكان

.. ومنح الكاردينال « كولونا » دير (سوبياجو) التاريخى !
.. وما كان هؤلاء سوى ثلاثة ممن باعوا ذمتهم لبورجيا . وما دروا ـ اذ ذاك ـ انه كان مقدورا عليهم أن يدفعوا الثمن غاليا ، فقد غدا « البابا ألكسندر » ـ فيما بعد ـ ألد عدو لاسراتهم ، ولم يهنأ له بال حتى حطم تلك الاسرات شر تحطيم .

لوكريشيا الفاتنة .. أداة لاطماع ابيها

● **وما أن** اعتلى « ألكسندر » العرش القائم فى كاتدرائية القديس بطرس ، حتى بدأ ينفذ مشروعاته الكبرى التى كان طموحه يمليها عليه .. فأخذ يرسم الخطط لتوسيع رقعة أراضى الكنيسة الى أقصى مدى ممكن .. عاملا ـ فى الوقت ذاته ـ على أن يكسب لاولاده أعلى درجات المجد والثراء . وكانت وسيلته فى ذلك أن يعقد المحالفات أولا ، ثم يعمد الى الغزو والاحتلال . وكان أولاده الذكور قد كبروا وأصبحوا شبابا ، كما أن ابنته « لوكريشيا » كانت قد بلغت الثالثة عشرة .. **ومع حداثة هذه السن فانها كانت قد زوجت لنبيل من (اراجون) .. وهى زيجة كانت تلائم ابنة الكاردينال بورجيا ، ولكنها لم تكن تلائم ابنة البابا !**

وكانت لوكريشيا ـ فى تلك الاثناء ـ قد نمت وازدادت حسنا ، فأصبح جمالها يخلب الالباب ، كما كان ذكاؤها خارقا ، مما أوحى الى أبيها بمستقبل عظيم .. لها وله . فهى تحت ارشاده تستطيع أن تبلغ أعلى عليين ، كما أنها بين يديه خليقة بأن تكون مصيدة تمكنه من تحقيق المشروعات الشيطانية التى كانت تختمر فى ذهنه . ومن ثم فسرعان ما استخدم سلطانه الدينى فى اقرار طلاقها من زوجها ـ ولما يمض على زواجهما عام واحد ـ لتغدو حرة ، فتستطيع الزواج ثانية ، وفقا لخططه !

أبن الخطيئة يصبح كردينالا !

• **وكانت** خطته تجعل من ايطاليا رقعة شطرنج ، يسيطر هو على بيادقها .. كان بحاجة الى مركز فى جنوب ايطاليا ، فأنفذ الى هناك ابنه « جيفرى » ، اذ زوجه من « سانشيا » الاراجونية ، ابنة الوريث المنتظر لعرش (نابولى) ! .. وكان بحاجة الى أن يعزز نفوذه فى الشمال ، فدبر زواج (لوكريشيا) من « جيوفانى سفورزا » ، دوق (بيسارو) ، التى تحتل خير موقع بين (ميلان) و (فينيسيا) !

وبينما كانت العروس ـ التى لم تتجاوز الرابعة عشرة ـ تعد صداقها الضخم لزوجها الثانى ، كان « جيفرى » قد استقر فى (نابولى) ، كما أصبح أخوه « جيوفانى بورجيا » دوقا لجانديا ، ونصب «سيزار» ـ بين دهشة الناس اجمعين ـ كردينالا لسانتا ماريا نوفيلا !

وكانت هذه المغامرة من « البابا ألكسندر » ، مهزلة لم يشهد التاريخ مثلها . ذلك لان « سيزار » لم يكن ـ ولا اخوته ـ من ثمار زواج شرعى ، ومن ثم فقد كان لا بد من اكسابه نسبا شرعيا ، ليستطيع أن يصبح كردينالا . وفى سبيل ذلك ، جمع « البابا » شهود زور أقسموا على أن سيزار كان ابنا شرعيا لفرديناند القسطلانى ـ نسبة الى (قسطلة) بأسبانيا ـ وعثر على شخص يدعى « دون مانويل ميلكيورى » ليقوم بدور « فرديناند » هذا ، وليظهر أمام الملأ كزوج شرعى لروزا فانوتسيا التى كانت لا تزال محتفظة بحسنها الفتان !

وهكذا انطلق « البابا » الطموح ، بخطى واسعة ، فى فترة جد قصيرة .

الفاتيكان يفتح أبوابه للمجون

• **وكان** زفاف « لوكريشيا » فرصة أراد « رودريجو »

— أى البابا الكسندر — أن يبهر بها أنظـار (روما) بأسرها ، فيجمع بين بذخ الملك وعظمة الكنيسة ، ومن ثم فقد كان زفافا بز ما عداه ، ولم تر المدينة المقامة على سبع تلال ، شبيها له .

وعهد الى « سيزار » بتنظيم الاستقبال وموكب الزفاف . وأقيم الاحتفال فى (الفاتيكان) ، رغم أنه كان من المحرم على النساء أن ينفذن خلال أبواب هذا الصرح القدسى . واجتمعت حسان روما — فى أقصى زينة وبهرج — حول « لوكريشيا » الفتانة ، فكأنما كن اطارا لابراز حسنها الفائق ، الذى تألق فى القاعات الفخمة الفسيحة ! .. وأقيم للبابا عـرش ، ونثرت تحت قدميه حشيات استلقت عليها «لوكريشيا» و «سانشيا» — زوجة أخيها — وكأنهما ربتان من ربات العصور القديمة .

وكان نجاح هذه التجربة الاولى ، خير مطمئن لبورجيا الى أنه فوق كل لوم أو نقد . فما جرؤ أحد من الشعب — أو من رجال الكنيسة — على ابداء أية ملاحظة تعيب تصرفه ! ومن ثم ، فسرعان ما أعقب تلك الحفلة حفلات تنكرية ، واستعراضية، وعامة ، وخاصة .. حفلات لا أول لها ولا آخر ، تكاد تكون — فى تتابعها — سلسلة متصلة الحلقات من المجـون والعبث والاستهتار !

صراع بين شقيقين .. على شقيقتهما !

• **وسارت** الامور على هوى « البابا » بضع سنوات ، ثم حلت به مأساة ، أصابت ابنه الاكبر « جيوفانى » . فقد كان « جيوفانى » على النقيض من أخيه « سيزار ».. كان الاول صريحا ، ودودا ، يولى صداقته كل مخلوق ، ويميل كل الميل الى الدرس والاطلاع .. فى حين أن الثانى كان مجردا من كل خلة حسنة ، اللهم الا الميل الى الرياضة ، فكان رياضيا بارعا. وفيما عدا ذلك ، كان ماكرا ، لئيما ، يستطيع بخبثه ودهائه أن يمارس الغدر والخيانة وكأنهما من الفنون الرفيعـة . حتى

لقد شاع بين القوم اذ ذاك أنه جدير بأن يخلف أباه فى هذا الميدان وأن يبزه !

ولقد ازدادت الشقة اتساعا بين الشقيقين عندما كبرا وأصبحا رجلين ، فأصبحا متنافرين متناقضين فى كل شىء .. اللهم الا فى حبهما الشديد لاختهما « لوكريشيا » !

وفى ١٤ يونية سنة ١٤٩٧ ، شهد قصر « روزا فانوتسيا » مأدبة كبرى ، ضمت آل بورجيا أجمعين ، عدا « البابا » الذى كان فى الفاتيكان ، ولوكريشيا التى كانت تقضى فترة فى دير « سان سيكستس » ! .. وبعد سهرة ذات جو عائلى مفعم بالود ، انصرف جيوفانى وسيزار معا .

وكانت تلك الليلة ، آخر الليالى فى عمر جيوفانى !

جريمة تحت جنح الظلام

• **ولقد** ذكر « سيزار » — فيما بعد — أن جيوفانى لم يلبث أن ودعه ، لينصرف الى موعد خاص .. اذ كان قد



« سيزار بورجيا »
كما رسمه الفنان ماتانيا

استقبل – أثناء وجوده فى قصر أمه – فارسا أخفى وجهه وراء قناع ، وقد حمل اليه رسالة لم يطلع عليها أحدا .. ولما كان « سيزار » قد اعتزم الرحيل الى (نابولى) فى فجر اليوم التالى ، فانه ودع أخاه ، وانطلق كل منهما فى سبيله . **فسار جيوفانى فى اتجاه الدير الذى كانت فيه « لوكريشيا » . أما « سيزار » ، فانه ظهر فى (الفاتيكان) – فى تلك الليلة – لفترة وجيزة ، ليودع أباه قبل سفره .**

وعلم كذلك أن « جيوفانى » لم يلبث أن صرف خدمه – بعد أن فارق أخاه بقليل – ولم يستبق معه سوى وصيفا كان موضع ثقته . فاستأنفا السير ، حتى اذا بلغا ميدان (بيازا ديلا جيوديكا) ، التقيا بالفارس ذى القناع ، الذى كان قد أحضر الرسالة السرية الى جيوفانى . فما كان من هذا الا أن أمر خادمه بأن ينتظره فى الميدان ، وانطلق مع الفارس المقنع ، الى مكان لم يعرف أحد كنهه أو موقعه ! .. على انهما لم يلبثا ان عادا بعد ساعتين ، فلما بلغا الميدان ، صرف جيوفانى الفارس ، واصطحب خادمه ، ميمما شطر قصره .

واذ اقتربا من شاطىء النهر ، انقض عليهما – من جوف الظلام – أربعة رجال وفارس ، فدار بين الفريقين صراع قصير ، ثم اختفى الرجال وجيوفانى ، وبقى الوصيف غارقا فى بحيرة من دمائه . وعندما عثر عليه أهل بيت قريب – بعد قليل – كان قد استنفذ الشطر الاكبر من قواه ودمائه ، فمات قبل أن يفضى بوصف واضح لما حدث !

جثة فى نهر (التيبر)

• **ولم يعلم** « البابا الكسندر » الا فى ساعة متأخرة من النهار التالى ، بأن ابنه دوق جانديا – جيوفانى – لم يعد الى قصره . ولم يبد البابا أى قلق فى البداية ، اذ حسب أن ابنه ربما انطلق فى مغامرة غرامية تتطلب التكتم ، وتضطره الى

أن لا يغادر فاتنته الا تحت جنح الظلام . **بيد أن القلق أخذ يتسرب اليه كلما مضى الوقت دون أن يتلقى نبأ عنه . فلما اكتنهل الليل دون أن يظهرلجيوفانى أثر ، استبد القلق بالبابا ، حتى أنه أبى أن يأوى الى فراشه ..**

واوفد رجاله واتباعه الى كل مكان يبحثون عن ابنه ، ولكن أنباء اخفاقهم المتتابعة ، لم تلبث أن أسلمته الى اليأس .

وفى اليوم التالى ، أمر البابا أكثر من مائة من صيادى السمك وأصحاب القوارب ، بالبحث عن ابنه فى طول النهر وعرضه .. وانقضى ذلك اليوم دون نتيجة ، ولكن اليوم التالى ، أسفر عن العثور على جثتين فى نهر (التيبر) . وكانت احداهما جثة جيوفانى ، وقد بدت فيها آثار تسع طعنات . ولكن ملابسه ونقوده كانت كاملة لم تمس !

الجريمة تربط بين الاب وابنه

• **وصحيح** أن البابا الكسندر كان فولاذى الاعصاب . بيد أن الانفعالات العاطفية التى تنازعت قلبه ، كانت من العنف بحيث تغلبت على صلابته وجلده ، فاحتبس نفسه فى غرفة قصية ، رفض أن يفتح بابها لاحد ، لثلاثة أيام كاملة .. حتى عشيقته الاخيرة « جوليا فارنيسى » عجزت عن اقناعه بمغادرة الغرفة أو السماح لها بالدخول اليه . ولم تفلح حيلة من حيل أتباعه فى استدراجه من عزلته هذه ، فلجأوا آخر الامر الى ابنته « لوكريشيا » .. **وكان صوتها وحده ، هو القوة التى جعلت « البابا » المحزون يفتح باب سجنه . وظلت « لوكريشيا » معه ـ فى الغرفة ـ ثلاثة أيام اخرى ، خرج بعدها « البابا » وقد استرد هدوءه وجلده ! !**

وكانت « لوكريشيا » هى الوحيدة ـ كذلك ـ التى استطاعت أن تجعله يحيد عن أن يسلم ابنه « سيزار » الى الجلاد ، وعلى أن يتقبل الامر الواقع ، ويدع « سيزار » للايام تؤدبه !

.. واضطر « البابا » الى أن يرتضى الحل الاخير ، كما يتناول المريض جرعة الدواء المر ! .. ولعل يد « لوكريشـيا » هى التى خففت عليه المرارة . **ولا عجب ، فقـد طوى التاريخ صدره على أبشع مهزلة خلقية .. كانت « لوكريشيا » عشيقة لابيها ، فى الوقت الذى كان فيه شقيقاها يتنافسان عليها !**

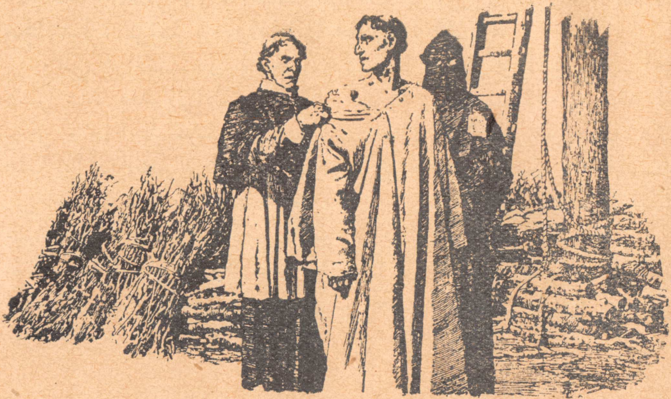
على أن هذا الاغتيال كان نقطة تحـول كبرى .. أو لعله — على الاصح — كان رباطا جديدا بين الاب وابنه « سيزار » .. رباط الجريمة . بينما كان الناس يشـهدون مخازيهما ومثالبهما فى صمت ، ودون أدنى اعتراض .

الراهب الذى حاول ايقاظ النائمين

• **أجل** لم يجد أحد من نفسه جرأة على شىء ، سـوى رجل واحد ، سرعان ما ارتفع صوته فوق هدير الفساد .. وكان ذلك الرجل هو الراهب « جيرولامو سـافونارولا » ، فقد راح يذيب روحه فى خطبه ومواعظه ، ويحمل من قمـة منبره فى فلورنسا ، حملات شعواء على بلاط (روما) ومباذله.

وكأنما كان صمت القوم راجعا الى وقـوعهم تحت تأثير مخدر قوى ، لم تلبث صيحات الراهب أن أيقظتهم منه . فلما علم البابا بالمكانة التى كان « سافونا رولا » يكتسبها سريعـا لدى القوم ، حاول أن يسكته بشتى الطرق ، حتى اذا عجز ، راح يلوح له بالمـال والجاه .. **وفى ذات يوم ، ذهب مبعـوث من (روما) الى صومعة الراهب المتواضعة ، وقدم اليه براءة تعيينه كاردينالا .. ولكن « سافونا رولا » فعل ما لم يكن أى انسان يجرؤ على فعله اذ ذاك . فقد رفض المنصب واللقب . ولم يكتف بذلك ، بل طرد مبعوث « البابا » شر طرده !**

وكانت نتيجة ذلك أن صدر أمر بابوى بحرمانه من الكنيسة ، وبمنعه من وعظ الناس . بيد أن « سـافونا رولا » أبى أن يعترف بهذا الامر ، ورفض أن يطيع رغبة « البابا » . ولـكن



.. ولكن «سافونارولا» لم يفقد شجاعته حتى اللحظة الاخيرة ، وهو يجرد من مسوحه ويساق للاعدام
(لوحة من رسم الفنان ماتانيا)

« الكسندر » الرهيب ، عرف كيف يبدد ـ بنفوذه ـ الانصار من حول الراهب الامين لرسالته . ثم اعتقله مع البقية التى تبقت حوله من الانصار ، وأصدر أمرا باعدامه . فشنق وأحرقت جثته فى ميدان (بياتزا ديلا سنيوريا) ، غير بعيد من البقعة التى يقوم فيها اليوم تمثال « دافيد » .. احدى التحف التى خلفها ميشيل انجيلو

جرأة .. حتى عند الموت !

• على أن الراهب لم يفقد شجاعته حتى اللحظة الاخيرة . وعندما تقدم أحد رجال الكنيسة فجرده من مسوح الرهبان ـ امعانا فى تحقيره ـ قائلا : « اننى افصلك عن الكنيسة

المجاهدة المظفرة » ، التفت اليه سافونا رولا قائلا : **« أما انها مجاهدة ، فربما .. واما انها مظفرة ، فلا ! »**

وظل « الكسندر بورجيا » ـ كما سجل فى التاريخ ـ أحد عشر عاما بعد الراهب ، أمعن خلالها فى مباذله وتهتكه .. ولكن ، ما أحد عشر عاما بجانب الخلود ؟ ! .. ما أحد عشر عاما اذا ما انصرم الزمن ، وحان اليوم الذى تقدر فيه أعمال كل امرىء بالميزان الصحيح ؟ ! .. وما أبعد الفارق الذى سيفصل اذ ذاك بين « جيرولامو سافونا رولا » الراهب المتواضع المتقشف ، وبين رودريجو بورجيا .. البابا الكسندر ، الذى عاش فى بذخ ونعيم وسلطان لم يحلم بمثلها « بابا » غيره ولا ملك ؟ !


THE LOST
WORLD
BY
SIR ARTHUR
CONAN DOYLE
العالم المفقود
لنابغة القصة: سير آرثر كونان دويل

أروع تحفة لمبتدع شخصية ((شرلوك هولمز))

◆ اشتهر الروائى الانجليزى الذائع الصيت « سير آرثر كونان دويل » ، بتلك القصص البوليسية الرائعة التى ابتكر لها بطلا أصبح خالد الاسم ، وكأنه كان شخصية حقيقيـــة ٠٠ ذلك هو « شارلوك هولمز » ٠ ومع ان « كونان دويل » اختط فى القصـــة البوليسية خطة تتلمذ عليه فيها ـ بعد ذلك ـ كبار كتاب هـــذا النوع من القصة ، ونعنى بها طريقة البحث والاستقراء القائمين على أسس علمية ٠٠ مع ذلك ، فان هذا المؤلف الـــكبير ، لم يقصر كل انتاجه علي القصـــة البوليسية ، بل انه حاول أنواعا أخرى من القصة ، نقدم اليوم تحفة منها ، وهى قصة ((العالم المفقود)) ، التى جمعت بين الخيـــال ، والعاطفة ، والمغامرة ، والثقافة العلمية ٠

ولقد كان فى برنامج ((كتابى)) أن يقدم هذه القصة ملخصـــة الى قرائه ٠ ولكن المصادفة شاءت أن تقررها وزارة التربية والتعليم على طلبة الشهادة الثانوية العامة ، فكان هذا حافزا على ترجمتها ترجمة كاملة ، تنشر على حلقات ـ بدلا من تلخيصها ـ زيادة فى امتاع القارىء بوقائعها وتفصيلاتها ، وتمكينا للطلبة من دراستها وفهمها

١ ـ ((هناك بطولات تحيط بنا من كل جانب))

• **لو أنه** كان مقدرا لشىء أن يقصينى عن ((جـلاديز)) ، لكان هذا الشىء هو مجرد التفكير فى اتخاذ السيد ((هنجرتون)) حما لى ٠ فقد كان رجلا عديم اللباقة والحصـــافة ، عديم الاناقة ٠٠ وكان طيب السجية كل الطيبة ، ولكنه كان منصرفا تمام الانصراف الى نفسه الغبية وحدها ٠ وكنت أزورهما ثلاث مرات فى الاسبوع ٠ وانى لموقن من أنه ـ فى قرارة نفسه ـ كان يعتقد اننى كنت أفعل ذلك ابتغاء مسرة صحبته ، ولاستمع ـ بوجه خاص ـ الى آرائه فى كافة أنواع المســائل المالية ٠٠ وهو موضوع كان يرى نفسه حجة فيه ٠

وبعد أن استمعت ـ فى تلك الامسية ـ الى كلامه الرتيب ،

ســـاعة أو أكثر ، اذا به يقفز فجأة عن مقعـــده ، فيلومنى لسفاهتى ، ويهرع خارجا من الحجرة ، ليرتدى ثيابه من أجل لقاء هام .. **وصرت ـ أخيرا ـ وحيدا مع ((جـلاديز)) ، وحانت لحظة البت فى المصير ! اذ كنت قـد قررت ـ فى ذلك اليوم ـ أن أسـألها الزواج منى ، وكنت أشـعر طيلة تلك الامسية بما يشعر به الجنـدى الذى ينتظر الاشــارة التى ستطوح به الى أمر لا حيلة له فيه .. فكنت موزعا بين أمل الفوز وخوف الرفض .**

وكانت تجلس وقد برزت معـالم جانب وجهها الشـماء الرقيقة ، أزاء الستار الحمراء . ما كان أجملها ! ومـع ذلك فما كان أبعدها عنى ! لقد كنا صديقين ، وصديقين حميمين ، ولكنى لم أستطع ابدا أن أتجاوز عين الزمالة التى كان من الممكن ان انشئها مع اى زميل لى من محررى الاخبار فى صـحيفة « الجازيت » . كان كل منا صريحا كل الصراحة مع الآخر .. لطيفا كل اللطف .. ولكن ، لا شىء أبعد من ذلك .

وكانت « جلاديز » مفعمة بكل خلة نسوية .. كان البعض يحكمون بأنها باردة ، جافة . ولكن فكرة كهذه كانت بعيدة عن الصواب . فتلك البشرة البرونزية الرقيقة ، التى تكاد تـكون شرقية فى لونها ، وذلك الشعر الفاحم السواد ، وتلكما العينان الواسعتان الصافيتان .. كل هذه كانت متوفرة لديها ، ولكنى كنت أدرك ـ فى حزن ـ اننى لم أعثر بعـد على الوسيلة التى تمكننى من الافضاء بالوجد الذى كانت تذكيه . ومع ذلك .، فلم يكن بد من أن أطرح عنى التردد ـ فى تلك الليلة ـ وان أبت فى الامر ، وليكن ما يكون . فمـا كانت لتملك أكثــر من أن ترفضنى . **ولخير لى أن أكون محبا مرفوضـا ، عن أن أكون اخا مقبولا !**

الى هذا المدى حملتنى أفكارى ، وكنت أهم بأن أشـق الصمت الطويل الممض ، حين التفتت الى ، واهتز رأسـها

المتشامخ فى استهجان ، وقالت : « لدى شعور بأنك توشك أن تخطبنى يا نيد ، وانى لارجو أن لا تفعل ، فان الامور فى وضعها الراهن أجمل وأبدع » . فقربت مقعدى منها قليلا ، وسألتها فى عجب : « ولـكن ، كيف عرفت أننى كنت موشكا أن أخطبك ؟ »

ـ الا تدرك النساء مثل هذا الامر دائما ؟ .. ولـكن ، أواه يا نيد .. لقد كانت صداقتنا جد طيبة وجد سارة ! من الحرام افسادها ! ألا تشعر بمدى ما هنـاك من روعة فى أن يكون بوسع شاب وشابة أن يتحادثا فى صراحة كما اعتدنا ؟

ـ لست أدرى ياجلاديز . أن هذ لايرضينى قط ، فانى أود أن تكون ذراعاى حولك ،ورأسك فوق قلبى ، و . . .

ـ حسنا ، قد يختلف الامر لو كان الطـرفان متحابين ، ولكننى لم أشعر بالحب أبدا

ـ بل يجب عليك .. وانت بجمالك هذا ، وبروحك هذه ! أوه يا جلاديز ، انك خلقت للحب ، فيجب أن تحبى !

ـ لا بد للمرء من ان ينتظر حتى يواتيه الحب

ـ ولكن ، لماذا لا تستطيعين أن تحبينى يا جلاديز ؟ .. أمظهرى هو السبب ، أم ماذا ؟

فتطلعت الى وجهى بابتسام ، وقالت أخيرا : « لا ، ليس هذا .. انه أمر أكثر عمقا ! » .. وتساءلت : « أهى أخلاقى » . فأومأت برأسها بشدة . فقلت : « وماذا املك لاصلاحها ؟ الا أجلسى وابحثى الامر معى ! » .

واتخذت لنفسها مجلسا أمامى ، فى شك حائر . فقلت : « أنبئينى الآن بما يعيبنى » . فقالت : « اننى أحب شخصا آخر ! » . وكنت أنا الذى قفز عن مقعده فى هـذه المرة . فأوضحت لى الامر ، وهى تضحك مما تبـدى على وجهى : « انه ليس شخصا معينا بالذات ، وانما هو مثل أعلى .. فما قابلت قط هذا النوع الذى أعنيه من الرجال »

ـ حدثيني عنه ؟ .. ما شكله ؟

ـ آه ، انه قد يكون شديد الشبه بك

ـ ما أجمل أن تقولى هذا ! حسنا ، فما الذى يفعله ولست أفعله ؟ اذكريه فى كلمة واحدة .. لو انك اعطيتنى فكرة عما يسرك يا جلاديز ، فسأحاول أن أفعله !

ـ حسنا ، يجب ـ بادىء ذى بدء ـ أن يكون قادرا على أن يعمل ، وان يتصرف ، وان يواجه الموت دون ان يخافه .. رجل جليل الافعال ، عجيب التجارب . فلن أحب الرجل ، وانما سأحب دائما الامجاد التى اكتسبها .. ان أية امرأة قمينة بأن تحب مثل هذا الرجل بكل روحها .

قلت : « ليس بوسع الرجال جميعا أن يكونوا على هذه الشاكلة . بجانب أننا لا تحظى بالفرصة .. أنا ـ على الاقل ـ لم أحظ بالفرصة . ولو حظيت لحاولت أن انتهزها »

ـ ولكن الفرص تحيط بك من كل جانب . ان من سمات الرجل الذى أعنيه أن يخلق لنفسه الفرص ، فلا تملك أن ترده عنها . اننى لم أقابله قط ، ومع ذلك فيبدو لى اننى اعرفه تماما . **ان ثمة بطولات حولنا ـ من كل جانب ـ ترتقب تحقيقها ، وعلى الرجال ان يحققوها ، وعلى النساء أن يحتفظن بحبهن كجزاء لمثل هؤلاء الرجال .. اننى أود ان اكون موضع حسد النساء الاخريات ، من أجل رجلى !**

وبسطت لى يدها ، ولكن فى لطف وجلال لم أملك معهما سوى أن انحنى وأقبلها . ثم استطردت : « اننى لاجرؤ على القول بأننى لست سوى امرأة حمقاء ، أوتيت اوهام فتاة صغيرة . ومع ذلك ، فان الامر جد حقيقى لدى ، بل انه جزء من لب نفسى حقا ، حتى اننى لا أتمالك أن أعمل لتحقيقه . فاذا قدر لى أن أتزوج ، فانما اريد ان اتزوج رجلا مشهورا » .

فصحت : « ولم لا ؟ انما مثيلاتك من النساء هن اللائى يحفزن الرجال . هبينى الفرصة ، وانظرى ما اذا كنت سأنتهزها !

.. ثم أن الرجال ـ كما قلت ـ جديرون بأن يخلقوا الفرص لانفسهم ، لا ان ينتظروا حتى توهب لهم . وحق القديس جورج ! لسوف أقوم بعمل تشهد به الدنيا ! »

وضحكت لتحمسي وقالت : « ولم لا ؟ .. انّ لديك كل ما يمكن أن يؤتاه الرجل .. شباب ، وصحة ، وقوة ، وعلم ، وقدرة على العمل . لقد كنت آسفة لانك فتحت باب الكلام ، أما الآن فأنا فرحة .. فرحة جداً ، اذا كان الكلام قد أيقظ كل هذه الخواطر فيك » . فسألتها : « واذا فعلت .. ؟ » . واستقرت يدها على فمي كأنها مخمل دافيء ، وقالت : « لاتزد يا سيدى . كان عليك أن تكون فى مكتبك منذ نصف ساعة ، لولا اننى لم اجد الجراة على ان اذكرك بذلك . ولعلنا نبحث الامر ثانية يوماً ما ، عندما تكون قد اكتسبت مكانة فى الدنيا »

وهكذا وجدت نفسى مندفعا الى مقر عملى ، وقلبى يتأجج بين جنبى ، وقد تملكنى عزم متحمس على ان لا اضيع يوما آخر دون ان اكون قد عثرت على عمل يليق بفتاتى . ولكن ، منذا الذى كان يتصور ـ فى هذا العالم على سعته ـ ما اتخذه هذا العمل من شكل يعز على العقل أن يصدقه ، أو الخطوات العجيبة التى انسقت بها الى اتيانه ؟ !

٢ ـ « جرب حظك مع الاستاذ تشالينجر ! »

• اعتدت دائما أن أحب « مكاردل » الشيخ ، ذا الظهر المستدير ، والرأس الاحمر .. رئيس تحرير الاخبار فى « الجازيت » . وكنت أرجو أن يحبنى . صحيح انه لم يكن الرئيس الحقيقى للصحيفة ، بل كان مساعده الاول .. ولكنه كان الشخص الذى نتصل به . وقد أومأ الكهل برأسه ـ اذ دخلت المكتب ـ ودفع منظاريه (نظارته) الى قمة جبهته المجردة من الشعر ، وقال بلهجته الاسكتلندية الرقيقة : « حسنا يا سيد مالون .. يبدو ـ من كل ما اسمع ـ انك تسير

موفقا جدا » . فشكرته ، بينما استطرد قائلا : « لقد كانت مقالتاك الاخيرتان بديعتين . انك اوتيت موهبة صادقة فى الوصف . ما الذى شئت أن ترانى من أجله ؟ »

ـ جئت أسألك صنيعا . هل ترى يا سيدى أن من الممكن أن توفدنى فى مهمة ما للصحيفة ؟ اننى كفيل بأن أبذل قصارى وسعى لتحقيقها ، ولآتى لك بمادة طيبة .

ـ وأى نوع من المهام يجول بخاطرك يا سيد مالون ؟

ـ أى شىء يا سيدى ينطوى على مغامرة وخطر . اننى على استعداد لان أبذل خير ما فى وسعى حقا . وكلما كانت شاقة ازدادت ملاءمتها لى

ـ يبدو انك تواق لان تضيع حياتك

ـ بل لان أبرر وجودها ، وأثبت أن لها غاية يا سيدى

ـ عجبا يا سيد مالون . هذه روح جد متسامية للغاية . أخشى أن يكون زمن مثل هذه الامور قد ولى ، فان جميع البقاع الخاوية فى الخريطة قد امتلأت ، ولا تكاد النتيجة تبرر النفقات التى بذلت من أجلها . ومع ذلك ، فانتظر لحظة !

وأردف وعلى وجهه ابتسامة مباغتة : « لماذا لا تجرب حظك مع الاستاذ تشالينجر ، المقيم فى (اينمور بارك) ؟ تستطيع أن تكشفه على حقيقته ، ككذاب ! حقا يا رجل ، ان هذا خليق بأن يكون بديعا ! ما رأيك فى هذا ؟ » .. واعترف بأننى بدوت مبهوتا بعض الشىء . وصحت : « **تشالينجر !.. الاستاذ تشالينجر ، عالم الحيوان المشهور ! أليس هو الذى هشم جمجمة بلونديل المحرر بصحيفة التليغراف ؟** »

وابتسم رئيس التحرير متسائلا : « وهل تحفل بهذا ؟ ألم تقل انك كنت تنشد المغامرات ؟ » . فأجبت : « كل شىء مقبول فى سبيل العمل يا سيدى » .

ـ تماما . وما أحسبه جد عنيف الى هذا الحد دائما . لقد سعى اليه بلونديل فى لحظة غير ملائمة . وقد تكون أحسن

حظا منه .

قلت : « الحق اننى لا أعرف عنه شيئا » . فقال : « عندى بضع مذكرات لارشادك يا سيد مالون ، فقد كنت أرمق الاستاذ منذ فترة » . وتناول من أحد الادراج ورقة ، وقال : « هاك موجزا عن أعماله . وسترى أنه فاز بوسام عن بحوثه فى علم الحيوان ، وهو عضو من الخارج فى عدد من الجمعيات العلمية ، وقد نشر عددا من الكتب أثار بعضها مناقشات حامية بين العلماء . ورياضته هى السير ، وتسلق جبال الالب . هاك ، خذها معك ، وليس لدى مزيد اكلفك به الليلة »

ووضعت الورقة فى جيبى ، وقلت : « لحظة واحدة يا سيدى . لست بعد على بينة من السبب الذى أقابل من أجله هذا السيد . ما الذى فعله ؟ »

ـ لقد ذهب الى أمريكا الجنوبية ، فى رحلة فردية ، منذ عامين . ورجع فى العام الماضى . وما من شك فى أنه كان فى أمريكا الجنوبية ، ولكنه رفض أن يذكر فى أى بقاعها كان . ولديه بعض صور مشوهة ، يقال انها زائفة . وقد شرع يروى مغامراته بطريقة مبهمة ، فاذا هم أحد بأن يكشف مواطن ضعف ، أغلق فمه . **ولقد اشتد به الغضب حتى أنه ليعتدى على أى أمرىء يوجه أليه أسئلة . وأنه ليلقى بالمخبرين الصحفيين من أعلى السلم . وفى رأيى أنه اما كاذب واما مجنون .** ولعل شيئا رائعا قد حدث ، ولكننى أشك فى ذلك . هذا هو رجلك يا سيد مالون ، فانطلق الآن ، وانظر ماذا تستطيع أن تستخلصه منه . انك كبير بحيث تستطيع أن تعنى بنفسك !

وانتهى الحديث ، فسرت الى المنتدى . وكانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة ، والقاعة الكبرى مليئة . وسرعان ما لمحت « تارب هنرى » المحرر بصحيفة « نيتشر » ـ أى الطبيعة ـ فسرت اليه مباشرة ،واندفعت لفورى الى هدفى ،

فسألته : « ماذا تعرف عن الاستاذ تشالينجر ؟ » . فقطب حاجبيه فى استهجان علمى ، وقال : « تشالينجر ؟ .. لقد كان تشالينجر هو الرجل الذى جاء من أمريكا الجنوبية بقصة غريبة ؟ » .

وسألته : « أية قصة ؟ » . فأجاب : « آه ، انها من قبيل اللغو .. عن بعض حيوانات عجيبة اكتشفها » . وعدت أسأله : « ألديك مزيد عنه ؟ » . فقال: « انك لتعرف اننى تخصصت فى علم الجراثيم ، فلست أهتم بشىء خارج نطاق منظارى « الميكروسكوب » . ولكن تشالينجر من أولئك الرجال الذين لا يستطيع امرؤ أن يتجاهلهم . انه من المهارة بقدر ما يصورونه حقا .. انه حاشدة كهربائية (بطارية) مفعمة بالقوة والحيوية ، ولكنه محب للشجار ، سىء الطباع ، عالم لا ضمير له ، يؤثر بعض النظريات ولا يحجم حتى عن تزييف الصور لاثباتها . وهذا ما فعله فى مسألة أمريكا الجنوبية »

ـ هل لك أن تذكر لى احدى نظرياته المفضلة ؟

ـ ان لديه آلافا ، ولكن أحدثها نظرية عن تطور الاحياء ، وقد أثار شجارا مروعا من أجلها فى (فيينا) .. على ما أعتقد

ـ ألا تستطيع أن تزيدنى ايضاحا ؟

ـ ليس الآن ، ولكن هناك ترجمة لما جرى ، وهى موجودة فى المحفوظات المبوبة بادارة صحيفتنا . فهل يروق لك أن تأتى ؟

ـ هذا عين ما أبغى ، فان على أن أحصل على حديث منه ، وانى لفى حاجة الى شىء استدرجه به . انه لصنيع طيب منك أن تقلنى بسيارتك ، وسأذهب معك ، اذا لم يكن الوقت متأخرا

وبعد نصف الساعة ، كنت أجلس فى ادارة الصحيفة ، وأمامى مجلد ضخم . ولما كنت قد أهملت تعليمى العلمى بعض الشىء ، فقد عجزت عن تتبع النقاش بين الاستاذ

والعلماء الآخرين . بيد أن « **احتجاجات** » و « **ضجيج** » و « **استنجاد عام بالرئيس** » كانت ثلاثا من أوائل العبارات المحوطة بالاقواس ، التى استلفتت نظرى . وبدا لى معظم ما كتب ألغازا لم توح الى عقلى بمعنى محدد . فقلت للزميل الذى عاونني ، بلهجة مؤثرة : « لو اننى استطعت أن أعثر على جملة طيبة دسمة واحدة ، توحى بفكرة معينة لعقل بشرى ، لاكتفيت بها . آه ، أجل ، هذه العبارة تصلح ، اذ يلوح لى أننى أكاد أفهمها بصورة مبهمة . لسوف أنقلها ، وستكون هذه هى همزة الوصل بينى وبين الاستاذ الرهيب »

ــ أليس بوسعى أن أؤدى شيئا آخر ؟

ــ بلى . اننى أعتزم الكتابة اليه ، فلو استطعت أن أصوغ خطابى هنا ، وان أستخدم عنوانك ، لاضفى عليه هذا أهمية

ــ لسوف يؤدى هذا الى حضور الرجل الى هنا ، فيثير شغبا ، ويحطم الاثاث .

ــ لا ، لا . . لسوف ترى الخطاب . . أؤكد لك أنه لن يكون فيه مدعاة للشجار

واستنفد الخطاب منى جهدا ، ولكنى أشهد لنفسى بأنه لم يكن بالغ السوء عندما فرغت منه . وقرأته على زميلى فأقره . **فقد طلبت ــ فى ايجاز ــ أن أتشرف بزيارة الاستاذ ، بعد موافقته ، فى الساعة الحادية عشرة صباحا من اليوم بعد التالى (الاربعاء) لاستوضحه رأيا كان قد طرحه للبحث ، فى المحاضرة التى ألقاها فى (فيينا) .**

وقال صديقى الناقد المتخصص فى علم الحشرات : « ولكن ، ما الذى ترمى اليه ؟ » . فقلت : « ان أصل الى هناك . فقد أجد منفذا بمجرد أن أصبح فى حجرته . بل اننى ربما اعترفت له بصراحة ، وسيدغدغ هذا مشاعره (أى يستهويه ويلينه) ، اذا كان رياضيا » . فقال زميلى ساخرا : « سيدغدغها حقا ! . . الارجح أنه هو الذى سيتولى الدغدغة . انما تحتاج الى

الاكتفاء بالمراسلة ، أو الى ارتداء زى لعب الكرة المستخدم فى أمريكا (١) .. حسنا ، مع السلامة . سأترك لك رده هنـــا فى صباح الاربعاء ، اذا جشم نفسه عناء الرد . ولكنى ما زلت أعتقد أنه من الخير لك أن لا تتلقى من هـذا الرجل ردا على الاطـلاق ! »

٣ ـ « انه شخص صعب المراس تماما ! »

• **وعندما** ذهبت فى يوم الاربعاء ، كان ثمة خطاب يحمـل غلافه اسمى مكتوبا بخط بدا كأنه سياج من أسلاك شائكة . وفضضته ، وقرأته عاليا على « تورب هنرى » الذى كان قد جاء مبكرا ليستمع الى نتيجة اجترائى . **وكان الخطاب موقعا باسم « جورج ادوارد تشالينجر » ، وقـد قال فيه أن الرأى الذى نقلته عن محاضرته ما كان ليخفق فى ادراكه سوى عقل أقل من مستوى الذكاء البشرى . على أنه اذا كانت ثمة حاجة الى ايضاح ، فانه وافق على أن يقدمه لى فى الســـاعة التى حـددتها** ، وان كانت الزيارات والزائرون ـ على اختـــلاف أنواعهم ـ من أبغض الامور اليه .. على أن أرى غلاف خطابه الى خادمه « أوستن » عندما أقوم بالزيارة ، لانه كان مضطرا الى أن يتخذ كل حيطة ليحمى نفسه من المتطفلين الاوغاد الذين يسمون أنفسهم « صحفيين » !

وكانت الساعة قد أشرفت على العاشرة والنصف قبل أن أتسلم الرسالة ، ولكن احدى سيارات الاجرة أقلتنى فى وقت مناسب لموعدى . وكان بيتا مهيبا ، ذلك الذى استقررنا أمامه ، وكانت النوافذ ذات الستائر الثقيلة تنم عن تجمع معالم الثراء ، لدى هذا الاستاذ المخيف . وفتح لى الباب سائق السيارة الذى كان يملأ الفراغات التى تركها الخـدم الذين فروا من خـدمة

---

(١) تلعب كرة القدم فى أمريكا بأسلوب خشن ، ولذلك يكون الزى الذى يرتديه اللاعبون ، بحيث يقيهم عواقب الخشونة .

الأستاذ .

وصعد بصره فى ، بعين زرقاء متفحصة ، ثم تساءل : « أأنت مرتقب ؟ » . فأجبت : « على موعد » . وعاد يسأل : « أمعك خطابك ؟ » . وأظهرت له الغلاف فقال : « أصبت ! » . وبدا أنه كان شخصا مقتصدا فى كلامه .. وتبعته فى الردهة ، واذا بسيدة صغيرة الجسم ، سوداء العينين ، تستوقفنى فجأة ، وهى تقول : « لحظة واحدة .. تستطيع أن تنتظر قليلا يا أوستن » . ثم استطردت ملتفتة الى : « هل لى أن أسأل يا سيدى ، عما اذا كنت قد قابلت زوجى من قبل ؟ »

— لا يا سيدتى ، لم أظفر بالشرف

— اذن فأعتذر لك مقدما . ومن واجبى أن انبئك بأنه صعب المراس تماما .. مستحيل التفاهم معه اطلاقا . واذا ما أنذرت مقدما ، فستكون أكثر استعدادا لان تكون صبورا معه

— هذا منتهى الانصاف منك يا سيدتى

— ابرح الحجرة مسرعا اذا بدا ميالا الى أن يكون عنيفا . لا تتريث لتحاججه ، فقد أصيب عدة أشخاص بضر من جراء ذلك . وما أحسبك رغبت فى زيارته بشأن أمريكا الجنوبية ؟

فقلت : « بل بشأنها » . فهتفت : « واها لى ! هذا أخطر موضوع لديه . اننى متأكدة من أنك لن تصدق كلمة مما يقول ، ولكن لا تقل له ذلك . تظاهر بتصديقه ، لتستطيع أن تمضى بسلام ! » . وبهذه الكلمات المشجعة ، أسلمتنى السيدة الى « أوستن » الذى قادنى الى نهاية الردهة . وكانت ثمة طرقة على الباب ، أجاب عنها صوت كخوار الثور ، فاذا بى أمام الاستاذ وجها لوجه . وبهت فجأة لشخصيته العارمة القوة ، كما أن حجمه الضخم جعلنى أشهق مأخوذا .. **كان رأسه هائلا ، بل كان أكبر رأس قدر لى أن أراه على جسد آدمى . وكانت له لحية سوداء طويلة متهدلة على صدره . أما عيناه فكان لونهما أزرق يخالطه رمادى ، وكانتا جد**

صافيتين ، وجد نفاذتين ، وجد متسلطتين .. ثم كان ثمة كتفان ضخمتان عريضتان ، وصدر كالبرميل ، هى كل الاجزاء الاخرى التى بدت فوق المكتب الذى جلس اليه . وكانت يداه هائلتين ، يكسوهما شعر أسود طويل .. وكان هذا – الى جانب صوت خوار هادر – هما أول ما انطبع فى ذهنى من الاستاذ تشالينجر .

وقال وهو يصوب أوقح نظرة : « نعم ؟ .. وبعد ؟ » . فقلت فى تواضع ، وأنا أقدم غلاف خطابه : « لقد كنت بالغ الكرم اذ اتحت لى لقاءك يا سيدى » . فأخرج خطابى من مكتبه ، وبسطه أمامه ، وقال : « آه ، أأنت الشاب الذى لايفهم الانجليزية البسيطة ؟ .. أفهم أنك من الذكاء بحيث تقر استنتاجاتى العامة » . فقلت : « كل الاقرار يا سيدى .. كل الاقرار ! »

– حسنا يا سيدى ، لنفعل ما نستطيع لنقصر أمد زيارتك التى لا تكاد تكون سارة لك ، والتى هى جد مزعجة لى . لقد كانت لديك بعض تعليقات أردت أن تبديها على أحد آرائى . فهيا ، هيا !

فقلت مبتسما : « اننى – بطبيعة الحال – مجرد طالب .. بل ينبغى أن أقول أننى لا أكاد أعدو ان اكون مستفسرا مشوقا الى ايضاح . وفى الوقت ذاته ، لاح لى انك كنت قاسيا بعض الشىء فى حملتك على الاستاذ وايسمان . ألم تتجه الحقائق العامة – منذ ذلك الحين – الى .. أعنى ، الى تعزيز موقفه ؟ » . وهنا اتخذ الاستاذ مسلكا ينطوى على وعيد ، ومال الى الامام فى تحمس شديد ، وبدأ يعد على أصابعه عددا من الدواعى ، مستخدما كلمات علمية لا سبيل الى فهمها ، وكأنما كان يدلل على وجهة نظره . ووافقت عليها جميعا ، دون أن أفهم كلمة مما قال . ثم استطرد فى اقناع لطيف : « وعلام يدل هذا ؟ » . فغمغمت : « آه حقا ، علام ؟ .. على

ماذا يدل ؟ » . فســـألنى : « أأخبــرك ؟ » . وأجبت : « أرجو ! »

وانفجر هادرا فى غضب مفاجىء : « أنه يدل على أنك مخادع .. صحفى متلصص وضيع ، يجب أن يرمى خارج البيت . أتعرف عما كنت أكلمك يا سيدى .. هذر علمى ! .. وقد وافقت على كل كلمة قلتها » . وقفز على قدميه وفى عينيه غضب جنونى مهتاج ، وتقدم نحوى فى بطء . ودهشت ــ حتى فى هذه اللحظة الحافلة بالانفعال ــ اذ اكتشفت أنه كان رجلا قصيرا ، لا يعلو رأسه على كتفى . ولاح لى أن حيويته الهائلة قد انتشرت كلها فى قصره وعرضه وعقله .

وقلت وأنا أتراجع الى الباب وافتحه : « اسمع يا سيدى ، لك أن تكون وقحا كما يحلو لك ، ولكن هناك حدا . أنك لن تعتدى على » . فصاح : « ألن أعتدى ؟ » . وفى تلك اللحظة بالذات اندفع نحوى . ومن حسن الحظ اننى كنت قد فتحت الباب والا كنا قد اخترقناه اختراقا . وتدحرجنا فى الردهة ، مكتسحين مقعدا فى طريقنا ، ثم اندفعنـــا به نحو الشارع . وكان فمى ممتلئا بلحيته ، واذرعنا مشـــتبكة ، وجســـدانا ملتويين معا ، والمقعد المزعج يمد ســـيقانه حـولنا . وكان « أوستن » اليقظ قد فتح باب البهو ، فهـوينا الى الدرجات الامامية رأسا على عقب . وتحطم المقعد أربا ، فانفصلنا على الرصيف . ووثب مسرعا على قدميـه ، ملوحا بقبضـتيه ، وهو يتنفس بعناء .. وكان خليقا بالصراع أن يستمر ، لولا أننى انقذت منه ــ لحسن حظى ــ فى الوقت المناسب . فاذا بشرطى الى جوارنا ، وسجل المخالفات فى يده .

وقلت مشيرا الى الاستاذ : « لقد هاجمنى هذا الرجل » . فسأله : « هل هاجمته ؟ » . وشهق الاستاذ بعناء ، ولم يقل شيئا ، فقال الشرطى : « ومع ذلك ، فليست هـذه هى المرة الاولى . لقد كنت فى مأزق ــ فى الشـــهر المـاضى ــ للشىء

ذاته . لقد أصبت عين هذا الشاب بكدمة . أتشكوه رسميا يا سيدى ! » . فقلت : « لا ، فأنا الملوم . لقد تطفلت عليه ، ولقد أنذرنى من قبل ! »

وأغلق الشرطى سجله ، وقال وهو ينصرف : « لا تتح لنا مزيدا من هذه الحوادث » . فتأملنى الاستاذ وفى أغوار عينيه السوداوين شىء من السرور ، وقال : « أدخل ! اننى لم أفرغ منك بعد ! » . فتبعته الى داخل البيت ، وأغلق أوستن الباب خلفنـــا !

٤ ـ « انما هو أضخم شىء فى الدنيا ! »

لم يكد الباب يغلق ، حتى اندفعت مسز تشالينجر من غرفة المائدة . وكانت المرأة الضئيلة الجسم فى حالة هياج ، فقطعت الطريق على زوجهـا ، كدجاجة مهتاجة أمام كلب ضخم . وكان من الجلى أنها شهدت خروجى من الدار ، ولكنها لم تلمح عودتى . وصرخت : « أيها المتوحش جورج ! لقـد آذيت ذاك الشاب اللطيف » . فأشار بابهامه الى ما وراءه ، وقال : « ها هو ذا خلفى سليما معافى ! » . وارتبكت السيدة قائلة : « لكم أنا آسفة .. اننى لم أرك » . فقلت : « أؤكد لك ياسيدتى اننى بخير »

ـ لقد ترك كدمة على وجهك المسكين ! أواه ياجورج ، اننا لا نلقى سوى المتاعب ، من أول الاسبوع الى آخره ، فكل امرىء يكرهك ويهزأ منك .. لقد استنفدت صبرى !

فألقى يدا ضخمة على كل من كتفيها وقال : « كل ما تقولين صحيح تماما ، ومن الممكن أن أغدو أحسن حالا اذا اتبعت نصحك ، ولكنى لن أكون « جورج ادوارد تشالينجر » اذ ذاك . ان فى الدنيا كثيرا من الرجال الذين يفضلوننى ياعزيزتى ، ولكن ليس فيها سوى « جورج ادوارد تشالينجر » واحد ! ومن ثم فاقنعى به ! » . وقبلها فجأة ـ بصوت عال ـ ثم تحول الى قائلا فى وقار: « والآن ياسيد مالون ، تفضل ! »

وعدنا ندخل الغرفة التى تركناها فجأة منذ عشر دقائق . فأغلق الاستـاذ الباب خلفنا بعناية ، وأشار لى نحو أحد المقاعد الوثيرة ، وقدم لى سـيجارا فاخرا ، وجلس هو الى مكتبه ، وشرع يقول : « والآن ياسيد مالون ، اضطجع فى مقعدك ، واصغ بانتبـاه الى ما قد أرى قوله لك . فاذا عنت لك أية ملاحظة ، فاستبقها حتى نهـاية كلامى . فأما عن عودتك الى دارى ـ أولا ـ

فان السبب يكمن فى جوابك للشرطى ، اذ اكتشفت فيه شيئا من الشعور الطيب – من ناحيتك – يفوق ، على أية حال ، ما اعتدت أن ألقاه من أهل مهنتك · ولقد أعطيتنى – باعترافك بأن الذنب فى الحادث ذنبك – دليلا على قدر من سعة الأفق ، اجتذب هوى من نفسى · ولهذا السبب سألتك أن تعود معى ، اذ عقدت العزم على أن أزداد تعرفا اليك »

أدلى بكل هذا وكأنه أستاذ يحاضر فصلا دراسيا ، ثم مال بنفسه فجأة ، وراح ينبش بين الاوراق التى كانت على مكتبه · وسرعان ما واجهنى ممسكا فى يده بما بدا لى أنه كراسة للرسم ، ولكننى لاحظت أنهـا كانت بالية وممزقة · وقال : « سأتحدث اليك عن أمريكا الجنوبيـة · وأحب أن تفهم أن شيئا مما أنبئك به الآن يجب ألا ينشر على النـاس ، ما لم آذن لك · أفهذا واضح ؟ »

وجعلتنى لهجته – والطريقة التى كان يحدق بها فى وجهى – أفهم اننى غير مخير . فقلت : « حسنا ياسيدى ·· أعدك ! » · فقـال : « بشرفك ؟ » · قلت : « بشرفى ! » · وحدجنى وفى عينيه الوقحتين شك ، ثم قال : « ومع ذلك ، فما الذى أعرفه عن شرفك ؟ » · فصحت مغضبا : « لعمرى ياسيدى، اننى لم أتلق مثل هذه الاهانة فى حياتى » · فبـدا انه مغتبط ، أكثر منه مستاء ، من ثورتى · وقال :

– حســنا ، دعنى أبدأ · فلعلك – أولا – قد علمت اننى قمت برحلة الى أمريكا الجنوبية منذ عامين · وان المنطقة المحيطة ببعض أجزاء (الأمازون) لم تكتشف – الا لماما – حتى الآن ، فكانت مهمتى ان أزور هذه البقـاع الداخلية التى لم تعرف الا قليلا ، وان أفحص حياتها الحيوانية · وفيما أنا عائد – وقد أتممت عملى – سنح لى أن أقضى ليلة فى قرية هندية قريبة من جدول يصب فى النهر الرئيسى · وكان الاهالى شديدى الود لى ، لاننى كنت قد أبرأت بعض مرضاهم فى طريقى الى أعالى النهر ، ومن ثم فاننى لم أدهش اذ وجدتهم يرتقبون عودتى فى لهفة · وفهمت من اشاراتهم أن شخصا ما كان بحاجة عاجلة الى خدماتى الطبية ، فتبعت الزعيم الى أحد أكواخه · وعنـدما دخلت ، وجدت أن المتوجع الذى دعيت لاسعافه قد مات فى تلك اللحظة · ولدهشتى ، وجدت انه لم يكن هنديا ، وانما كان رجــلا أبيض · وكانت حقيبته ملقاة الى جوار فراشه ، ففحصت محتوياتها · وكان اسـمه مكتوبا بداخلها ·· « ميبل هوايت–من (ليك افنيو) – ديترويت ، بولاية ميتشجن »· انه اسم أرانى على استعداد دائما لأن أرفـع قبعتى احتراما له · وكان من الجلى أن الرجل كان فنانا يبحث عن مادة للرسم · فقد كان بداخل حقيبته


هضبة ميبل هوايت
معسكر
الصخرة الهرمية
اشجار الغاب الهندى
الطائر الرمادى الهائل رؤى هنا
غابة
غابة
زوارق مخبأة هنا
القرية الهندية التى ماتت فيها ميبل هوايت
الهنود قارعو الطبول
الجنادل التى فقد عندها تاليجر عيناته فى الرحلة الأولى
نخيل اماى
غابة
نهر الأمازون
نهر اماناوس

بعض صور لمناظر طبيعية على النهر ، وصندوق للأصباغ ، وصندوق للطباشير الملون ، وبعض الفراجين ، وتلك العظمة المقوسة الملقاة على محبرتى ، ومسدسى ٠٠ وفيما كنت أتحول عنه ، لمحت شيئا كالمفكرة يبرز من صدر سترته ٠ وهذه هى ٠٠ اننى أسلمك اياها ، وأسألك أن تقلبها صفحة صفحة ، وأن تفحص محتوياتها ٠

وكانت كراسة رسم صغيرة ، فتحتها بشوق ، أملا فى أن أرى شيئا ذا أهمية ٠ ولكنها كانت تضم صورا للهنود ، وطرق معيشتهم ، ودراسات تصويرية لنساء وأطفال ، ومجموعات متلاحقة من رسوم الحيوان ، ثم — فى النهاية — صفحتين متقابلتين من رسوم بعض الزواحف التى لا تسر الناظر ٠ فقلت وأنا أشير اليها : « أهذه تماسيح ؟ » ٠ فأجاب : « لا ، انها قواطير (١)، فليس فى أمريكا الجنوبيـــة تماســيح بالمعنى المعروف ٠ والفــارق بين النوعين ٠٠٠ »

— انما قصدت اننى لا أرى فى كراسة الرسم هذه شيئا غير عادى

فابتسم ، وقال : « تأمل الصفحة التالية » ٠ واذا بها صورة ملء الصفحة، لمنظر طبيعى ، وقد بدت فى المقدمة نباتات خفيفة الخضرة ٠ وكانت الارض تمتد بارتفاع وتنتهى بخط من المرتفعات الصخرية الشـاطئية ، ذات اللون الداكن الحمرة ٠ وكانت هذه المرتفعات الصخرية — الغريبة الشكل — مكسوة بالنبات ، وتمتد فى سياج متواصل بعرض أفق الرسم ٠ وفى بقعة منها ، كانت ثمة صخرة عالية على شكل هرم ، تعلو قمتها شجرة عظيمة ٠ وبدت هذه الصخرة منفصلة عن الصخور الشاطئية بشق ضيق ٠ وقال الاستاذ : « ما رأيك ؟ » ٠ فقلت : « انه ولا شك منظر عجيب ، ولكننى لست من علماء طبقات الارض لأقول انه رائع » ٠ فهتف : « رائع !٠٠ ان العقل لا يكاد يصدقه ٠ ما قدر لأحد على البسيطة أن يحلم بامكان وجود شىء كهذا ٠٠ والآن ، أنظر الصفحة التالية ! »

وقلبت الصفحة ، ثم هتفت فى دهشة ٠ كانت ثمة صورة ملء الصفحة ، لأغرب مخلوق غير عادى رأيته ٠ كان الرأس كرأس طائر ، والجسد كجسد تمساح منتفخ ، والذنب — الذى كان معظمه مستلقيا على الارض — قد أوتى أشواكا مشرعة الى أعلى ٠ أما الظهر فكان مقوسا ، وكان ثمة خط من حواشى عريضة مرنة من الجلد المتين ، ذات ثلاثة جوانب ، متتابعة فى تلاصق ، وممتدة من الرأس الى منبت الذنب ٠ وأمام هذا المخلوق ، وقف انسان قزم يحملق فيه

---

(١) القاطور نوع من التمساح لا يوجد فى غير أمريكا ٠

وصاح الاستاذ وهو يفرك يديه فى شعور المنتصر : « حسنا ، ماذا ترى فى هذا ؟ » . فقلت : « أرى ان الرجل كان ثملا حين رسم هـذا الحيوان الفظيع » . ولكنه قال : « لا ياسيدى ، ماهذا بالتفسير الواضح . ان الصورة قد أخذت عن الحياة فعلا » . وودت أن أضحك لولا اننى كنت خائفا من أن يلقى بى الى خارج الحجرة ثانية . فقلت : « بلا شك .. بلا شك . ولكن هذا الشخص الضئيل الجسم يحيرنى . يخيل الى أن الرجل جد صغير »

فصاح الاستاذ وهو يضع اصبعه المكسوة بالشعر على الصـورة : « أنظر هنا ! ألا ترى النبات الذى خلف الحيوان ؟ انه نخلة ، وهى ترتفع عادة الى ستين قدما . أفلا ترى ان الانسان قد رسم ليكون معدلا تقاس الارتفـاعات بالنسبة اليه ؟ فلنفترض أن طوله تجاوز خمس أقدام ، فان النخلة أكبر منه خمس مرات .. وهو ما يجدر بالمرء أن يتوقعه ! » . فهتفت : « يا للسماوات الرحيمة !.. اذن فلابد ان يكون هذا الوحش أكبر من الفيل عشر مرات . يقينا يا أستاذ اننا لا نملك أن نطرح عنا كل خبرة الجنس البشرى ، بسبب رسم وحيد ، من فنان امريكى هائم ، ربما كان قد رسمه تحت تأثير حمى أو شراب قوى »

فقال الاستاذ : « جميل جدا . لنترك الامر عند هـذا الحد . وسأطلب اليك الآن أن تتأمل هاتين العظمتين بامعان » . وأسلمنى العظمتين . كانت احداهما أتخن من ابهامى ، وتبلغ ست أقدام طولا . وهى العظمة التى كان قد وصفها على انها جزء من مقتنيات الميت . أما الاخرى ، فكانت صغيرة فى حجم الفولة . وقال : « بقدر ما يسعنى الحكم ، أرى ان الصـغيرة عظمة انسان ، وهى شبيهة تلك التى تمسك بها فى يدك ، والتى تمت ـ بلا شك ـ الى هذا المخلوق الفظيع . وهـذا يتيح لك فكرة عن حجم الحيـوان ! » . فتساءلت : « ألا يمكن أن تمت الى فيل ؟ »

ـ لا تهرف ، فان الفيلة غير موجودة فى أمريكا الجنوبية . ان العظمة تمت الى حيوان كبير جدا ، قوى جدا ، متوحش جدا ، يعيش على سطح الارض ، ولكنه لم يصل بعد الى انتباه العلم . أفما زلت غير مقتنع ؟

ـ اننى مهتم أعمق اهتمام .. على الاقل !

ـ اذن فليس أمرك بالميئوس منه . سنترك الآن الامريكى الميت ، ونمضى فى قصتى . كانت ثمة دلائل تشير الى الاتجاه الذى جاء منه الرحالة الميت . فالأساطير الهندية تتحدث عن أرض غريبة تعيش فيها « الكوروبورى » .. روح الغابات . وهى شئ رهيب .. شئ يجب تجنبه . وكل العشائر تجمع على اتجاه الموقع الذى تعيش فيه « الكوروبورى » ، وهو عينه الذى قدم منه الامريكى . وأدركت لتوى ان ثمة شيئا رهيبا فى تلك النـاحية ، فكان من

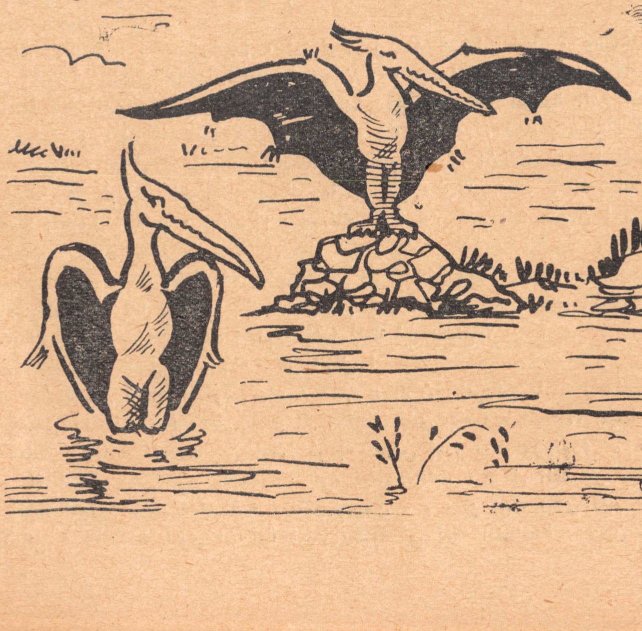
واجبى أن أتبين ما هو ٠

وتساءلت : « فماذا فعلت اذن ؟ » ٠وأجاب : « أغريت ـبالهدايا والوعيد ـ اثنين من الهنود على أن يعملا كدليلين لى ، وشرعت فى رحلتي فى اليوم التالى٠ وبعد كثير من المخاطرات ، انتهينا أخيرا الى منطقة لم يقدر لأحـد البتة أن يصفها أو يزورها ، اللهم الا ذلك الرحالة التعس الحظ ٠ هل تتكرم بتأمل هذه ؟ » ٠ وأسلمنى صورة فوتوغرافية حائلة اللون ، فقلت : « أعتقد انهـا لنفس المكان المرسوم فى الكراسة » ٠ فقال الاستاذ : « تماما ٠ ولقد عثرت على آثار لمعسكر الرجل ٠ والآن ، أنظر الى هذه ! » ٠ كانت صورة للمنظر ذاته ، التقطت عن قرب أكثر ، ومع انها لم تكن واضحة ، الا اننى استطعت أن أرى بجلاء الصخرة التى على شكل الهرم ، والشجرة التى تعلو قمتها ٠ فقلت : « لست أرتاب فيها اطلاقا ! »

ـ حسنا ، هذا مكسب لا بأس به ٠ هل تلاحظ شيئا على قمة الصخرة ؟

ـ شجرة هائلة ، عليها طائر ضخم

فأسلمنى عدسة مكبرة ٠٠ وقلت وأنا أنظر خلالها : « يبدو ان له منقارا كبيرا ٠ وأرى انه من نوع البليكان ! » ٠ فقال : « انه ليس من نوع البليكان،



بل ولا هو بطائر فى الواقع . لقد نجحت فى صيده ، فكان هو الدليل القاطع الوحيد على تجاربى ، الذى استطعت أن أحضره معى » . فسألته مشوقا : « اذن فهو لديك ؟ » . وكان جوابه : « كان لدى . ولكنه ضاع فى النهر ، عندما غرق قاربنا . ولقد حاولت أن أنقذه ، ولكن الشيء الوحيد الذى بقى فى قبضتى هو جزء من جناحه ، أضعه الآن أمامك »

ومن أحد الأدراج أخرج شيئا بدا كالقسم الأعلى من جناح خفاش كبير ، كان طوله قدمين على الاقل . فقلت : « انه خفاش فظيع ! » . فقال : « لا .. ما هو بالخفاش ، ولا هو بطائر . انه أفعى طائرة من العهد اليوراسى (١) ، وقد ظهرت على هذه الارض منذ مائة وخمسين مليونا من السنين ، واسمها العلمى « بتيروداكتيل » . ها هى ذى صورة لها كما عرفناها ، وتستطيع أن تقارن جناحها بالقطعة التى فى يدك ! » . وغشيتنى موجة من العجب وأنا أتأمل الصورة .. واقتنعت ، فقلت : « انما هذا أعظم شيء سمعت به ! انك كولمبس العلم ، الذى اكتشف العالم المفقود . انني لشديد الأسف حقا ، اذا كنت قد أبديت ارتيابا فيك . وبعد ياسيدى ، فماذا فعلت ؟ »

وبدا الاستاذ راضيا جدا ، فقال : « كان ذلك فى فصل الامطار ياسيد مالون ، وكانت مؤونتى قد استنفدت ، فارتدت جزءا من هذه المرتفعات الصخرية الهائلة ، ولكنى عجزت عن أن أجد طريقة لتسلقها . أما الصخرة الهرمية - التى رأيت فوقها « البتيروداكتيل » واصطدتها - فكانت أيسر تسلقا . ولما كنت من متسلقى الجبال - الى حد ما - فقد استطعت أن أصل الى منتصف الطريق الى قمة الصخرة . ومن هذا الارتفاع ، سنحت لى فرصة أفضل لمشاهدة السهل الممتد فوق قمة التلال ، فبدا شاسعا ، ولم أستطع أن أرى له نهاية فى الشرق ولا فى الغرب . وتحته منطقة ادغال ومستنقعات ، مليئة بالثعابين ، والحشرات ، والحمى . فهى وقاء طبيعى لهذه البلاد الغريبة ! »

- هل رأيت أى أثر آخر للحياة هناك ؟

- لا ياسيدى . ولكنا سمعنا - خلال الاسبوع الذى ضربنا فيه معسكرنا اسفل المرتفعات الصخرية - بعض ضوضاء غريبة جدا ، تنبعث من فوق المرتفعات

- ولكن المخلوق الذى رسمه الامريكى .. كيف تفسر تمكنه من رسمه ؟

- لسنا نملك سوى ان نفترض انه ولابد قد شق طريقه الى قمة المرتفعات الصخرية ، فرآه هناك . ومن هنا نعرف أن ثمة طريقا الى القمة ، وان هذه

---

(١) أحد العهود الجيولوجية

الطريق وعرة جدا ولابد ، والا لكانت تلك المخلوقات قد هبطت واجتاحت المنطقة المحيطة بالمرتفعات . يقينا ان هذا واضح !

– ولكن ، كيف تعلل وجودها هناك ؟

– أرى ان ليس هناك سوى تفسير واحد . ان أمريكا – كما قد تكون سمعت – قارة جرانيتية . ولقد حدثت عند تلك المنطقة انتفاضة بركانية عظيمة مفاجئة ، فى أحد العصور السحيقة ، فاذا بمساحة كبيرة ترتفع بكل محتوياتها عن بقية القارة .. ولم يقدر لقوانين الطبيعة أن تؤثر على الحيوانات التى على قمة هذه المساحة ، ومن ثم فقد قدر لها البقاء .

– ولكن حجتك دامغة بالتأكيد ، وليس عليك سوى ان تطرحها على السلطات المختصة

– هكذا خيل الى لسذاجتى . ولكن الامر لم يكن كذلك فان ، أحدا لم يصدق ما قلت ، وأصبح الموضوع بغيضا لدى .. فلست أود أن أتكلم فيه. على اننى سأشرع الليلة فى معالجته من ناحية أخرى . فلسوف يلقى السيد برسيفال والدرون – وهو عالم طبيعى على شىء من ذيوع الصيت – محاضرة فى قاعة المعهد الحيوانى ، عن ((تسلسل العصور)) . وقد دعيت الى حضور المحاضرة ، وقد ألقى بعض ملاحظات لمجرد الاشارة الى انه لا تزال هناك حقائق أعظم لم تعرف بعد . وآمل ان أصل – بهذه الطريقة – الى نتيجة أفضل .

فسألته فى تحمس : « هل لى أن أحضر ؟ » . فقال فى ود صادق : « بالتأكيد . وسيكون من دواعى ارتياحى أن أعرف أن لى نصيرا واحدا فى القاعة ، وان يكن جاهلا وغير أهل للموضوع . والآن ياسيد مالون ، لقد منحتك من وقتى أكثر مما كنت أعتزم . وسيسرنى أن أراك أثناء المحاضرة الليلة . وفى الوقت ذاته ، تذكر انه ليس لك أن تستغل شيئا من المادة التى أتحتها لك ، فى نشر علنى » . فقلت : « ولكن السيد مكاردل – وهو رئيس تحرير الاخبار – سيرغب فى أن يعرف ما فعلت ! »

– أخبره بما شئت . وتستطيع ان تقول له – بين ما سوف تقوله – اننى سأنقض عليه بسوط اذا هو أرسل أى امرىء آخر لازعاجى .

وأشار يأمرنى بمغادرة الحجرة .

(تابع هذه القصة المشوقة فى العدد القادم)



الطلاق .. هوايتها!

تجربة من صميم الواقع ، نقلها الكاتب الأمريكي "جوزيف انتوني"
عن سجلات الأخصائي النفساني "الدكتور لويس موبجمري"

السحر الذى كان يتبدد فى صبيحة الزفاف !

• خمس مرات تزوجت .. وخمس مرات طلبت هى الطلاق ، فأجيبت الى طلبها !.. وفى كل مرة ، كانت تشعر أن الزوج الذى اختارته هو الزوج المثالى بالنسبة لها ، وكانت ليلة الزفاف هى أسعد ليلة فى عمرها .. فاذا أقبل الصباح - صباح الزفاف - انقلب كل شىء فى نظرها ، ونفرت من الزوج ، وبدأت تفكر فى الطلاق !

هذه هى المأساة التى عرضت على المحلل النفسانى الكبير « لويس مونجمرى » ، فما زال يحللها حتى كشف عن أعجب ظواهر فى حياة الانسان .. عن أغرب آثار توافه الطفولة فى حياته . فتعال نقرأها معا ، كما أملاها العالم الكبير، على الكاتب الامريكى « جوزيف انتونى »

صداع . ونوبات اغماء

• « **انها** تبدو كربة من ربات الاغريق .. ولكنها تتصرف كمخبولة رعناء ! » .. هكذا وصف لى الطبيب « ليندا بارتليت » حين أرسلها الى عيادة التحليل النفسانى . وقد تحققت من صدق الشطر الاول من هذا الوصف ، حين دخلت « ليندا » عيادتى ، فقد كانت بديعة القوام ، جميلة القسمات ، شقراء الشعر . وجلست على حافة المقعد فى تحفظ متزمت ، حاولت أن تخفيه وراء مظهر من الاستخفاف ، فأشعلت سيجارة ، وجالت ببصرها فى الحجرة ، ثم قالت : « انها ليست كئيبة كما توقعتها ! »

وظلت تتكلم فترة ، قالت : « والآن ، ما الذى تحب أن تعرف عنى يا دكتور ؟ » . فقلت : « لنبدأ بالسبب الذى ساقك الى هنا ؟ » . فأجابت : « انما جئت لاننى رأيت أن التحليل النفسى يفتح آفاقا جديدة رائعة ! .. انها مغامرة ثقافية ! » . ولما رأت أن هذا الجواب لم يهزنى ، عادت تقول:

((آمل أن يساعدنى التحليل على أن أرى نفسى كما يراها الغير .. لقد قال لى الطبيب المعالج أنه يساعدنى على تبين بعض الاعراض المتعبة التى أستشعرها أحيانا .. أخشى أن تظننى امرأة سخيفة ، من الصنف الذى يخلق لنفسه متاعب وهمية ، لمجرد أنه لم يؤت متاعب حقيقية . ولكنى فى الواقع أصاب بنوبات صداع ضاربة ، وأشعر أحيانا — دون ما مبرر — اننى أوشك أن أروح فى اغماء .. أمر مهين !))

وهنا قلت : ((أمر مهين ؟ ! .. لماذا ؟)) . فقلت : ((لانه يجعلنى أشعر بسخف بطلات قصص العهد الفيكتورى ، اللائى كن يفقدن الوعى أو يصبن بالحمى لمجرد أن أبطالهن امتطوا جيادهم دون أن يعيروهن اهتماما .. ومع اننى — ولله الحمد — لا أفقد الوعى تماما ، ولكنه ليس بالامر السار أن أظل أخشى أن يغمى على بين لحظة وأخرى .. وما كنت لاحفل ، لولا اننى أسعى دائما الى تصحيح كل خطأ .. **خمس مرات .. خمس مرات تزوجت ، وفى كل مرة كنت أكتشف اننى ارتكبت خطأ شنيعا !))**

كانت فى كل مرة تشعر انها أسعد النساء ، ثم لا تلبث أن تشعر كأنها تفيق من حلم ثقيل ، فاذا بها فى الحضيض .. وسألتها : ((أيرجع ذلك الى عدم التكافؤ الجنسى ؟))

— لا ، وهذا ما لا يكاد يصدقه العقل .. لقد اعتدت دائما أن أرى أن الجنس أمر بديع ، عندما يكون تعبيرا عن حب صادق . وأنا ممن لا يتزوجن الا عن حب .

أبواها غريبان عنها !

• **وأخذت** فى بادىء الامر تضلل ، فقد كان من العسير عليها أن تترك الكلمات تنطلق من فمها بحرية تامة .. على أن قصة حياتها لم تلبث أن تجلت لى خلال حديثها . فلقد ولدت فى احدى المدن المتوسطة ، لاب كان مديرا لاحدى الشركات ،

كما كانت أمها رسامة موهوبة ، تعمل فى شركة تجارية . **فكان الوالدان يضطران ــ مذ بلغت ((ليندا)) الثانية من عمرها ــ الى أن يحملاها فى كل صباح الى دار جدها لابيها ، فيتركانها فى رعاية الارمل الكهل الى ما بعد العشاء ، ثم يفدان ليقلاها معهما الى دارهما ليلا .. حتى أيام العطلات كانت تقضيها مع جدها .** وكانت هذه الايام ــ كما تذكرتها ليندا ــ من أسعد أيام حياتها . فقد كان جدها يلعب لعبة الاستخفاء (الاستغماية) معها ، ويدعها فى كل مرة تمسكه ، بينما يعجز هو عن امساكها .. وكان يروى لها القصص ، ويجيب عن كل أسئلتها فى صبر ، ويصحبها للنزهة ، ويبتاع لها اللعب ، ويصنع لها الدمى .. ((كان دائما فى انتظارى ــ فى كل صباح ــ وهو متهلل الوجه . وكان يشعرنى بأنه يستمتع بصحبتى أكثر مما أستمتع أنا بصحبته !))

وفى منتصف العام السادس من عمرها ، جاء يوم لم يصطحبها فيه أبواها الى جدها ، قائلين ان الله قد اختاره الى جواره .. فقد مات ! .. ((**وكأنما انهارت الدنيا بأسرها . فما كان لى من ألوذ به . كان أبواى غريبين بالنسبة لى ، وكنت أشعر أننى عبء عليهما . وأخذت أمى توصينى بأن لا أبقى فى البيت فى غيابهما ، وتحثنى على الخروج للعب مع الاطفال ، وما درت اننى لم أكن كغيرى من الاطفال .. وقد أدرك أبناء الجيرة ذلك فكانوا يسخرون منى ، ويعاكسوننى ، ويسلبوننى لعبى . ولم أكن أعرف كيف أناضلهم ، لان اللطف والرحمة كانا كل ما عليه جدى .** وعندما ذهبت الى المدرسة ، اعتدت أن أستولى على لعب زملائى ، دون أن أرى ذنبا فى ذلك ، لاننى اعتدت ــ فى بيت جدى ــ أن أعتبر كل شىء ملكا لى . ولما علمت أمى بما كنت أفعل ، أنذرتنى بأن جدى سيغضب منى اذا لم أكف عن ذلك ، لانه كان يراقبنى من السماء .. وكنت أحلم أحيانا بأنه غاضب ، فاستيقظ باكية !))

الحب الاول .. والزواج الاول

• **ولكن** هذه الحياة كانت قاسية على أعصاب « ليندا » فبدأت تعاند أمها ، وتتعمد أن تعمل ضد رغباتها . ومع ذلك فقد أقبلت - فى المدرسة الثانوية - على هواية الفنون ، دون أن تفطن الى أنها كانت تقلد فى ذلك الابوين اللذين كانت تكرههما .. وفى المدرسـة الثانوية بدأت تنتبه الى أنها كانت تعتبر جميلة ، وأخذت تحضر بعض الحفلات ، وأن ظلت على نفورها وتوجسها من أقرانها . واستطاعت أن تتخرج فى تلك المدرسة وهى فى السـادسـة عشرة ، فانتقلت الى كلية يدرس فيها الجنسـان جنبا الى جنب . فتألق نبوغها وذكاؤها ، وان راحت تتعمـد أن لا تبدو أكثر تفوقا من زملائهـا ، حتى لا تستثير حسدهم وبغضاءهم !

وفى السنة الاولى من دراستها العليا ، التقت بشاب رياضى كان يدرس القانون ، ويدعى « بيل فلمينج » ، فسرعان ما أحبته ، وان لم تتبين مدى هيامها به ، الا حين لاحظت أن فتاة غيرها كانت تحوم حوله ، فلم تتورع عن أن تستدرجه الى التعاهد على الزواج .. وتزوجا فعلا فى اليوم التالى لتخرج « بيل » فى كلية الحقوق ، دون أن يطلع كل منهما والديه !

واستطردت « ليندا » تقول : « وابلغت غريمتى أبى اننى تزوجت من شاب معدم ، فأقبل مسرعا ، ولكنه وصـل بعد العقد . وما أحسبه الا كان مسرورا بأن تخلص منى . أما والد « بيل » فكان بالغ الكرم ، اذ أرسـل لنا حوالة مالية برقية لنفقات شهر العسل ، ثم جهز لنا مسكنا فى (نيويورك) فيما بعد، وراح يساعدنا ماليا بينما كان بيل فى فترة التدريب»

أحبت رجلا فى سن أبيها

• **وكان** « بيل » لطيفا ، عطوفا ، كريما .. ولكن شيئا

ما أفسد عليها هناءها معه . وقالت تصف ما حدث : « أن الكتب التى تدور حول الزواج ، تصوره بأنه يبعث فى الفتاة الخوف ـ فى البـداية ـ ثم لا يلبث أن يحلو ويطيب . أما بالنسبة الى ، فكان الامر على العكس . **فقد نعمت فى أول ليلة لى مع بيل بسعادة لا سبيل الى وصفها .. ولكن كل جميل بدا قبيحا عندما أقبل الصباح .. قبيحا الى درجة لا يصدقها العقل . وقد حدث ذلك عندما لمحت بيل ـ مصادفة ـ وهو يستحم ، فبدا منظره مثيرا للتقزز والاشمئزاز ! »**

وراحا يحاولان الابقاء على زواجهما ، ولكنه لم يلبث أن انتهى بعد عام ونصف عام . وكانت « ليندا » تحاول أن تزين لنفسها العلاقة الجنسية مع زوجها ، فلا تلبث أن تتقزز ، وراحت تخاصم «بيل» لاتفه الاسباب . . ثم قدرلها أن تلتقى بفريد كيمبل ! .. وكان أرملا فى الاربعين من عمره ، له ابن فى سنها هى .. **ولكنها لم تحفل بالابن قدر ما حفلت بالاب ، فقد كان حديثه من النوع الذى يروق لها ، مما هفا بعواطفها !**

ودعاها « فريد » مع زوجها لتناول العشاء فى داره ، وراح يحدثها عن الكتب ، والمسرح ، والموسيقى .. وحدث أن غادر الحجرة ليستعمل التليفون ، فلم تلبث أن تسللت خلفه ، وكمنت فى ركن معتم من حجرة المكتب ، حتى اذا فرغ من حديثه التليفونى ، خرجت من مكمنها ، واصطدمت به ، ثم ارتمت عليه وقبلته .. وارتبك الرجل وتردد ، ولكنه استجاب لها فى النهاية ! .. وأصرت بعد ذلك على الطلاق ، فلم يجد « بيل » بدا من الموافقة . وأن هى الا أيام حتى ذهبت الى (رينو) ـ مدينة الطلاق ـ وتبعها « فريد » . ولكن علاقتهما ظلت بريئة .. فما اعتادت أن تسلم نفسها الا فى نطاق الزوجية !

الطلاق الاول .. والزواج الثانى

• **وعندما** حصلت على الحكم بالطلاق ، شعرت بسعادة

بالغة .. وما لبثت أن تزوجت من « فريد » . وخيل اليها أن هذا هو الزوج المثالى حقا .. وكانت ليلتها الاولى من أمتع ليالى حياتها . ثم .. « **فتحت عينى فى ضحى اليوم التالى ، واذا بى أشعر بخجل وتقزز .. ولست أدرى أكان ذلك لاننى رأيتنا عاريين ، أو لان « فريد » بدا – فى عريه – أكبر منى سنا ، وأبعد شكلا عن « آدم » الذى كنت فى أحضانه طيلة الليل ! .. وارتجفت اذ تصورت كيف أسلمته كل كيانى وعقلى . وعندما ضمنى اليه ، شعرت بألم فى كل جسمى ، ودفعته عنى .. واضطررت الى أن أتقيأ ! .. ولم أدر ما الذى طرأ على الحب الذى خلته مثاليا ! »**

واعتادت بعد ذلك أن تحتد مع زوجها ، وأن تتصور نفسها فى أحضان كواكب سينمائيين كلما خلا اليها فى الليالى .. ولكن « فريد » كان كريما ، عطوفا ، لم يعبأ بأعماله ، وصحبها فى رحلة الى أوروبا ، عسى أن يرفه عنها ! .. وفيما كانا فى (سويسرا) ، التقت بمحام أمريكى شاب ، خيل اليها أنها توشك أن تلقى بنفسها عليه ، لولا أن ادعت المرض ، وأصرت على العودة الى أمريكا .

واستطردت تقول : « وكان أغرب ما فى الامر ، أننى كنت مريضة فعلا ! » . فاذ ذاك بدأ الصداع القاسى يشتد ، والنوبات الموحية بالاغماء تستفحل .. ولم يطل زواجها ، اذ لم تستطع أن تمضى فى الاحتمال ، رغم اشفاقها على فريد ، فصارحته بأن زواجهما قام على خطأ ، وسألته أن يوافق على الطلاق .. وكان الرجل كريما ، طيبا ، حتى لقد حاول أن يمنحها مالا تدبر به حياتها الجديدة ، ولكنها لم تأخذ سوى ما كان كافيا للرحلة الى (رينو) !

الطلاق الثانى .. والزواج الثالث

• **وفى** (رينو) سعت الى طلاقها الثانى .. وفيها التقت

برجلها الثالث « تشـــارلس كرادوك » ، وكان من أصحاب مزارع تربية الماشية ، وقد استهوتها منه خشونة أبناء الغرب (الكاوبوى) . وسرعان ما أوقعته فى شباكها ، وقد أيقنت من أنها عثرت على « الرجل اللائق لها حقا » ! .. وما أن صدر الحكم بطلاقها الثانى ، حتى كان « تشــــارلى » قد عرض مزرعته للبيع ، وكتب الى صديق له فى (نيويورك) يسأله أن يبحث له عن عمل!.. وكانت « ليندا » قد ملت الرفاهية ، التى أحاطت بها فى زواجيها السابقين ، فلذ لها أن تجـــرب الحياة الخشنة .

وفى (نيويورك) عقد زواجهما .. ومرة أخرى، خيل اليها أن الليلة الاولى كانت أمتع ليالى عمرها .. حتى اذا أقبــل الصباح ، ووقع بصرها على « تشارلى » وهو يقفز من فراشه عاريا ، ليرتدى (بيجامته) ، اذا بسعادتها تطير، واذا بها تتبين فيه شخصا غير ذلك العاشق المثالى الذى كانت تخاله !

وقضت عامين وهى تســـائل نفسها ، كيف قدر لها أن تتزوج من رجل مثله .. رغم أنه أثبت أنه رجل جد وكفاح ، واستطاع أن يفوق فى عمله توفيقا كبيرا ! .. وبعد العامين ، كانت فى طريقها الى (رينو) مخلفة وراءها رجلا مشدوها ، لم يبد لها سوى كل كرم ولطف !

الطلاق الثالث .. والزواج الرابع

• **وعندما** عادت من (رينو) بطـــلاقها الثالث ، رأت أن تغير منهج حياتها ، فالتحقت بعمل فى مؤســـسة للاعلان . وقضت عاما كاملا فى حياتها الجديدة ، ثم بدأت تلتقى بشاب كان يتناول غداءه فى نفس المطعم الذى اعتادت أن تتردد عليه ، كما أن مقر عمله كان فى نفس المبنى الذى به مقر عملهـــا . وكانت قد عاهدت نفسها على أن لا تسمح للحب بأن يدخل حياتها ، ولكن « روى داكين » ـ وهو ذلك الشاب ـ كان

وحيدا ، مرهف الحس ، يميل الى الكتب والمسرح والموسيقى ، فلم تر بأسا من أن تكثر من مقابلته .. ولكنها سرعان ما أحبته ، وما زالت به حتى تغلب على تردده وحيائه ، وعرض عليها الزواج ، وهو يعتقد أنها تراه « الرجل الوحيد الذى يصلح لها » .. وهكذا كانت تراه فعلا !

وتزوجت ! .. ومرة رابعة ، خيل اليها أن الليلة الاولى من حياتهما الزوجية هى أسعد ليالى حياتها كلها ! .. ولكنها لم تكد تستيقظ فى الصباح ، وتراه عاريا ، حتى أسرعت الى الحمام وقد أصابها غثيان عنيف .. لا لان جسده كان قبيحا أو قميئا ، وانما .. لان منظره عاريا أثار تقززها ! ..

وكان عليها ـ فى هذه المرة ـ أن تكفر عن غلطتها باحتمال الشقاء سنوات ثلاث ، حاولت خلالها أن تتشبث بأهداب الصبر ، وأن تؤدى واجباتها كزوجة ، وأن تكون كريمة ، مضحية .. ولكن « روى » لم يلبث أن فطن الى الموقف ، فأبى أن تحتمله كعبء يثقل على أعصابها .

الطلاق الرابع .. والزواج الخامس

• **وعندما** سافرت الى (رينو) للمرة الرابعة ، كانت عيناها تومضان غضبا ، لان عزة نفس « روى » أبت عليه أن يقبل تضحيتها .. وأوحى اليها الغضب بأن تغيظه ، فما أن حصلت على طلاقها الرابع ، حتى راحت تلقى شباكها على رئيس « روى » ، وكان أعزب ، محافظا ، يدعى « كنيث مكجرو » .. **وسرعان ما تبينت أنها أحبته فعلا ، فتطورت العلاقة الى .. الزواج الخامس . ولكن المأساة تكررت فى الصباح التالى لاولى لياليهما ، وكانت روح التفكير والتضحية قد وهنت لدى « ليندا » ، فلم يدم زواجها الخامس هذا سوى ستة أسابيع ، ثم شهدت (رينو) الفصل الختامى !**

ولاحظت أن أفكار « ليندا » ـ وهى مستلقية على أريكة

التحليل النفسى ، خلال الجلسات العديدة ـ كانت ترتد دائما الى الطفولة المبكرة .. الى ذكريات جدها : « كان مرحا ، حلو الدعابة .. واذا قبلنى ، كنت أشعر طيلة يومى بلذة قبلته .. وكان اذا ما رآنى مقبلة فى الصباح ، هلل ورحب وكأنه لم يرنى منذ عام .. وفى صباح صاف جميل ، قال لى : « ان الدنيا حلوة ، ولن أموت قط ! » .. وفى ذات مرة غضب منى ، فقلت له : « بالله لا تمت يا جدى ! » . واذ ذاك ابتسم وقال : « ما كنت لالعب خدعة قذرة كهذه معك .. لا ، لان أموت قبل زمن طويل جداً » .. وعاد الى مزاحه معى ! »

هكذا كان جدها ! ..

• **وفى** مرة أخرى ، راحت تحدثنى عن دعابات « بيل » ـ زوجها الاول ـ و « مقالبه » ، فسألتها : **« أكانت تذكرك بدعابات جدك ؟ »** . فكان جوابها : « الى حد ما ، مع مراعاة الفارق بين طالب رياضى شاب ، وشيخ مكتهل ! »

وحدثتنى ذات يوم عن شاب أخذ يحوم حولها ، طمعا فى أن يظفر منها بما يشتهى دون زواج .. وقد صحبها يوما الى سهرة مع شلة من أصدقائه ، فضـــايقها منهم أنهم راحوا يلقون فكاهات ماجنة قذرة .. واستطردت تقول : **« لم تكن فكاهات جدى من هذا النوع ، فقد كان من طراز فريد من الرجال .. كان قويا ، ذا روح مستقلة ، يعتمد على نفسه ، ويوحي بالاحترام أينما ذهب . وكان لا يتهاون قط فى المسائل الخلقية ! »**

وقالت أن الشاب الذى كان طامعا فيها ، حاول ذات مساء ، أن يصعد معها الى مسكنها ، فأوجست خيفة من غرضه ، ولم تشأ أن تجرح شعوره ، فزعمت أنها مريضة .. **وعندما ودعها ، شعرت بالمرض فعلا ، وبأنها توشك أن تخر مغشيا**

عليها ! .. وعبست قليلا ، ثم اردفت : « وكان هذا جزاء وفاقا على كذبى ! »

حداد ومطرقة وقلم رصاص

• **وبدا** واضحا أن نوبات الاغماء لم تكن سوى نذر تهب متيقظة عندما تكون « ليندا » معرضة لان تنتهك القوانين الخلقية التى نشأت عليها .. على أننى تركتها تكتشف ذلك بنفسها . ولكن تعليل الصداع الجبار ، لم يتجل الا بعد حين . اذ جاءت يوما تروى لى حلما ضايقها فى ليلتها السابقة : «رأيت حدادا يقف أمام سندان . وكان نصفه الاعلى عاريا ، وقد راح يطوح بمطرقته ، فدق بها السندان ثلاث مرات . ثم **أخذت منه أمى المطرقة ، وهددتنى بها ، فاختطفتها منها ، وضربتها بها مرات على رأسها ، بكل قوتى . وبدا عليها الذهول والغضب ، ولكنها لم تصب بأذى ، مما أدهشنى فنظرت الى المطرقة ، واذا بها .. مجرد قلم رصاص ! »**



وعبثا حاولت « ليندا » أن تربط بين الحلم وبين أحداث فى حياتها ، فرحت أساعدها ، متسائلا : « تقولين أن الحداد دق السندان ثلاث مرات ، أفلا يوحى اليك هذا العدد بشىء معين؟» .. وراحت تفكر طويلا ، ثم قالت : « لقد اعتدت أن أتشاءم من الرقمين ٢ و ٣ .. ولكنه مجرد وهم خرافى ! » . وفجأة ، رأيتها ترتجف ، فلما سألتها عن السبب قالت :

« أرى أن الحداد ـ الذى كان فى المنام ـ يمثل الموت ! .. وقد بدا أنه خرج من الحائط .. كان ذلك يوم وفاة جدى ، فقد مات فى الثالث من الشهر . ولست أذكر الشهر ، ولكن كان ثمة تقويم « نتيجة » على الحائط ، يحمل الرقم ٣ بحجم كبير .. وكانت تتصدره صورة لحداد .. وتحته مباشرة ، كان تابوت جدى . وقد امتلأت الحجرة بالناس ، ولم يفطن أحد منهم الى وجودى . ولكن أمى لمحتنى فغضبت ، وأمرتنى بأن أخرج .. **كذلك أذكر اننى آذيت أمى يوما بقلم رصاص! .. كنت فى الفصل الثالث من المدرسة الابتدائية ، وطلبت منا المعلمة أن نكتب موضوعا عن الام ، فكتبت : « ما أظن أن أمى هى أمى الحقيقية ، فأنا اذا رغبت فى شىء طلبته من جدى . ولكن جدى صعد الى السـماء . أما أمى فتضربنى » !..** والواقع أن كلمات أمى الجافة كانت تبدو لى لونا من الضرب . وقد غضبت أشد الغضب حين اطلعت على ما كتبت ، وأبت أن تسـمح لى بالاعتذار . وكانت قد اعتادت أن تقول أن جدى يرقبنى من السماء ، وفى هذه المرة قالت انه سيعاقبنى ، فكان هذا أقسى ما فى الامر ! »

ـ لانك اعتقدت أنه حقيقة .. أليس كذلك ؟

ـ لا ، وانما لاننى شعرت بأن قولها ينال من جدى ، فما آمنت مرة بأنه يقوى على الاسترسال فى الغضب منى .. كان مثال الفهم والكرم والرأفة !

« لعبة قذرة » .. من جدها !

• **وفى** جلسة أخرى ، ظهر أنها كانت تشعر بالصداع كلما كانت مضطرة الى أن تواجه مهمة دفع كشوف الحساب .. وكشف الحساب بالانجليزية « بيل » .. وكان اسم التدليل لزوجها الاول « بيل » ! .. قلت : « لعلها مجرد مصادفة ، ولكن .. هل تشعرين بالصـداع قبل الدفع أو بعده ؟ » .

فقالت : « اننى أتلقاها فى أول الشهر ، وأحاول أن أفرغ من تسديدها فى اليوم الثانى ، أو الثالث ! »

وهكذا كان يوم وفاة جدها هو سبب الظاهرة الثانية من مرضها الجسدى ، ولكنه كان يتوارى وراء مظهر آخر .. مظهر « الروتين » المألوف فى الايام الاولى من كل شـــهر .. تلقى كشوف الحساب وتسديدها !

وبكت « ليندا » لاننى أنكأ جراحها بدلا من أن أساعدها ، فقلت : « أترينني أتعمد ايذاءك ؟ » . فبكت من جديد ، وقالت : « لا .. ما من أحد يرغب فى ايذائى . كل امرىء يحب أن يكون كريما ، رفيقا ، لطيفا معى .. كل امرىء يحبنى ويفكر فى خيرى »

ـ ومن تقصدين بـ « كل امرىء » ؟

ـ أنت ! .. أو هكذا يخيل اليك .. كأنك ملاك بلا أجنحة ، تدعى أنك تعمل لهناء « ليندا » المسكينة ، فى حين أنك تفكر فى « الخدعة القذرة » التالية !

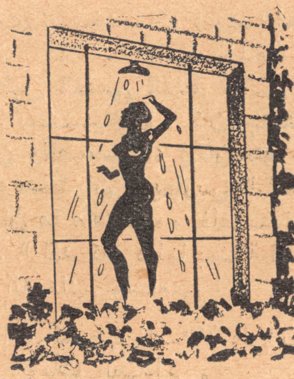
وفطنت فجأة الى التعبير الذى استخدمته ، فبهتت لحظة ، ثم قالت مقلدة صوت جدها : « ما كنت لالعب خدعة قذرة كهذه معك ! » . **ووجد التحليل النفسى القنطرة التى يعبر عليها الهوة التى كانت تعترض سـبيله .. كان جدها هو المصـدر الوحيد للحب والامان والطمأنينة ، وكان هو الذى يقف بين الاذى وبينها ، وقد وعدها بأن لا يمارس « الخدعة القذرة » فيموت ، ولكنه سرعان ما مات ! ..** فأغضبها هذا التصرف ـ أى الموت ـ منه .. « لقد كان دائما بمثابة اله لى ، فاعتقدت أن تخليه عنى يعنى أنه ملنى وسأمنى ! »

وسرعان ما اخترقت « ليندا » الحجب المسدلة على نفسها منذ الطفولة ، وأدركت مصدر نوبات الصداع .

رجل وامرأة .. فى الحمام

• **وبقيت** حقائق أعمق وأهم ، دفينة فى نفسها .. وكانت أهمها جميعا الرابطة بين جدها وبين أزواجها الخمسة .. كانوا مختلفى الشخصيات ، ومع ذلك فقد كانت ثمة صفة مشتركة بينهم .. المرح والفكاهة والترفق بليندا ، والصبر عليها ، والوفاء لها . **ولكن ، لماذا كان كل منهم يتعرض لاشمئزازها سريعا ؟ .. كان الجواب يتمثل فى حادث جعل جسد الذكر يبدو لها رمزا للذنب !**

وجاء مفتاح اللغز أثناء حديثها فى احدى الجلسات .. فقد ترددت طويلا ، ثم قالت : « ترى هل ستفهم هذا ؟ .. ما أرانى كنت أصدقه لو أن غيرى فعله ، ورويت لى قصته ! » . فبعد موت جدها كانت تستشعر وحشة قاسية ، وكانت تغادر بيت أبويها — حيث كانت تترك وحيدة — وتخرج تتسكع ، لمجرد الشعور بالقرب من الناس .. وكانت تمضى فى تسكعها الى بيت صغير ، فى بقعة منخفضة، فكأنه فى أحد الوديان .. وكانت من موقفها ترى نافذة الحمام، التى أسدلت عليها ستار ممزقة بالية .. واعتادت — فى كل صباح — أن ترى رجلا يدخل الحمام ، فيخلع ثيابه ، ويقف تحت الماء المنصب من « الدوش » ، حتى اذا اغتسل، حلت زوجته محله .



وفى أحد الايام ، استرعى وقوفها وانصرافها الى المنظر ،

اهتمام صبى مار ، فوقف خلفها يشهد المنظر ، دون أن تفطن الى وجوده . وما أن خلعت المرأة ثيابها ، وبدأت تغتسل ، حتى انفجر الصبى ضاحكا ، وأرسل صفيرا عاليا .. واذا بزوج المرأة يقبل جريا ، فيباغت الصبى ، ويضربه ، بقسوة وعنف ، حتى كاد أن يقتله .. **وانتشر نبأ الصبى فى الجيرة ، فما من أحد الا واستنكر فعلة الصبى ، ورأى أنه لم ينل عقابا كافيا .. وقد سمعت « ليندا » أبويها يتحدثان فى الامر ، على مائدة العشاء ، وهما يستنكران تصرف الصبى ، فسألت أمها :** كيف يكون النظر الى الاجساد العارية خطيئة ، وهى ترسم كثيرا من العراة ؟ .. فعنف والداها فى تأنيبها !

هنا مكمن السر الدفين !

• **وبكت** « ليندا » بكاء مرا ، وهى تستطرد قائلة : « ولكن أمى ذهبت فى غضبها الى حد أن تساءلت : أترانى يوما بدوت عارية أمام جدى ، فأغضبته وجعلته يهجر الارض ؟ »

ـ أترينها كانت تعنى أن تتهمك بقتل جدك ؟

ونكست « ليندا » رأسها ، وهى سادرة فى البكاء ..

وبعد أسابيع ، استطاعت الشابة أن تدرك أنها كانت تحتفظ فى نفسها بصورتين لجدها : احداهما صورة الجد الطيب ، المرح ، الرقيق الذى عهدته .. **والثانية صورة الجد الذى يغضب ويعاقب .. الصورة التى أوحت بها اليها مخاوفها من أن تخرق قواعد الاخلاق التى لقنها اياها ، والتى عززتها تهديدات أمها .. وكانت هذه الصورة تطل عليها ـ دون أن تفطن ـ فى غضب ، لانها كانت تسترق النظر الى الرجل العارى فى الحمام !**

ومن هنا تكشف سر النفور والاشمئزاز الذى كان يعتريها فى صبيحة اليوم التالى لكل زواج